الدكتور عدنان علي رضا النحوي

موجز
النظرية العامة للدعوة الإسلامية
والنهج العام
وأساس لقاء المؤمنين

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤١٩هـ ١٩٩٩م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

موجز
النظرية العامة للدعوة الإسلامية
والنهج العام
وأساس لقاء المؤمنين

الدكتور عدنان علي رضا النحوي

الطبعة الثانية
مزيدة ومنقحة
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

دار النحوي
للنشر والتوزيع

ح دار النحـــوي للنشـــر والتوزيـــع ، ١٤١٩هـ

فهـــرســـة مكتبـــة الملك فهـــد الـــوطنيـــة أثنـــاء النشر

النحوي ، عدنـــان عـــلي رضـــا

موجز النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين – ط٢

– الريـــــاض

... ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمـــك ٥-٤٦-٦٨٧-٩٩٦٠

١–. الدعوة الإسلامية ٢– الأمة العربية ٣– الوحدة الإسلامية

أ– العنوان

ديوي ٢١٣ ١٩/٠٤٦٣

رقم الإيـــداع ١٩/٠٤٦٣

ردمـــك ٥-٤٦-٦٨٧-٩٩٦٠



الطبعة الأولىٰ
١٤١٥ هـ - ١٩٩٤م

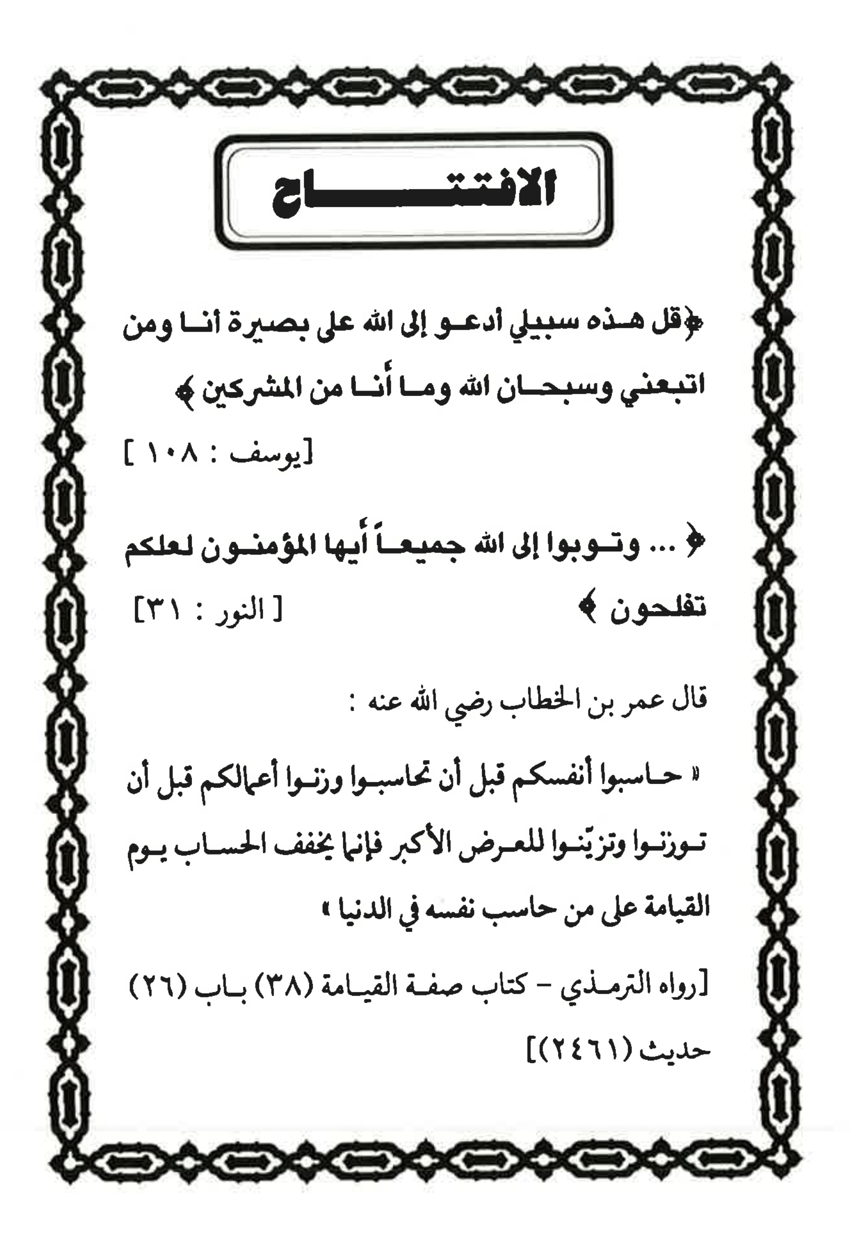
الطبعة الثانية
١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م

دار النحوي للنشر والتوزيع
تلفون وفاكس: ٤٩٣ ٤٨ ٤٢
ص.ب: ١٨٩١ الرياض: ١١٤٤١
المملكة العربية السعودية



الاهـــــداء

إلى الدعاة العاملين ليقفـوا مع أنفسهم وقفة إيمانيّة ، وقفة مـراجعـة وحِسـاب وتقويم ، وقفة توبة وإنابة .



الافتتــــــاح

﴿قل هـذه سبيلي أدعـو إلى الله على بصيرة أنـا ومن اتبعني وسبحـان الله ومـا أنـا من المشركين﴾

[يوسف : ١٠٨]

﴿... وتـوبوا إلى الله جميعـاً أيها المؤمنـون لعلكم تفلحون﴾ [النور : ٣١]

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

« حـاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبـوا وزنـوا أعمالكم قبل أن تـوزنـوا وتزيّنـوا للعـرض الأكبر فإنما يخفف الحسـاب يـوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا »

[رواه الترمـذي - كتاب صفـة القيـامة (٣٨) بـاب (٢٦) حديث (٢٤٦١)]

كلمـات
يجـب أن نقــف عنــدها

من أجل أن يعرف الدعاة أهمية مسؤولياتهم وخطورتها ، فإننا نقول :

إن بناء عمارة مهما عظمت يَسهل إذا قيس ببناء الإنسان على قـواعد الإيمان والتوحيد وعلى قواعد المنهاج الـرباني . فتلك مهمة يقوم بها المهندسون والفنيـون ، أما بناء الإنسان وإعداده وتدريبه فهي مهمة بعث الله من أجلها الرسل والأنبياء الذين ختموا بمحمَّد ﷺ ، ثم جعلها مهمة الأمة المسلمة الواحدة الممتدة مع الزمن .

* * *

ومن أجل لقاء المؤمنين الصادقين العاملين وبناء الأمـة المسلمة الواحدة ، ومن أجل العهـد مع الله والأمانـة والخلافة والعمارة والعبـادة التي خُلِقَ الإنسـان لها ، والوفـاء بها في الحياة الدنيا ، فإننا نذكر بأنه : يجب أن نتعاون فيما أمر الله أن نتعاون فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله أن نختلف فيه .

* * *

ومن أجل ألاّ ندّعي الخوف على الإسـلام من خلال الضعف والتقصير والإقبال على الـدنيا ، والاحتماء خلف الشعـارات وحـدهـا ، فإننا نـذكّـر أنفسنـا والدعـاة والمسلمين والناس فنقول :

أيها الناس ! أيها المسلمون ! أيها الدعاة ! كما تُظهرون الخوف على الإسلام ، مع أنَّ للإسلام ربّاً سينصره بجنود ينصرون الله ربهم ويوفون بعهدهم معه ، فخافوا على أنفسكم حين تقفون بين يدي الله ، يسألكم عما فعلتم في الحياة الدنيا ، وهل نصرتم الله كما أمركم وتجنّبْتُم الفتن التي نهاكم عنها ، والصراع والشقاق وتنافس الدنيا ؟! .

* * *

ومن أجل الاستقامة على الصراط المستقيم ، ومعرفة الدرب الذي يقود إلى الأهداف ، نذكّر ونقول :

إذا غاب النهج والتخطيط على أساس الإيمان والتوحيد والمنهاج الرّباني في واقع أي أمّة ، فلا يبقى لديها إلا الشعارات تضجّ بها ولاتجد لها رصيداً في الواقع إلا مرارة الهزائم وتناقض الجهود واضطراب الخطا ، ثم الشقاق والصراع وتنافس الدنيا في الميدان ، ثمّ الخدر يسري في العروق ، ثمّ الشلل ، ثم الاستسلام !

* * *

ومن أجل تأكيد أهمية النهج والتخطيط في الواقع نذكّر كذلك ونقول :

إذا التقى فريقان : فريق له نهجه وخطته ، فعرف بذلك دربه ومراحله وأهدافه ، فنهض وصدق عزمه لها ، وفريق لانهج له ولاخطة إلا الشعارات يُدوّي بها ، فإن الفريق الأول بنهجه وتخطيطه يستطيع أن يحوّل جهود الفريق الثاني لصالحه ، فيجني النصر ، ويجني الآخر الهزيمة والخسران والحسرة .

* * *

ومن أجل الاطمئنان إلى السبيل لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية فإننا نقول :

إن الأهداف الربانيّة لايمكن تحقيقها إلا بجنود ربّانيين ووسائل وأساليب ربانية . وهذه وتلك تحتاج إلى بناء وإعداد ربّاني .

مقــدمــة
الطبعـة الأولـى والثـانيـة

نقدم في هذه الدراسة وهذا البحث « **موجز النظرية العامّة للدعوة الإسلامية** » ، وموجز النهج العـام والتصور العام للدعوة الإسلامية والعمل الإسـلامي ، وأساس لقاء المؤمنين .

إننا نؤمن أن النهج العام والتصور العام معروض كله في منهاج الله موجزاً ومفصّلاً في آيات معجزة ولكنها ميسَّرة للذكر مع إعجازها ، وفي أحاديث الرسول ﷺ .

إننا ، فيما نقدّمه ، **نذكّر بما أمر الله به** حقّاً نزل به الوحي الأمين وبلَّغه رسول الله ﷺ . نذكّر لأن الذكرى تنفع المؤمنين ، ونذكر لأن الله أمر بالتذكير .

ثم ندرس الـواقعَ دراسةً موسعـةً من خلال **منهاج الله** ، حتى نعي الـواقع ونحدِّد الخلل ونحدّد العِلاج ، كل ذلك على أساس من منهاج الله .

وعلى ضوء ذلك نجمع مانُذكِّر به من أمـر الله ، الذي نراه يعالج أمراضنا والخلل في واقعنـا ، نضع مانُـذَكِّـر به في نهج عـام وخطة ومنـاهج تفصيليـة ، ودراسات تفصيليـة مترابطة متناسقة ، تمثل **النظريّة العامة للدعوة الإسلامية** والنهج العام والتصور العام وتفصيلاتهما .

والخطوة الهامة في هـذا كله «**التدريب**» بمراحلـه وأنواعه المفصلة في دراسـاتها ، والذي يمثّل جزءاً هاماً في النظرية التربوية التي نـدعو لها ، وفي التصور العام . فلا بد من التدريب المنهجيّ الممتدّ ، التدريب الذي يظلّ ملازماً لعملية البناء والإعداد في جميع مراحله .

والدراسـات التي نقدّمهـا في كتب الدعـوة الإسلاميّة يمكن أن نقسمهـا من حيث المبدأ إلى قسمين : دراسـات أو كتب توجـز النظرية والنهج والخطـة ، لمن يريـد أن يأخذ

فكـرة سريعة عـامة ، وكتب تفصّل النظـرية وأجـزاءها كلهـا والنهج والخطة والأهـداف والوسائل .

والموضوعات التي تطرقها هذه الدراسات يمكن إيجازها بما يلي :

الـدعـوة والبـلاغ : إلى الإيمان والتـوحيد ، إلى الله ورسـولـه ، إلى منهاج الله والتكـاليف الـربـانية فيـه ، والنهج لتطبيق ذلـك في الواقع وخطتـه ومنهـاجـه ونماذجه .

التربيـة والبنــاء : النظرية ، والنهج والخطة ، والمناهج والنماذج التطبيقية والأهداف ، والوسائل والأساليب .

التــــــــدريـب : وهو جـزء من التربية والبناء ، وإنما أبرزنـاه موضوعاً مستقـلاً لندرك أهميتـه وخطورتـه وضرورتـه . نعـرض أنواعـه ومـراحلـه ومناهجـه ونظريته .

الفقــــــــــه : امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع .

النهج والتخطيـط : نظريته وأسسه ومناهجه ونماذجه التطبيقية .

الممارسة الإيمانية : نظريتهـا وخصائصهـا ومناهج التـدريب عليها ، والنمـوّ والتطوّر على أساس الإتقان والإحسان .

المنهج الإيماني للتفكير : نظريته وخصائصه وممارسته ، حتى لايتبدّد فكر المسلم وجهده .

ميـــــزان المؤمن : لبيان الأسس التي يوزن بها الناس .

المؤسسات الإيمانية : تعريفها ودورها وأهميتها .

التقـويم الـدوري : نظريته وأنواعه ومراحله ومناهجه ونماذجه

الإدارة والإشراف : نظـرية الإدارة الإيمانيـة ووسائلهـا ومنهاجهـا ونماذجها : لـلإشراف والتوجيه والتنسيق وغير ذلك .

دراسات في الواقع : القضايا الفكرّية الثائرة في الواقع : الشورى ، الديمقراطية ، العلمانية حقوق الإنسان ، التعامل مع مجتمع غير مسلم ، النمو والتطور ، ودراسات في أحداث الواقع وقضاياه ، مباشرة ومن خلال الأدب نثراً وشعراً .

الأدب الملتزم بالإسلام : نظريته وخصائصه الإيمانيّة والفكرية والجمالية .

النقد الملتزم بالإسلام : نظريته وأسسه ونماذج تطبيقية .

الرد على المذاهب الغربية : من حداثة وبنيوية وإبراز أهم الفروق بينها وبين الإسلام .

الشعر والملاحم : تقدم عدداً من الدواوين لتمثل الأدب الملتزم بالإسلام ، ونقدم عدداً من الملاحم الأدبية كل ملحمة تتألف من جزأين : نثريّ وشعري ، نعرض نظرية الملحمة الملتزمة بالإسلام ، لنفارق التصور الوثنيّ اليونانيّ الذي سيطر على أدبنا .

الوسع الصادق والوسع الكاذب والتفريق بينهما : الوسع الذي وهبه الله لكل إنسان، والوسع الذي يصوغه الهوى .

إننا نعرض هذا النهج لأنه نابع من قواعد الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ، ولأنه حسب اجتهادنا يلبّي كثيراً من حاجة واقعنا اليوم ، ولأنه قادر بمرونته أن يلبّي حاجات متجددة في الواقع .

إن هذا النهج يأخذ باعتباره وسع الإنسان ، ويقسمه إلى نوعين : الوسع الصادق الذي وهبه الله لكلِّ إنسان ، والذي سيحاسب عليه يوم القيامة . والوسع الكاذب الذي تصوغه الأهواء والشهوات والمصالح الدنيوية المعزولة عن تصور الدار الآخرة .

وإننا نعرض هذا النهج عسى أن يكون أساساً للقاء المؤمنين الذين يرجون الله والدار الآخرة ، على أن يكون الأساس العمليّ والنظريّ للمؤمنين العاملين الجادين الذين يكون ولاؤهم الأول لله وحده ، وعهدهم الأول مع الله وحده ، وحبّهم الأكبر هو لله ولرسوله ،

الله وحده كما أمر ، وليستقيموا على عبادته حتى يلقوه .

لقد رأينـا بعد تجارب مـريرة مـؤلمة أن اللقاء لايصحّ أن يكـون على أسس عـائلية أو حزبيـة أو قومية أو إقليميـة ، ولا على أساس تنافس الـدنيا ولا أساس عبـادة العباد . إن لقاء المؤمنين الصادقين العاملين لايمكن أن يتمَّ **إلاّ على أسس ربّانيّة ثابتة لاحقَّ لأحد بالخروج عليها أو مخالفتها** .

لذلـك جاءت هـذه النظريـة العامة للـدعوة الإسـلامية والنهـج العام والـدراسات والتفصيلات لتبرز هذه القـواعد الربانيّـة . ولذلك ندعـو إلى الأخذ بقاعدة جـديدة بدلاً من القاعدة السابقـة التي كانت تقول : «**نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعـذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه** » .

لتصبح القـاعدة الجديـدة : **يجب أن نتعـاون فيما أمـر الله أن نتعـاون فيـه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما أذن الله لنا الاختلاف فيه** » .

إن الفرقـة بين المسلمين اليوم واضحة جليّة . وإن آثـارها المدمّرة واضحـة كذلك ، وإن استمرار هذا الواقع يعني زيادة في الدمار والهوان .

فلا بدّ من كلمـة واضحة ننصح بها لله ولرسوله ولكتابـه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، لنعذر أنفسنا بين يدي الله ، ولنستغفره ونتوب إليه عسى أن يرحمنا بعفوه ومغفرته وفضله .

إننا نؤمن أن النصر من عند الله وحده ، وأنَّ الله لاينزل نصره على المتنازعين المتفرّقين ، ولا على المتنافسين على الدنيا ، حين تكون حقيقـة الصراع هي من يثبت نفسه في الساحة ، ومن يحشـد الحشد الأكبر ، ويرفـع الصوت الأعلى ، وحين تغيب بين أمـواج هذا الصراع والشقاق القضايا الحقيقية إلا بمقدار مايحويه الشعار .

ونؤمن كذلك :

﴿ إن الله يـحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾
[الصف : ٤]

وأيضاً :

﴿ شرع لكم من الدين مـاوصّى به نوحـاً والذي أوحينا إليك وما وصينـا به إبـراهيم ومـوسى وعيسى أن أقيمـوا الـدين ولا تتفـرّقـوا فيـه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ [الشورى : ١٣]

نعم ! **﴿... أن أقيموا الدين ولاتتفرّقوا فيه كبر على المشركين ماتدعوهم إليه ...﴾**

إن إقـامة الـدين والاجتماع عليه صفّـا واحـداً هو الـذي يجعل المشركين يرتعـدون ، ويخافون ويكبر الأمر عليهم . والتفرّق يجعل المسلمين في هوان وذلة .

ولاتستطيع طائفة أن تـدّعي أنها هي وحدها تستطيع أَن تجابه مكر الكـافرين . فلا نجاة إلا بـاللقاء . واللقـاء لايصلح أن يكون على دنيـا وهوى ومصـالح . لابـد أن يكون اللقـاء ، لقاء المؤمنين ، على نهج قبل أن يكـون على أشخـاص . ولا بدّ أن يكـون النهج قائماً على قواعد ربّانيّة لايحلّ لمسلم أن لايلتزمهـا . فتصبح هذه القواعد وهذا النهج محكّـاً للنفوس وممحّصاً للقلوب .

إلى هذا اللقاء على أسس ربّانيّة ندعو المسلمين قبل أن يزداد البلاء ويعمّ العذاب .

إن المعـركة الحقيقيـة في أنفسنا ، في داخلنـا . فإن انتصرنـا على أهوائنـا وغيّرنا مـافي نفوسنا وصدقت النية والعزيمة ، فإن الله يفي بوعده لنا بأن يبدّل واقعنا إلى نصر وعزة :

﴿ .... إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم .. ﴾ [الرعد : ١١]

فإلى ذلك الميـدان ، الميـدان الأول ، ميـدان النفـوس ، لنخـوض المعـركـة الأولى ، المعـركـة التي يحقّق النصرُ فيها النصر في سـائر الميـادين بإذن الله . ولايحسبّن أحـد أن الله لايعلم مـاتخفي النفوس ، ومـا تموج به الأهـواء ! كلا ! إن الله عليم بـذات الصدور ، إن الله يعلم خائنـة الأعين وماتخفي الصدور ! كيـف ندعو لبنـاء أُمة مسلمة واحـدة يحكمها منهاج الله إذا كان المسلم الداعية لايخضع لمنهاج الله ؟!

وإن أمـام كل إنسان مـوتاً محققـاً وبعثاً وحسـاباً، فلينظـر كلٌّ منا مـاذا أعد لغـد :

﴿ **يأيها الـذين آمنوا اتقوا الله ولتنظـر نفس ماقدّمت لغـد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ [الحشر : ١٨]

اللهم إنا نستغفـرك من كل ذنب ونتوب إليك ونعـوذ بك ونلتجيء إليك ، فاهـدنا سبيل الرشاد ، واهـدنا صراطك المستقيم ، واجمع قلوبنا على طـاعتك وحبك والجهاد في سبيلك ، إنك نعم المولى ونعم النصير .

عدنان علي رضا النحوي

الريــاض :
١/٢/١٤١٩هـ
٢٦/٥/١٩٩٨م

تمهيد

يتطلع كثير من المسلمين اليوم إلى فرجة نور أو بصيص من ضياء من خلال الظلام الدامس الذي يلفّ العالم الإسلامي كله ، بل يلفّ البشريّة كلها . ويؤكّد واقعنا اليوم أن هنالك غارة مركّزة على العالم الإسلامي ، غارة عسكرية وفكرية ، تهدف إلى نهب ثروات العالم الإسلامي وخيراته ، وإلى إضعافه وتجريده من القوى الفعالة ، وإلى تخديره بالفتنة والانحلال والفجور ، وإلى طمس معالم الإسلام في الأرض ، وقتل رسالته .

ولقد رأى المسلمون الفشل الذريع الذي أصاب الجهود المبذولة ، ورأى الشعارات تتساقط وتتهاوى ، والهتافات تخفت وتغيب ، ورأى التلاوم والأعذار ومحاولات الهروب من المسئولية .

وغاب عن بال الكثيرين أنه مهما استطاع الناس أن يُفْلِتوا من الحساب في الدنيا ، فلن يُفْلِت أحد بين يدي الله يوم القيامة ، يوم لا يُغني مولىً عن مولىً شيئاً ، يوم لاينفع مال ولابنون ، يوم لاتنفع الأنساب ولا الشعارات ، ولا العشيرة ولا الجماعات ولا الألقاب ولا المناصب . .إنه يوم عظيم ، انه يوم زلزلة الساعة ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، ويوم تضع كذلك كل ذات حمل حملها ، ويوم ترى الناس فيه سكارى ، هكذا تراهم وما هم بسكارى ، ولكنه العذاب الشديد الأليم من عند الله .

في ذلك اليوم يتلفّت الإنسان ليدعو أولئك الذين كان يرفعهم ويظن أن نجاته عندهم ، فلا يجد حوله ناصراً ، ويدعو فلا يسمع دعاءه منهم أحد ، ولو سمعوا مااستجابوا له . إن الأمر كله لله والملك كله لله الواحد القهّار :

﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب * إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منّا كذلك يُريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ [البقرة : ١٦٥-١٦٧]

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخوّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنّهم فيكم شركاءُ لقد تقطّع بينكم وضلَّ عنكم ماكنتم تزعمون ﴾ [الأنعام : ٩٤]

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضرّ عنكم ولا تحويلاً ﴾ [الإسراء : ٥٦]

﴿ ... والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير . إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولاينبئك مثل خبير ﴾ [فاطر : ١٣ ، ١٤]

﴿ ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ﴾ [الكهف : ٥٢]

إذن طريق النجاة هي اللجوء إلى الله العزيز الحكيم ، الله الذي له الأسماء الحسنى كلُّها ، لجوءاً صادقاً لاشرك معه ، لجوءاً نابعاً من صدق الإيمان وصدق العلم بمنهاج الله ، ووعي الواقع ومسئوليات المسلم فيه ، وعي ذلك كله من خلال منهاج الله .

من هذا المنطلق نُذكِّر بمعالم على طريق النجاة ، منائر وضعها الله لعباده ليهتدوا بها .

أيُعْقَلُ أَن يجعل الله مصير الإنسان إلى جنَّةٍ أونار ، ثم لايبيِّن له بالدقة والتفصيل الطريق إلى هذه وإلى تلك ؟! سبحانه وتعالى إنه هو البرّ الرحيم .

لقد جعل الله الطريق جليّاً واضحاً ، وزوّد الإنسان بكل مايحتاجه ليهتدي إلى الطريق الحق في جميع العصور وفي جميع الحالات : جعل له فطرةً أودعها الإيمانَ والتوحيد ، وجعل الله السمع والأبصار والأفئدة ، وبثَّ آياته في الكون كلِّه وفي أنفسِنا ليُرينا آياته في الآفاق وفي أنفسنا ، لتُذكِّرنا بالحق الذي قامت عليه السموات والأرض . ثم بعثَ برحمته الأنبياء والمرسلين وأَنزل معهم الكتب ، وكان محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وجاء القرآن الكريم مصدّقاً لما بين يديه ومهيمناً عليه ، حتى لايكون للناس على الله حجة بعد الرسل .

إن الطريق جليٌّ واضح . ولاتكـون فيه العتمـة أبداً . إنـه مشرق بنور الحق . ولكنّ العتمة في أنفسنا ، في أبصـارنا ، في قلوبنا ، تنشرها الأهـواء والشهوات والمصالح ، حتى لايكادَ الرجلُ يُبْصر دربَ الحقِّ بما كسبت يداه .

إن العمل الإسـلامي أخذ فترة كـافية في عصرنا الحديـث ليثبت نجاحـه أو فشله في معركة امتدت قروناً ، وامتدت مع القرن الأخير . وكانت النتائج على نحو مانرى .

يريد بعضهم أن يعزل العمل الإسلامي عن الواقع ، فيدرسه بعد عزله ، ثم يرى أن العمل الإسلامي لايتحمَّل مسئولية الأحداث والوقائع والهزائم .

إن العمل الإسلامي رفع شعاراتـه خلال هذا القرن مدوِّيةعـالية ، حمَّل هو نفسه بها المسئولية ، وتقدّم ليُنقذ الأُمة ، ويساهم في أحداثها كلها تقريباً ، وبذل جهوداً ضخمة ، وقدم تضحيـات كبيرة ، وشهداء مضوا ليلقـوا ربَّهم . فلستُ أنا ولا أنت ولا غيرنـا يُحمِّلهُ المسئوليـة ، إنه هـو نفسه حمل المسئـولية وتقـدّم بها للناس ، فأين الشعـارات التي رفعها الجميع ، نعمْ ! الجميع ، أين هي اليـوم ، ومن التـزمهـا وحـوّلها إلى واقع حيّ ؟! أم أنها غابت بين الهزائم والفواجع ؟ أم أنها تبدلت وحالت ؟!

إن العمل الإسلامي جزءٌ من الأُمة ، والأُمة كلها مسئولة بين يدي الله ، وكل مسلم مسئول ومحاسب ، فأين المفرّ ؟!

لقد كـان الخطأ الأكبر الظاهـر لنا ، والله وحـده أعلم بما في الصدور ، أنّ مـن كان يتقدّم لتحمُّل مسئولية قضيَّة من القضايا ، أو أمـر من الأُمور ، أو مسئولية الدعوة ، كان في الوقت نفسه يُصِرّ على أن ينفرد بالمسئولية لايريـد لأحد أن يشاركه فيها ، كان في الوقت نفسه لايطرح أمـام الناس النهج الواضح العمليّ ، ولا الخُطَّة المدروسـة ولا مراحلها ، ولا يحدِّد الأهداف والوسائل والأساليب . وكان الناس في الوقت نفسه لايسألون عن النهج أو الخطة أو الدراسة ، ولايسـألون عن الدرب . كانوا يكتفون بالشّعـارات والرايات حتى إذا حلت الهزيمة وتوالت الفواجع بدأ التـلاوم ، وانطلقت المعارضة التي كانت قبل قليل من أكبر المشاركين في الأحداث . وشلّت بذلك طاقة كبيرة من العالم الإسلامي .

الجميع إذن مسئولون ! وكان الذي ينصح أو يـذكّر أو يعظ يُتَّهم بالفتنة والانشقاق ، وتطارده الشـائعات والافتراءات والأقاويل ، ليكـون من ذلك كله باب ابتـلاء تُمحَّص به النفـوس والصـدور والقلـوب ، وتنكشف مـاكـانت تتستَّر عليـه الشعـارات والمظـاهـر والزخارف وألوان الزينة . فأين المفرّ ؟!

لقد أقام النـاس لأنفسهم أوثاناً يعبدونها من دون الله . وربما كـان ذلك تحت شعار الإسلام وباسم الإسلام .

لقد غاب عن بـال الكثيرين أن من ينجو من العقاب في الدنيـا لاينجو بين يدي الله أبداً مـادام قد أفسد وأسـاء وظلم ! لاينجو أبـداً . ولذلك جعل الله الدار الآخـرة ليجزي الـذين آمنوا وعملـوا الصالحات بـالقِسط وبرحمتـه ، ويجزي الظالمين بظلمهم وبما كسبتـه أيديهم ، فأين المفرّ ؟!

إن استمـرار الواقع على مـاهو عليـه في العمل الإسلامي : فـرقة وشتـات ، وصراع وأحقاد ، وحسد وتنافس على الدنيا ، فأيُّ نجاة يرجوها العاملون ، وأي بلاء يساهمون في صنعه للأُمة ؟!

لقد مرّ من التجارب والأَحداث والفـواجع مايوقظ الحجارة الأَصلاد ولكن المسلمين مازالوا في غفوة عميقة ، تدور الأحداث من حولهم وهم يغطون في سبات عميق .

فَحسْبُ المسلمين اليـوم غفـوةً أنَّهم يتغنّون بـأَمجاد غيرهم ، وبمن مضـوا إلى ربِّهم ، حتَّى كادوا يجعلون منهم أوثاناً ، يتصـارعون ويختلفون عليهم ، دون أن يعملوا عملهم ، ودون أن يجعلوا منهـاج الله مرجعهـم الأول عملياً ، ودون أَن يكـون محمد ﷺ هـو قدوتهم الأولى في واقع الممارسة والتطبيق .

إن الله قـويٌّ عـزيـز ، ينصر دينـه أنَّى شـاء . فليس خـوفُنـا على مصير الإسـلام ، ولـلإسـلام ربٌّ ينصره على يـد من يشـاء من عبـاده . ولكن الخوف والقلق والهلع على مصيرنا نحن بين يـدي الله ، حين يدور الحساب ويقـام الميزان ، ونُسأَل عمّا فعلنا وبـذلنا لنصرة دين الله ! فأين المفرّ ؟!

ينقضي العمر ، ويُطوَى الإنسان في قبره ، لاينفعه مال ولابنون ، ولاقوة ولا سلطان ، ولاجند ولا حشود ! لاينفعه شيء إلا رحمة الله وعمله في الدنيا : كم صدق فيه ربَّه وأَخلص نيَّته عن وعي وعلمٍ ، لا عن خَدَرٍ وهوى ، وكم طابق عمله منهاج الله :

﴿ ... فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [ق : ٤٥]

﴿ ... وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [النور ٣١]

﴿ يائيها الذين آمنو آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزّل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً ﴾ [النساء : ٣٦]

من أجل ذلك أصبح من واجب الفرد المسلم والجماعة والأمة ، من واجب كل حركة إسلامية أن تدع الكبر والغرور ، وتقف مع نفسها وقفةً إيمانية ، تراجع فيها مسيرتها من خلال منهاج الله وحده ، لتعرف أين أخطأَتْ ، ولتزيل جميع مظاهر الشرك الخفيّ أو الظاهر ، ثم نتوب إلى الله جميعنا توبةً نصوحاً ، ونعودَ لنرسم نهجنا على إيمان وتقوى ، وعلى خبرة ، ونور وبصيرة ، لنحدِّد الدرب والأهداف والوسائل ، عن وعي وتدبر، عسى الله أن يرحمنا بعفوه ومغفرته .

أيها الناس ! أيها المسلمون ! أيها الدعاة ! لاتخافوا على الإسلام ، فإن الإسلام سينتصر ! ولكن خافوا على أنفسكم لأنكم ستحاسَبون ! سينصر الله دينه بعباد أوفوا بعهدهم مع الله ، فيُمنّ عليهم بشرف النصر ينزله عليهم . . . ! ولكن خافوا على أنفسكم لأنكم ستسألون عما قدّمتم ، وتحاسبون عما فعلتم ، وأين كان دوركم ، أَفي نصرته ، أم في الهزيمة من خلال الفرقة والتمزّق ، والكبر والغرور ؟! وكم أوفيتم بعهدكم مع الله العلي القدير .

﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنيّ عن العالمين ﴾ [العنكبوت : ٦]

من أجل ذلك نقدّم هذا الموجز للتصور الذي نعتقده للدعوة الإسلامية ، فعسى

أن يكون نقطة انطلاق للقاء المؤمنين الصادقين العاملين . إننا نقدم خصائص الدعوة الإسلامية موجزة لما فصّلهُ منهاج الله ، ونقدِّم موجز النظرية العامة ، وموجز الأهداف والوسائل والأساليب ، وأهم الموضوعات المرتبطة بهذا النهج والتي تمّت دراستها على ضوئه .

إننا نسأل الله سبحانه وتعالى ، وندعوه ، ونلحُّ بالدعاء ، أن يجعل هذا العمل وعملنا كله طاهراً من خَبَث الدنيا ، غنيّاً بفضل الله ورحمته ، خالصاً لوجهه الكريم ، بريئا من الجري اللاهث وراء الزخرف والزينة وزهرة الدنيا . وندعو الله أن يجعل فيه صلاح حالنا في الدنيا والآخرة ، ونجاتنا فيهما . وهل يمكن ذلك إلا أن ينبع النهج والتصوُّر والنظرية من منهاج الله ومن التمسك به ، ومن صفاء الإيمان وإخلاص الولاء لله والعمل على نهج تطبيقي تفصيلي يقوم على ذلك ؟!

إننا نقدّم هنا موجز النهج والتخطيط الذي ندعو إليه . ولكل قضية موجزة هنا دراسات مفصلة تقدم الوسيلة والأُسلوب لتحقيق الأَهداف المحددة والدرب والنهج .

إلا أَن تحقيق الأهداف الإيمانية لايعتمد على سلامة النهج والخطة فحسب ، بل لابد، مع النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج والتخطيط ، من توافر الطاقة البشريَّة المؤمنة الصادقة ، والكفاءات المدرَّبة القادرة ، الواعية لمنهاج الله دراسة وتدبّراً والتزاماً ، والواعية للنهج والخطة والملتزمة بها .

إن هذا النهج يغطّي جزءاً من ميادين الدعوة الإسلامية . فهناك ميادين أخرى ممتدة تحتاج إلى النهج والتخطيط ، وإلى الطاقة البشرية المؤمنة المدرّبة الصادقة التي تطرق أبواب الجنة بسعيها ، لاتفتنها زخارف الدنيا وزينتها ، الطاقة البشريّة الواعية المدرّبة القادرة بصفاء إيمانها وقوة علمها وخبرتها وتدريبها أن تدخل هذه الميادين على وعي ويقظة .

من أجل المساهمة في بناء هذه الطاقة البشرية : إيماناً وعلماً ، وفكراً وتصوّراً ، ونفسيّة وعملاً . ومنهجاً عمليا تطبيقياً ، من أجل ذلك كله نقدم هذه النظريّة العامة

للدعـوة الإسلامية ، ونقـدم هذا النهج والمناهج التطبيقيـة والنماذج العملية ، على أوسع مانستطيعه من الدراسات والتفصيلات .

لقد بدأت هذه الدراسات بصورة مبـدئية في ميدان العمل قبل أكثر من ثلاثين عاماً ، ثمّ أخذت تنمو نظرياً وتطبيقـاً ومناهج . وإننا نأمل أن نتابع الجهد بإذن الله ونحن نسعى إلى نموّ الإتقـان والإحسان على أسـس راسخة ثابتـة إن شاء الله ، نقبـل النصيحة ونـرجو رضاء الله وطاعته ، لافضل في ذلك إلا لله وحده ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .



الباب الأول

الدعوة الإسلامية والأُمة المسلمة الواحدة

الفصل الأول
الدعـوة الإسلاميّـة
رسلها ودعاتها وجنودها

١ - ماهي الدعوة الإسلامية ؟! ولماذا يجب أن تقوم ؟!

الدعـوة الإسلامية هي أمـر من الله بدعوة النـاس كافة إلى الإيمان والتـوحيد ، إلى الله ورسولـه ، وتبليغهم رسالـة الله كما أنزلها وحياً على الـرسل والأنبياء وختمها بـرسالـة محمد ﷺ، لتظل ممتدة في الأرض كلها ، وممتدة في الزمن حتى قيـام الساعة ، تستكمل مراحلها وميادينها من خلال نموٍّ إيمانيّ طبيعي سليم :

﴿ ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمـرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [آل عمران : ١٠٤]

الـدعوة الإسـلاميـة تحمل أكبر حقيقـة في الكون كلّـه وفي حيـاة الإنسان على مـدى العصـور والأجيال . إنها حقيقـة التوحيـد ، الحقيقة التي تقـوم عليها السمـوات والأرض بالحق ، والتي يجب أن تقوم عليها حياة كل إنسان .

الدعوة الإسلامية تذكّر الناس بالتكـاليف الربّانية التي سيحاسبون عنها بين يدي الله يوم القيامة ، سيحـاسبون عن مدى الوفاء بها ، يوم تقـوم الموازين القسط ، فيذهب فريق إلى الجنة وفريق إلى النار ، لايغني مولى عن مولى شيئا :

﴿ وما خلقنا السموات والأرض ومـا بينهما لاعبين * ماخلقناهما إلا بالحق ولكنّ أكثرهم لايعلمون . إن يوم الفصـل ميقاتهم أجمعين . يوم لايغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾

[الدخان : ٣٨-٤٢]

وكذلك :

﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لاتكلم نفسٌ إلا بإذنه فمنهم شقيٌّ وسعيد . ﴾ [هود : ١٠٣ - ١٠٥]

وكذلك :

﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربيّاً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لاريب فيه فريق في الجنّة وفريق في السعير ﴾ [الشورى : ٧]

فما هي هذه الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ؟! :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون . يُنزِّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون * خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾ [النحل : ١-٣]

هذه هي الحقيقة الكبرى في الكون والحياة : **﴿ لا إله إلاّ أنا فاتقون ﴾** .

وكذلك

﴿ سبح لله مافي السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ [الحديد ١-٣]

هذه حي الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، وهي جوهر الدعوة الإسلامية وقاعدتها الصلبة ، وهدفها الرّبانيّ الثابت الأوّل ، الممتدّ معها في جميع مراحلها ، وهي تستكمل ميادينها ، وفي اللحظة التي يتوقف فيها هذا الهدف الربانيّ الثابت الممتد ، هدف الدعوة والبلاغ إلى الإيمان والتوحيد حتى يستقرّا في القلوب ، في اللحظة التي يتوقف هذا الميدان تنتهي حقيقة الدعوة الإسلامية ، وتفقد سائر الميادين مسوّغ قيامها ومصدر قوتها ونشاطها ، ومصدر شرعيتها .

---

(١) يراجع كتاب : دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية - الباب الثالث . للمؤلف وسائر كتب الدعوة للمؤلف حول هذا الموضوع الهام .

هذه الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، نوجزها بهذه الكلمات :

« أشهد أن لإله إلا الله وحده لاشريك له ملك السموات والأرض وما بينهما ، وله الحمد كله وله الأمر كلّه ، وهو على كلِّ شيء قدير ، له الأسماء الحسنى كلها ، وأشهد أن محمداً ﷺ ، عبدالله ورسوله ونبيّه الخاتم ، بلّغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة » .

هذه هي الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، من أجلها بعث الله الرسل والأنبياء الذين ختموا بمحمد ﷺ ، ومن أجلها تقوم الدعوة الإسلامية ومن أجلها تمتد مراحلها وميادينها ، وتظل تمدّ هذه المراحل والميادين بالقوة والحياة ، والنور والهدى ، فإذا تعطلت هذه الحقيقة ، وتوقّف ميدانها ، وأصبحت شعاراً فحسب ، فقدت الميادين كلها مصدر قوتها وفقدت مصدر حياتها ونورها وهداها .

٢ - من المكلفون والمسؤولون عن النهوض إلى الدعوة الإسلامية :

لقد كان الأنبياء والمرسلون الذين بعثهم الله على مر التاريخ ، ابتداء من نوح عليه السلام حتى النبيّ الخاتم محمد ﷺ ، هم وأصحابهم يحملون مسؤولية الدعوة الإسلامية في الأرض كلها :

﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ [الأعراف : ٥٩]

وكذلك :

﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ [الأعراف : ٦٥]

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. ﴾ [الأعراف : ٧٣]

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .. ﴾ [الأعراف : ٨٥]

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلاً قد قصصناهم عليك ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ . [النساء : ١٦٣ - ١٦٥]

هكذا امتدت الرسل في التاريخ البشريّ منذ عهد نوح عليه السلام حين ظهر الكفر في قومه . وامتد في العصور التي تلت ، مامن أُمة إلا جاءها رسول نذير ، حتى ختموا بمحمدٍ ﷺ :

﴿ ولقد بعثنا في كلّ أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾ [النحل : ٣٦]

﴿ إنا أرسلناك بالحقّ بشيراً ونذيراً وإن من أمّة الا خلا فيها نذير ﴾ [فاطر : ٢٤]

وهكذا مضت الدعوة الإسلامية في الأرض يحملها الأنبياء والرسل ومن آمن واهتدى معهم ، كل رسول يرسل إلى قومه خاصة ، حتى لايكون لأحد حجّة على الله أبداً بعد الرسل :

ومع ذلك فقد بعث الله محمداً رسولاً نبياً للعالمين ، بعثه برسالة جامعة مصدّقة لجميع من سبقه من الرسل ومهيمنة على كتبهم ، وخاتم النبيين والمرسلين :

﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ [المائدة : ٤٨]

﴿ وما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ [الأحزاب : ٤٠]

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

وبعثه الله للناس كافّة :

﴿ قل ياأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ... ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

﴿ وما أرسلناك إلا كافّة للناس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر الناس لايعلمون ﴾ [سبأ : ٢٨]

وامتدت الدعوة الإسلاميّة حتى شملت الجزيرة العربية كلها ، ووجه رسول الله ﷺ رسائله إلى فارس والرومان وإلى الحبشة ، وأخذت تمتد ساحة الدعوة وتتّسع . ولما توفي رسول الله ﷺ تابع أصحابه رضي الله عنهم نشر هذه الرسالة وتبليغها لشعوب الأرض ، حتى لايبقى لأحد كذلك عذر ، بعد أن بعث الله النبيّ الخاتم بالرسالة الجامعة رحمة للعالمين .

وأصبحت مسؤولية الدعوة الإسلامية وحمل رسالتها في الأرض كلها مسؤولية الأُمة المسلمة كلها ، الأمة المسلمة التي بناها رسول الله ﷺ ، أمة مسلمة تمتدّ في الأرض والزمن ، وجاءت الآيات الكريمة تنذر من يتولّى عن حمل هذه الرسالة بعد وفاة الرسول الخاتم :

﴿وما محمّد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضّر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ﴾

[آل عمران : ١٤٤]

وهذا هو السؤال الذي يحمل إجابته « . . أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم . . » ؟! أي هل تتخلّون عن الأمانة التي حملتموها والدعوة الإسلامية التي أصبحتم من جنودها في مدرسة النبوّة الخاتمة ؟

والإجابة المتوقّعة من الصادقين : كلا ! لن ننقلب على أعقابنا وسنمضي في دعوتنا والوفاء بعهدنا مع الله ورسوله والوفاء بالأمانة التي حملناها .

وجاء التحذير من الله سبحانه وتعالى **﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾** .

نعم ! إن من ينقلب على عقبيه وتأخذه الدنيا ويترك الدعوة الإسلامية التي هي أساس الأمانة التي يحملها المؤمنون ، فأولئك هم الخاسرون ، ولن يضرّوا الله شيئاً ، وستمضي سُنن الله على حكمة بالغة وقدر غالب . وأما الشاكرون فهم الذين يوفون بالعهد والأمانة فسيجزيهم الله الجزاء الحسن .

بذلك أصبحت الأمة المسلمة الواحدة هي المسؤولية عن مضيّ الدعوة الإسلامية في الأرض بعد أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

وتوالت الآيات الكريمة تؤكد هذه الحقيقة الهامة والمسؤولية الكبيرة :

﴿ ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ [آل عمران : ١٠٤]

﴿ كنتم خير أُمة أخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾

وكذلك قوله سبحانه وتعالى يخاطب نبيّه ﷺ والمؤمنين على مدى الدهر :

﴿ ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ [النحل : ١٢٥](١)

وحديث رسول الله ﷺ يرويه حذيفة بن اليمان :

« والذي نفسي بيده لتأمُرنّ بالمعروف ولتنهوُنّ عن المنكر أو ليوشِكَنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعُنّه فلا يستجيب لكم » [رواه أحمد والترمذي](٢)

وكذلك :

﴿ يابنيّ أقم الصلاة وأمرْ بالمعروف وانه عن المنكر واصبرْ على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾ [لقمان : ١٧]

(١) يراجع كتاب : الفقه امتداده وشموله بين المنهاج الرباني والواقع للمؤلف : لمراجعة فقه هذه الآية الكريمة ، وكيف تكون الحكمة ، وكيف تكون الموعظة الحسنة .

(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - (رقم : ٧٠٧٠) .

نعم ! واصبر على ما أصابك . . ! إن الصبر من أهم أسلحة الداعية وهو ماض على صراط مستقيم :

وفي حديث لرسول الله ﷺ يرويه أبو سعيد بن سنان الخدري :

« . . . ومن يتصبّر يُصَبِّرْه الله ، وما أُعطي أحد عطاءً أوسع من الصبر » [رواه أحمد والشيخان] (١)

وتتوالى الآيات والأحاديث الشريفة تأمر بالدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد . وهذا رسول الله ﷺ يقول لعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه عندما أعطاه الراية لغزو خيبر ، في حديث يرويه سهل بن سعد : « . . ثمَّ ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمْرُ النَّعم » . [متفق عليه] (٢)

نخلص من ذلك إلى أن تبليغ رسالة الله إلى الناس وتعهّدهم عليها وبيان أمرها وتكاليفها فرض على كلِّ مسلم وهبه الله الوسع الصادق للقيام بهذا الأمر . فهو الهدف الثابت الأول في الدعوة الإسلامية ، وهو قاعدتها الصلبة وجوهرها ، وهو الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، وهو أخطر قضية وأكبرها في حياة كل إنسان .

إنه تكليف من الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين . فهو واجب كل مسلم قادر وواجب الأمة المسلمة على مدى الدهر ، لايَحِلُّ الانشغال عن هذا الأمر بأيّ قضيّة أُخرى ، فلا قضيّة أكبر من هذه القضية ولا أخطر منها . ولكن ينطلق المسلم منها وهو مزوّد بالزاد الحق إلى سائر التكاليف الربانيّة ، مترابطة متماسكة على صراط مستقيم .

يجب أن يشعر كل داعية أنَّ القضيّة قضيّتهُ هو ، وأنَّ الدعاة اجتمعوا لأنَّ لهم جميعاً قضيّةً ربّانيّة واحدة ، يمضون بها جميعاً على درب واحد ، على صراط مستقيم ، في سبيل الله .

---

(١) المرجع السابق (رقم ٥٨١٩) البخاري : ٢٤/ ٥٠/ ١٤٦٩ ، مسلم : ١٢/ ٤٢/ ١٠٥٣ .
(٢) البخاري ٦٢/ ٩/ ٣٧٠١ . مسلم : ٤٤/ ٤/ ٢٣٠٦ .

إذا لم يلتقوا فلأنَّ هنـالك متبوعاً تُعْتَبَرُ القضيـّةُ قضيته وحده ، أو قضيّة أفـراد حوله فقط ، وتابعين لايشعرون بأن القضيّة قضيّتهم ، شلَّـت قواهم وتعطلت ، فأصبحوا أشبه بالقطيع الذي يُساق إلى مهلكته .

لابد من تثبيت التصـوّر الحقِّ للقاء الدعاة ، التصـوّر الذي تكون فيه القضيـّة قضية كل فرد منهم ، في القلوب والنفوس ، لأن كلّ داعية مكلف ومسؤول ومحاسَب .

يجتمع الـدعـاة والقضيّـة قضيّـة كـل واحـد ، يجمعهم على الصراط المستقيم نظـام إداريٌّ نـابع من منهـاج الله ، يلبّي حـاجـة الـواقع الـذي يفهم من خـلال منهـاج الله ، ويجمعهم نهج محدَّد مفصّل ، يعـرف كلّ فرد مـن خلال النهج والتخطيط ، ومن خـلال النظام الإداريّ ، صلاحياته وواجباته ، على تنسيق كريم وتعاون كريم .

الفصل الثاني

الدعوة الإسلاميّة دعوة ربانيّة

١ - خصائص الدعوة الإسلامية :

لقد تحدثنا في هذا الموضوع في كتاب « **واقع المسلمين أمراض وعلاج** » وبينّا أن للدعوة الإسلامية خصائص ربّانيّة بيّنها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وفي سنة نبيه محمد ﷺ . ونوجز هنا أهم هذه الخصائص :

إنها تقوم على أساس الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان الحق والتوحيد الصافي ، حتى تكون هذه القضية هي الهدف الثابت الأول للدعوة الإسلامية والمهمة الكبرى . إنها قضية إخراج الناس من عبادة العباد والأوثان إلى عبادة الله ، وتعهدهم حتى يُنْزَع الشرك من القلوب ، ويُثبَّت التوحيد ويستقِر لمن يريد الله له الهداية . إن هذه القضية هي أخطر قضية في حياة كل إنسان ، وأكبر حقيقة في الكون . إن هذه الدعوة يجب أن تنال الدراسة والنهج والتخطيط ، والجهد والبذل ، حتى يوفي الداعية أمانته وواجباته ، وحتى توفي الدعوة الإسلامية مسئوليتها . إن الدراسة والنهج يشملان تحديد أهم مظاهر الخلل في الواقع ووسائل معالجتها ، ذلك كله على أساس من منهاج الله .

إن من أهم مايجب أن يناله البلاغ والبيان والتعهد والتربية بيان أهمية هذه القضية وخطورتها في حياة الإنسان والبشرية ، وكذلك حقيقة الأُلوهية والربوبية وعبودية الإنسان لربِّه وخالقه الله الذي لا إله إلاّ هو ، وأنَّ هذه القضية هي قضية الفطرة أولاً ، يشهد الكون كله على أنها الحق ، وجاء الرسل والأنبياء ليثبتوها في النفوس ، وأن يكون الولاء الأول لله ، والعهد الأول مع الله ، والحب الأكبر لله ولرسوله ، وأن الخشية من الله ، وأن التضرّع واللجوء إليه ، وأن هذه القضية قضية مفاصلة وحسم ، وتكاليف والتزام ، ومسئولية وحساب ، كلّ ذلك من خلال منهاج الله .

الدعوة الإسلامية لها رابطة واحدة هي أُخوّة الإيمان ، الأخوة في الله . إنّها رابطة لايمكن

أن تتحقَّق في الواقع إلا إذا تحقَّق صدق الإيمان والتـوحيد ، والولاء الأوَّل لله ، والعهد الأول مع الله ، والحبُّ الأكبر لله ولـرسـولـه ، لينبع من ذلك كل ولاء وعهـد وحب يقيمـه الإنسـان في الحياة الدنيا .

إن هذه الرابطة تنشأ بين المؤمنين بصـورة حتمية تلقائية ، حين تتحقق شروط الإيمان كلها مـن الولاء الأول والعهد الأول وغيرهما ، حتـى لاتنشأ عصبيات جـاهلية يتجـه إليها الولاء والعهد والحب ، وحتى لاتقام أوثان يعبـدها الناس من دون الله ، أو يحبونها كحب الله ، فالذين آمنوا أشـدّ حباً لله . وتصبح هذه الرابطة لاتقف عند حـدود العاطفة ولكنها تمتد إلى مسئوليات وحقوق .

إن هذا الولاء الأول لله ، والعهد الأول مـع الله ، والحب الأكبر لله ولرسوله ، والموالاة النابعة مـن ذلك بين المؤمنين ، والأخوة الحقيقية في الله ، تحتاج إلى جهـود كبيرة صادقة ، وتعهّد دائم مستمرٍّ ، يقتفي أثر مدرسة النبوّة في الدعوة الخالصة لله ، للإيمان والتوحيد ، وفي التعهّد والبناء ، والجمع والإعداد ، لبناء الأجيال المؤمنة التي تحتاجها البشرية كلها ، حتى يُوفي بحق العبادة لله ، والأمانة ، والخلافة ، والعمارة .

يصبح قيام الـدعوة الإسلاميـة برابطتها الـربّانية هذه نتيجـةً حتميةً ، وثمرةً مبـاركةً لصدق الإيمان والتوحيد ، ومتانة هذه الرابطة الإيمانية الربانية التي لاتنحرف إلى عصبيات جاهليـة ، بل تجمع المؤمنين الصادقين صفّاً واحـداً كالبنيـان المرصوص على رابطة ربّـانية صادقة يشهد الواقع على صدقها .

بذلك تكـون الدعـوة الإسلامية دعـوة واضحة جليـة : لها درب واضح ، وأهداف واضحـة ، وأساليب ووسـائل واضحة ، نقيَّـة طاهـرة ، لأنها كلها نـابعة من منهـاج الله مرتبطة به ماضية معه . وبذلك تكـون الدعوة إلى الدعوة إلى الله ورسوله على بصيرة ونور ، ويكون جميع جنودها مبصرين ، ليس بينهم قطيع يساق في متاهة وظلمة .

٢ - تحقيق خصائص الدعوة الإسلامية يحتاج إلى الأجيال المؤمنة وإلى النهج والتخطيط :

وحتى تتحقق خصائص الدعوة والبيان ، والتعهد والتربية والبناء ، وإعداد الأجيال

المؤمنة فلا بدّ من **النهج والتخطيط** لكل **خطوة** ولكل **ميدان** ، لابدَّ من **الإدارة الإيمانيّة** الواعية القادرة **والإشراف والمراقبة والتوجيه** من خلال هذه الإدارة ، **والمتابعة والنصيحة والتذكير** ، **ومتابعة معالجة الأخطاء** ، وتجنب الزلل والانحراف ، من خلال نظام إداريّ مفصّل ينمو مع الممارسة والتطبيق .

إن الدعوة والبلاغ ، والتربية والتعهد ، وبناء الأجيال المؤمنة ، يجب أن يظل عملاً متواصلاً ممتدّاً في جميع العصور ، لتظل الدعوة الإسلامية تقدّم للبشرية الأجيال المؤمنة دون توقف ، ويظل النهج والتخطيط ، والإدارة والنظام ، والجهد كله ماضياً على درب محدّد مدروس يقود إلى بناء الأُمة المسلمة الواحدة في الأرض ، لتتابع حمل مسئولية الدعوة الإسلامية وتجاهد في سبيل الله لبناء حضارة الإيمان والتوحيد ، وعمارة الأرض بها ، على طريق ماضٍ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنة ورضوان الله .

إنها دعوة للحق والخير والصلاح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، لتحقيق ذلك ولنشر دين الله ، وتجميع الناس عليه ، وصدّ المجرمين عن إجرامهم والظالمين عن ظلمهم ، وردع أهل الفتنة والفساد الذي يصدون عن سبيل الله .

إنها دعوة التزام لمنهاج الله واستقامة عليه ، فلا تركن للظالمين ولا تواليهم ، وتُعِدُّ من أجل هذا كله ماتستطيعه من قوة كما أمر الله ، وتُعِدُّ خططها ووسائلها على ضوء الواقع الذي تفهمه من خلال منهاج الله ، على أساس منهاج الله .

٣ - قبسات من القرآن الكريم :

إننا نورد بعض الآيات الكريمة التي تمثل بعض هذه الخصائص الرئيسية للدعوة الإسلامية . ولكن منهاج الله هو وحده الذي يفصّل هذه الخصائص كلها بأسلوبه الربّانيّ الميسّر للذكر المعجز في عرضه . فلا بد للمسلم من أن يعود إلى منهاج الله ليرى الآيات البينات والتفصيل الكامل :

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾
[فصلت : ٣٣]

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن ابتعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : ١٠٨]

﴿ إنه لقول فصل * وما هو بالهزل ﴾ [الطارق : ١٣، ١٤]

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز . لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . مايقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ [فصلت ٤١-٤٣]

﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم *تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [الصف : ١٠، ١١]

﴿ ولتكن منكم أُمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ [آل عمران : ١٠٤، ١٠٥]

﴿ وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لاتظلمون ﴾ [الأنفال : ٦٠]

﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولاتطغوا إنه بما تعملون بصير * ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثمّ لاتنصرون ﴾ [هود : ١١٢، ١١٣]

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أُمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأُمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لاحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ [الشورى : ١٥]

٤ - الدعوة الإسلامية بين الأحزاب والجماعات :

ترد في منهاج الله كلمة حزب لتجمع خصائص الدعوة الإسلامية كلها ، ولتعبر عن

حقيقة الدعوة الإسلامية ، الدعوة إلى الله ورسوله ، الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، في تجمع خصائصُه بعيدة عما توحيه كلمة «حزب» في واقعنا المعاصر . فليس الاسم هذا أو ذاك هو المهم ، ولكن توافر الخصائص الربّانية في واقع الحزب أو الجماعة هو المهم :

﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ [المجادلة : ٢٢]

وترد هذه الكلمة أحياناً في منهاج الله لتعبّر عن التفرّق الذي لايحبه الله وينهي عنه ، من خلال صيغة المفرد «حزب» أو الجمع «أحزاب» ! ولتعبّر عن الصراع والشقاق والتدابر الذي ينأى بالحزب والأحزاب عن المعنى الربّاني للدعوة الإسلامية . ولتعبّر كذلك عن طبيعة الانحراف الخطير حين يصبح ولاء الفرد لهذا الحزب أو ذاك ، في غيبة عن الولاء الحق لله ، والعهد الأول مع الله ، والحب الأكبر لله ولرسوله ، وفي ضجيج من الشعارات وأمواج من الزخارف وعواصف من الفتنة :

﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [المؤمنون : ٥٣]

﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[المجادلة : ١٩]

﴿ وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ﴾ [ص : ١٣]

لايَحِلُّ تعدّد الجماعات في الدعوة الإسلامية إذا كانت تمثل شقاقاً وتدابراً ، وتنافساً على الدنيا ، مهما حملت من شعارات الدعوة الإسلامية . ولكن يجوز التعدُّد حين تقوم كل جماعة على ثغر من ثغور الإسلام ، على تناسق وترابط وتساند . ولايحل كذلك تعدُّد الجماعات بتعدُّد الأقطار إذا أخذت النزعة القوميّة والإقليمية على صورة من التمزُّق والانقطاع والصراع ، لايجمعها إلا طلاء خفيف من أسماء وشعارات . فالدعوة الإسلامية دعوة للإنسان مهما اختلفت أرضه أو اختلف جنسه أو لونه . فإن تخلّت الدعوة عن هذه الصورة فقدت صفةً من أهم صفاتها ومصدراً هاماً من مصادر قوتها ، وأخذت لوناً من ألوان الانحراف ، وأوجدت سبباً من أسباب الهزيمة والخذلان .

قدَّمنا هنا أَهم خصائص الدعوة الإسلامية لاكلها . قدَّمناها بصورة موجزة . أما الخصائص الكاملة فهي في منهاج الله يعرضها بتفصيلاتها . ونجد تفصيلاً أوسع في كتابنا : **واقع المسلمين أمراض وعلاج** .

إن النظريّـة العامة للـدعوة الإسلاميـة جاءت لتبرز الأسس الربـانيَّة التي يمكن أن تلتقي عليها الجماعات الإسلامية ليكوّنوا صفّـاً كالبنيان المرصوص ، أمام أعاصير الفتنة ، ودياجير الظلمة ، وعوامل التمزّق ، ودعاة ذلك كله ، تحت شعارات بَـرّاقة .

إن النظرية العـامة جاءت لتذكـر بالقواعد والنهج الـذي يعين على تجنّب الانحراف أو الوقوع في الفتنة التي فُتِحَتْ أبوابها ! .

الفصل الثالث

الأمة المسلمة الواحدة ومسؤوليتها في الدعوة الإسلامية

١ - الدعوة الإسلامية ممتدّة في الأرض والزمن :

الدعوة الإسلامية ممتدّة في الأرض والزمن ، ممتدّة مع الأنبياء والمرسلين الذين لايعلم عددهم إلا الله ، منهم من قصّ الله علينا نبأهم ومنهم من لم يقصص . وبعث الله في كل أمة رسولاً بشيراً ونذيراً :

﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [النحل : ٣٦]

وكذلك :

﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن ياتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾ [غافر : ٧٨]

وكذلك :

﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ [فاطر : ٢٤]

نرى من هذه الآيات الكريمة وغيرها من الآيات امتداد دعوة الله في الأرض والزمن ، حتى كأن هذه القضية هي محور التاريخ البشريّ كله ، وكأن التاريخ هو قِصة الصراع الدائر بين الإيمان وبين الكفر ، وبين الحق وبين الباطل ، وبين الخير وبين الشرّ .

لقد كان كل نبيّ يبعث إلى قومه خاصة ، إلى كل قومه ، إلى كل فرد فيهم وليس إلى فئة محدودة أو طبقة معينة .

ثمّ بُعث محمدٌ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأنزل الله عليه الكتاب ، القرآن الكريم ، مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه .

بعث محمدٌ ﷺ للناس كافة ، للبشرية كلها ، وإلى العصور كلها ، يحمل رسالة الله من بعده الأمةُ المسلمة لتمضي بها في الأرض مع الزمن حتّى قيام الساعة . وجاءت الرسالة كذلك لكل إنسان ، لم تكن لفئة محدودة أو طبقة معينة :

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ [سبأ : ٢٨]

﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

﴿ يآأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأُمي الذي يؤمن بالله وكلماته لعلكم تهتدون ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

ويأتي حديث رسول الله ﷺ ليؤكد هذه الحقيقة الرئيسة في دين الله :

فعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « **أعطيت خمساً لم يُعطَهنَّ أحد من الأنبياء قبلي : نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلتْ لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أُمتي ادركته الصلاة فليصل ، وأحِلّتْ لي الغنائم ولم تُحَلَّ لأَحد قبلي ، وأُعطيتُ الشفاعة ، وكان النبيّ يُبْعَثُ إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى الناس عامة** »

[رواه الشيخان والنسائي][1]

وهكذا تمتد الدعوة الإسلامية في الأرض والزمن على سنن لله ماضية وحكمة بالغة وقدر غالب . تمتد الدعوة الإسلامية هذا الامتداد بالأنبياء والمرسلين ، وبخاتم الأنبياء والمرسلين ، وبالأمة المسلمة الماضية مع الزمن .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - رقم (١٠٥٦) .

٢ - الدعوة الاسلامية دعوة متكاملة :

ولننظر إلى تكامل الدعوة الإسلامية من خلال هذا الامتداد في حديث رسول الله ﷺ :

فعن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : « **مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تمّ موضع هذه اللبنة . فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة** » [رواه أحمد والترمذي وغيرهما](١)

تتصل دعوة الله في الأرض وتتكامل لتكون في التاريخ الإنساني ظاهرة فريدة هي أمة الإسلام الممتدّة كذلك في الأرض والزمن . إنها الأُمة المسلمة الواحدة التي تؤمن أنه لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وتؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين ، وتؤمن بأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن كتاب الله الذي أُنزل عليه هو الحق المطلق الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأنه مصدق لما بين يديه من الكتاب قبل أن يُحرَّف ومهيمناً عليه .

هذه الأمة الفريدة في التاريخ البشري حاجة الإنسانية ، حاجة الشعوب كلها . إنها هي وحدها التي تحمل رسالة الحق الذي أُنزل من عند الله ، رسالة الإيمان والتوحيد . وهي الأمة التي تنشر الحق والعدل ، والأمن والأمان والخير والصلاح ، وتحارب الشر والفساد ، والفتنة والظلم والعدوان .

ففي سورة الأنبياء ، بعد أن تستعرض السورة مسيرة الأنبياء ، يأتي قوله سبحانه وتعالى يعلن هذه الحقيقة الإنسانية الكبيرة .

✳ ﴿ **إن هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون** ﴾ [الأنبياء : ٩٢]

وفي سورة « المؤمنون » تتأكد هذه الحقيقة الكبيرة أيضاً فبعد أن تستعرض السورة مسيرة الأنبياء والمرسلين ، يأتي قوله سبحانه وتعالى :

---

(١) أحمد : الفتح الرباني (ج : ٢١) - (ص : ٢٨٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - ح حديث ٥٧٣٣ . الترمذي : ٥٠/ ٣/ ٣٦١٧ .

﴿ ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم * وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾ [المؤمنون : ٥١ ، ٥٢]

ولقد كتب الله على بني آدم الابتلاء والتمحيص ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، ولتقوم الحجة على كل إنسان يوم القيامة أو تقوم له . ويمضي الابتلاء والتمحيص على سنن لله ماضية في خلقه . وكان من هذه السنن أَن اختلف الناس بعد أنبيائهم شيعاً وطوائف ، وفرقاً وأحزاباً ، كل طائفة تحسب أنها وحدها على الحق ، فرحة بما لديها .

ففي سورة الأنبياء نرى هذه السنة الربانية التي يبتلي الله بها عباده جلية تكشفها لنا الآية الكريمة التي تأتي مباشرة بعد الآية السابقة من سورة الأنبياء :

﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم كلٌّ إلينا راجعون ﴾ [الأنبياء : ٩٣]

وبعد الآيتين اللتين ذكرناهما أعلاه من سورة المؤمنون » تأتي آيات تكشف لنا هذه السنة الربانية من الابتلاء والتمحيص وتفصّلها :

﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون * فذرهم في غمرتهم حتى حين * أيحسبون أنما نمدّهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون * إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربّهم يؤمنون * والذين هم بربهم لايشركون * والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربّهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون * ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون ﴾
[المؤمنون : ٥٣-٦٢]

هذه صورة مليئة بالحركة والمشاهد ، تكشف لنا حقيقة الابتلاء الذي كتبه الله على عباده ، حتى ينقسم الناس بصورة عامة إلى فريقين : فريق غرتهم الحياة الدنيا وزينتها من مال وبنين : **﴿ أيحسبون أنما نمِدُّهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون ﴾** وفريق يخشى الله ويؤمن بآياته : **﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾**

٣ - الحقيقة الكبرى في الكون والحياة التي من أجلها بُعث الرسل والأنبياء :

وتبرز من خلال هذه الآيات الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، الحقيقة التي من أجلها بعث الله الأنبياء والمرسلين ، وبعث النبيّ الخاتم محمداً ﷺ ، ومن أجلها امتدت أُمة الإسلامة في الأرض والزمن لتحمل هذه الحقيقة الكونية الإنسانية الكبرى التي تبرز خلال الآيات السابقة من سورة الأنبياء وسورة المؤمنون » :

﴿ ... كلٌّ إلينا راجعون ﴾ ، ﴿... وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾

نعم ! **﴿ إلى ربهم راجعون ﴾** ! هذه هي الحقيقة الكونية الإنسانية الكبرى التي تحملها أُمة الإسلام الواحدة الممتدّة في الأرض والزمن : ومن أجل هذه الحقيقة الكبرى شرع الله الجهاد في سبيل الله .

ومضى أصحاب رسول الله ﷺ يحملون هذه الأمانة في الأرض ويبلغونها الخلق شرقاً وغرباً . فانظر إلى المغيرة بن شعبة ماذا يقول لرستم قبل معركة القادسية . إنه قال بعد أن دعا رستماً وقومه دعوة واضحة إلى الإسلام :

«إنا ليس طلبنا الدنيا وإنما همنا وطلبنا الآخرة . وقد بعث الله لنا رسولاً قال له : إني سلطت هذه الطائفة على من لم يدنْ بديني فأنا منتقم بهم منهم وأجعل الغلبة لهم ماداموا مقرّين به وهو دين الحق ، ولا يرغب عنه أحد الا ذلّ ولايعتصم به أحد إلا عز . أما عموده الذي لايصلح شيء الا به فهو شهادة أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء من عند الله ، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله » .

وهذا ربعي بن عامر يخاطب رستما قبل القادسية أيضاً بعد أن يدعوه للإسلام فيقول :

« إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى قاتلناه حتى يفضي إلى موعود الله » . قالوا وما موعود الله ؟ قال : الجنّة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن بقي » .

وهكـذا امتد روّاد الـدعـوة الإسلاميـة ، روّاد الأمة المسلمـة الـواحدة عبر التـاريخ البشري يحملون هـذه الحقيقة الكبرى للنـاس كافـة . إنهم يحملون رسـالة الله إلى النـاس لينقذوا الإنسان من هلاك محقق إن أدبر عن هذه الحقيقة .

٤ - خطران حقيقيّان :

إن القضية إذن هي إنقاذ الإنسان من خطرين حقيقيين ، هما :

فتنـة الدنيـا وبـلاؤُها ، وعـذاب الآخـرة . إنها دعوة إلى كـل إنسان ، فكل إنسـان معرّض لخطر فتنة الدنيا ، وكل إنسان سيموت ويبعث ليكون من أهل الجنة أو أهل النار .

إن الأمـر جلل ، والدعـوة إلى الله ورسـوله أخطـر من أي عمل آخـر في هذه الحيـاة الدنيا . إنها من أجل كل إنسان ، وكل الشعوب ، على مدى العصور والأجيال .

٥ - لماذا ندعو إلى بناء الأُمة المسلمة الواحدة :

إن هذه الـدعوة وهـذه المهمة هي مسؤولية الأمـة المسلمة الـواحدة في الأرض . من أجل ذلك ، من أجل هـذا الأمـر الخطير ، كـان قيـام الأمــة المسلمـة في الأرض ضرورة بشرية ، ضرورة إنسانية .

وحين ندعو إلى بناء الأمـة المسلمة الواحدة على ضوء ماسبق عرضـه ، فإننا ندعو إلى ذلك لعدّة أسباب رئيسة :

أولاً : إنـه أمر الله لعبـاده المؤمنين أن يكونـوا أمة واحـدة ، وصفًا واحـداً كالبنيـان المرصوص . بهذه الحقيقة جاءت النصوص الثابتة في القرآن والسنة .

ثـانيـاً : إن النصر من عنـد الله . والله ينـزل نصره على مـن أوفى بعهـده ، أو يبلـو الظـالمين بعضهم ببعض . ومن أهم شروط الوفـاء بالعهـد مع الله هو قيـام الأمة المسلمـة الواحدة بشروطها الربانية ، لتحمل رسالة الدعوة إلى الإيمان والتوحيد .

ثالثاً : إن هذه الأمة المسلمة الواحدة الربّانية حاجة ملحة للإنسانية كلها . فلن يكون على الأرض صلاح ولا أمن ولا عدل إلا إذا قامت هذه الأمة لتقود البشرية إلى خير الدنيا والآخرة .

رابعاً : إن كثيراً من المسلمين انحرفوا عن المهمة الرئيسة للدعوة الإسلامية ، مهمَّة دعوة الناس كافّة إلى الإيمان والتوحيد ، إلى الله ورسوله ، إلى الإسلام ، إلى دين الله وإلى عبادة الله الواحد القهّار. والله ينزل نصره على من أوفى بعهده ، أو يبلو الظالمين بعضهم ببعض . ومن أهم شروط الوفاء بالعهد مع الله هو قيام الأمة المسلمة الواحدة بشروطها الربانية ، لتحمل رسالة الدعوة إلى الإيمان والتوحيد .

خامساً : لقد انحرف الكثيرون عن المهمة الرئيسة للدعوة الإسلامية ، كما ذكرنا أعلاه ، والتي تهدف ، في جملة ما تهدف إليه ، إلى أن ينجو الناس من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة ، وشغل الكثيرون عن هذه القضيّة حتى كادت الدعوة أن تتحول إلى عملية تجميع أنصار ومؤيدين ، وحتى تفرّقت الدعوة الإسلامية شيعاً وأحزاباً ، تخلَّى الكثيرون فيها عن حقيقة الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، وعن مهمة إنقاذ الإنسان من الخطرين الحقيقيين اللذين ذكرناهما .

لقد تحولت الجهود إلى أُمور أخرى لاننكر أهمية بعضها ، ولكننا ننكر أن تنفصل هذه الأُمور الأخرى عن هذه القضية الربانية الأساسية ، عن مسؤولية الدعوة إلى الله ورسوله ، أو أن تعلو عليها .

إن الفصل بين أي قضية في هذه الحياة الدنيا وبين الدعوة إلى الإيمان والتوحيد يعني الهزيمة والخذلان والفواجع . وإن الارتباط بينهما لايعني أن تكون قضية الإيمان والتوحيد ومايتبعها شعاراً فحسب . إن الارتباط الذي نعنيه أن تكون كل قضية تتبناها الأمة نابعة من قضية الإيمان والتوحيد ومن منهاج الله ، لِيَرْسُمَ الإيمان والتوحيد ومنهاج الله نهج

تلك القضيـة وخطتها ، ويحدِّد تصـورها ومسيرتها ، ويقرر خطـواتها ومراحلهـا ، ويظل الارتباط وثيقـاً في التصور والتفكير ، وفي النهج والتخطيط ، وفي الممارسـة والتطبيق ، وفي الكلمة والرأي والسعي والموقف .

لقد تحولت بعض المواقف إلى مسـاومات في ميدان العقيـدة ، وإلى محاولات تقريب بين الحق والباطل ، فتاهت الخطا واضطربت المساعي وزادت النكبات .

ولننظـر إلى التاريـخ ففية العبرة والـدروس . فما حملت الأمـة المسلمـة رسالـة الله إلى النـاس واضحة جليـة إلا أعـزّهم الله بها وكتب لهم النصر . ومـاتخلوا عنهـا إلا أذلهم الله بعـذاب بئيس : هذه الأنـدلس عبرة ودروس ، وكذلـك دولة المغـول في الهند ، وكـذلك العثمانيون ، وغيرهم كثير . انطلقوا يحملون رسالة التـوحيد للناس كافة فأعزهم الله ، فلما انصرفوا إلى الدنيا أخذهم الله بعذابه .

من أجل هذه القضيـة وغيرها من القضايا الإيمانيـة التي يفرضها واقعنا اليـوم كانت «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» ، النظرية التي ندعو لها من أجل انطلاقة سليمة وخطا مباركة على درب الـدعوة إلى الله ورسوله ، حيث تقوم هذه النظرية العـامة » بركنيها ومشكلات الـواقع التي ندرسها وعناصر التنفيـذ لها ، تقوم كلها على القاعـدة الصلبة ، قاعـدة الإيمان والتوحيـد والتخطيط لها مع كل واقع ، والدعـوة إليها دعـوة ممتدة ، لتظلّ الهدف الثابت الأول في الدعوة الإسلاميـة ، والحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، والقضية الأخطر في حياة كل إنسان .

من أجل هذه الحقيقة الكونية الكبرى خلق الله السموات والأرض ومابينهما بالحق :

﴿ وما خلقنا السموات والأرض ومـا بينهما لاعبين * ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثـرهم لايعلمون * إن يوم الفصـل ميقاتهم أجمعين * يوم لايغنـي مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون الا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾

[الدخان : ٣٨-٤٢]

وكذلك ﴿ **وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزىٰ كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون** ﴾ [الجاثية : ٢٢]

وتفصل الآيات في سورة يونس هذه القضية :

﴿ **إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبّر الأمر مامن شفيع الا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾ [يونس : ٣، ٤]

من أجل ذلك كله ، من أجل هذه الحقيقة الكونية الكبرى ، من أجل هذه المهمّة العظيمة التي تحملها الأمة المسلمة الواحدة في الأرض في جميع العصور ، ومن أجل الخصائص الربانية التي يجب أن تتوافر فيها ، من أجل هذا كله ، كانت الأُمة المسلمة الواحدة هي خير أمّة أُخرجَت للناس في تاريخ البشرية كلها :

٦ - كنتم خير أمة أخرجت للناس :

﴿ **كنتم خير أُمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ..** ﴾ [آل عمران : ١١٠]

الأمة المسلمة الواحدة ضرورة إنسانية وحاجة للبشرية كلها والدعوة الإسلامية هي للناس كافة ، لكل إنسان في جميع العصور والأقطار . ولقد قصّر المسلمون تقصيراً كبيراً بشأن هاتين القضيتين ، فلا بد إذن من استئناف المسيرة على نهج نابع من منهاج الله مرتبط به ، ملبٍّ لحاجات واقع المسلمين اليوم .

هذا النهج هو ماتعرضه النظرية العامة للدعوة الإسلامية » لتقدم النظرية والنهج ، وتقدم المناهج والنماذج التطبيقية ، لتعرض الأسس من الكتاب والسنّة ، الأسس التي

هذا النهج هو ماتعرضه النظرية العامة للدعوة الإسلامية » لتقدم النظرية والنهج ، وتقـدم المناهج والنماذج التطبيقيـة ، لتعـرض الأسس من الكتاب والسنّـة ، الأسس التي يلتقي عليها المؤمنون نظريّةً وممارسة ، ونهجاً وأهدافاً :

يجب على المسلمين أن يتعـاونـوا فيما أمرهـم الله أن يتعاونـوا فيـه ، ويعـذر بعضهم بعضـاً فيما أذن الله بالاختـلاف فيه ، ليظـل التعاون والاختـلاف ليس مرهـونـاً برغبـات البشر، ولكنه نابع من منهاج الله ، خاضع لأحكامه في عبوديّة لله وإنابة وخشوع .



الباب الثاني

أهم العقبات والمبشرات على طريق الدعوة الإسلامية

الفصل الأول

المعـوّقـات

١ - تمهيـد :

لانستطيع أن ننكـر أن أمـام الدعـوة الإسـلاميـة اليوم عقبـات كثيرة تكـاد تحدُّ من نشاطها ، وتوهن قوتها ، وتخفي بعض صفاتها وخصائصها ، وتعطل من أسباب تمكينها .

الدعوة الإسـلاميّة ليست تجميع أعداد تنمو وتتكاثر ، ولاتجمّعـاً حول شعارات تملأ الآفاق والحنـاجر ، ولكنهـا دعوة تملأ الميـدان نهجاً وخطـة ، ووعياً وقـوة . إنها نهج ممتد مترابط يحمل رسالة الله إلى الناس لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .

الدعوة الإسلاميّة ليست أحزاباً وشيعاً يصارع بعضها بعضاً ، ويوهن بعضها بعضاً . إنها صفٌّ واحد كالبنيان المرصوص كما أمر الله سبحانه وتعالى .

الـدعوة الإسـلاميّـة دعوة واضحـة لتغيير حقيقي في داخل الإنسـان وخارجـه ، في داخل الأمـة وخارجها . إنها تغيير لكل التصـوّرات المادّية من إلحاد وشرك ، ومـن عَلمانية وتفلّت ، وفتنة وفسـاد ، وفاحشة وجريمـة ، لإخراج الإنسان من عبادة العبـاد والأهواء والمصالح إلى عبادة الله الذي لا إله الا هو .

إنها ليست انقلابا عسكريا يذهب بـرجال ويأتي برجال ، ولاهي ثورة تعصف وتهدّم ثم لاتبني إلا فساداً على فساد .

إنها ليست تغيير الـوجـوه والألقـاب والمسميـات ، ولا الـوقـوف عنـد تغيير بعض المظاهر ! إنها نقلَةٌ كبيرة في حياة الإنسان وقفزة واسعة في نشاطه .

إنها تغيير كُلي : في النفس ، في الفكـــر والتصـــورات ، في النهـج والتخطيط ، في العمل والسعي ، وفي المظـاهـر التي تتبع ذلك ولا تنفصل عنـه ، في العادات والأعـراف والتقاليد ، في العلاقات والـروابط بين الأفراد ، والأرحام ، وبين الشعوب ، وبين الناس

جميعاً ، في النيّة والكلمة والخطوة ، وفي كثير غير ذلك . ﴿**عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال * سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لايغيّر مابقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال**﴾ [الرعد : ٩-١١]

لابدّ أن يستقرَّ مفهوم الدعوة الإسلامية في قلوب الدعاة ونفوسهم وتصوّراتهم ، ليعلموا ماهي حقيقة مهمَّتهم وماهي مسؤولياتهم ، وعلى ماذا سيكون الحساب يوم القيامة .

هل العمل الإسلامي في العصر الحديث أوفى بهذه الأمانة والمسؤولية ؟ ! وإذا لم يوفِ فما هي العقبات التي وقفت أمامه ؟!

هل حاول دراسة هذه العقبات دراسة إيمانيّة بردّ الأُمور إلى منهاج الله كما أمر الله ؟! وهل حاول وضع الحلول والعلاج لها ؟ وأين نجد هذه الدراسات الإيمانيّة والحلول والعلاج ؟!

لابد لنا الآن إذن أن ندرس العقبات التي تقف في واقع المسلمين اليوم أمام الدعوة الإسلامية الربّانيّة الواعية لمهمّتها ومسؤوليّتها في الدنيا والآخرة .

إننا هنا نقدم موجزاً لهذه الدراسات ، ولكننا نقدّم التفصيلات في أماكنها ومراجعها من الكتب التي صدرت . وستمضي الدراسات ممتدّة لا تتوقّف مادامت دعوة الله ماضية في الأرض ، تنهض بها الأجيال المؤمنة المتواصلة .

٢ - العقبات الممتدّة في واقع الإنسان والماضية مع الزمن :

لقد فصّل القرآن الكريم في عرض العقبات التي واجهت الدعوة الإسلامية منذ انطلاقتها ونورد قبسات من ذلك بإيجاز هنا :

أ - **سوء الموازنة بين مسؤولية الداعية في بيته وفي دعوته :** فعندما كان ينهض المسلم لداعي الجهاد أو الدعوة كان بعض النساء والأولاد يقفون عقبة أمام هذه الاستجابة :

﴿ يـاأيها الذين آمنـوا إن من أزواجكم وأولادكم عـدواً لكم فاحـذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفـور رحيم * إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم * فاتقوا الله ماستطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك همو المفلحون * إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم * عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ﴾

[التغابن : ١٤-١٨]

تغلب الداعية المسلم أحيـاناً عاطفةُ الأبوة وسكنُ الزوجة ، فتضعـف العزيمة أمام نداء الله ورسولـه ، أمام نداء الآيات والأحاديث ، فيدور صراع داخليّ يعلمـه الله سبحانه وتعالى ، فيوجّه عباده المؤمنين التوجيه الرحيم الواضح ، لينصاع المسلم الداعية أمام الحق ، يجاهد في نفسه ، فينال على قدر جهاده .

ب - سوء الموازنة بين مسؤولية الداعية في تجارته ووظيفته وبين مسؤولياته في الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد :

﴿ رجـال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله وإقـام الصلاة وإيتـاء الزكـاة يخافـون يـوماً تتقلّب فيـه القلـوب والأبصـار * ليجزيهم الله أحسن مـاعملـوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ [النور : ٣٦، ٣٧]

يغلب على بعض الـدعاة أحيـاناً حـب التجارة والبيع ، فتلهيـه عن ذكر الله وسـائر التكاليف الربانيّة . يضعف أمام عرض زائل مـن الدنيا فينساق معه ، وينسى ماعليه من تكاليف ربّانيّة أخرى . فيغـرق في دنياه حتى تأكل وقته وجهده وفكره ، وذلك بما كسبت يداه . أما الداعية الذي يصدق الموازنة فإنه لاتلهيه تجارة ولابيع !

وذكر الله في الآيـة الكريمة لايعني التوقّف عنـد التسبيح والدعاء والركـون إلى العجز والكسل والـدنيا ، ولكنـه يعني صراطـاً مستقيماً تمتـدّ عليه التكـاليف الـربـانيّة متصلـة لاتنفصل ولاتنقطع ، كما سنفصل في فصل آخر .

ج - **حب الدنيا وشهواتها وزينتها** : تسيطر على بعض الدعاة حتى يضعف أمامها بما كسبت يداه :

﴿ وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون . فلما نسُوا ماذُكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسُقون ﴾

[الأعراف : ١٦٤ ، ١٦٥]

فما الذي أنجى هؤلاء ؟! أنجاهم أنهم كانوا ينهون عن السوء ، يدعون إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد . ولو أنهم تخلّوا عن هذه المسؤولية العظيمة لأخذتهم الفتنة والعذاب ، كما تعرض لنا الآية الكريمة من سورة الأنفال :

﴿ يائيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تُحشرون . واتقوا فتنة لاتصيبنّ الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ [الأنفال : ٢٤ ، ٢٥]

صورتان متباينتان : الأولى أنجى الله الذين كانوا ينهون عن السوء ، وفي الثانية عم العذاب الطالحين والصالحين لأنهم ركنوا إلى القعود وأغفلوا التكاليف الربانيّة التي أمرهم الله بها .

وفي واقعنا اليوم نرى الأحداث تمضي على سنن الله الثابتة هذه . نراها جليّة واضحة لتكون لنا عبرة ، عسى أن نفيق!

وشهوات الدنيا وزينتها ممتدة تزرع الفتنة في الأرض لتكون ابتلاءً منه سبحانه وتعالى وتمحيصاً لعباده ، وهو أعلم بهم ، ولتقوم الحجة لهم أو عليهم يوم القيامة . إن الدنيا دار ابتلاء وتمحيص ، وشهواتها ممتدة يحملها شياطين الإنس والجنّ ، ليفتنوا بها الناس . فأما الذين يستجيبون لله وللرسول فهم في حمى الله . والاستجابة ليست لأمر واحد أو بعض الأمور ، ولكنها استجابة تمثّل ، كما ذكرنا ، صراطاً مستقيما هو سبيل الله ،

ولاسبيل سواه ، سبيل يحمل التكاليف الربانيّة المتماسكة المترابطة .

شهوات الدنيا وزينتها ممتدة : المال ، البنون ، الزوجات ، الثروة وجمعها ، والمصالح المادية ، النساء ، حبّ الظهور ، وما تثيره بين الناس من تحاسد وضغائن وأحقاد ، وتنافس عليها وصراع علنيّ وخفيّ .

ويصدق هذا الأمر على الأفراد والشعوب والدول . ويمحّص هؤلاء جميعاً على سنن لله ثابتة ماضية ، وحكمة بالغة ، وقدر غالب .

د - أعداء الله من منافقين ومشركين وكافرين ، وأهل كتاب ، مِمَّن خان منهم ذمة الله وذمة المؤمنين وعهدهم ، فآذاهم ووقف مع المنافقين والمشركين والكافرين . ويعرض القرآن الكريم تفصيل أساليبهم وكيدهم ومكرهم . ويظل هذا الكيد والمكر يرتدُّ عليهم مادام المؤمنون صادقين مع الله ، يستجيبون لله وللرسول كامل الاستجابة .

وحب الدنيا ظاهرة ممتدّة مع العصور . فمن تاب وعاد وأناب غفر الله له ماكان من إسرافه . ومن مضى تلهيه الدنيا عن الاستجابة لله وللرسول فحسابه عند الله :

﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم * ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم * وإذ يمكر بك الذين كفروا ليُثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال : ٢٧-٣٠]

وكذلك :

﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربّنا أخّرنا إلى أجل قريب نجبْ دعوتك ونتّبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال *

فلا تحسبَنّ الله مخلف وعده رسله إن الله عـزيز ذو انتقام * يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبـرزوا لله الواحد القهار * وتـرى المجرمين يومئـذٍ مقرَّنين في الأصفـاد * سرابيلهم من قطران وتغشى وجـوههم النار * ليجـزي الله كلَّ نفس ماكسَبَت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس وليُنذَروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذّكّر أولوا الألباب ﴾ [إبراهيم : ٤٤-٥٢]

وتمضي الآيات الكريمـة والأحاديث الشريفة تكشف مكر هـؤلاء الأعداء وكيدهم ، فئة فئـة ، وتعد المؤمنين بـالنصر مادامـوا يستجيبون لله وللـرسول ، ويمضـون على صراط مستقيم ، يحملـون أمانـة الوفـاء بالعهـد مع الله ، والنهـوض إلى التكاليف الـربانيّـة على تكاملها وترابطها ، وبالإسراع إلى التوبة والاستغفار وتصحيح النيّة والمسيرة :

﴿ ولقد صـدقكم الله وعده إذا تحسونهم بإذنـه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعـد ماأراكم ماتحبّون منكم من يـريد الدنيا ومنكم من يـريد الآخـرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقـد عفـا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾
[آل عمران : ١٥٢]

﴿ .. منكم من يريد الدنيا ... ﴾ ! ولكن الله عفا عنهم : ﴿ .. ولقد عفا عنكم .. ﴾!

بعد أن تـابوا وأنابـوا وأدركوا الخطر الـذي سببوه للـدعوة الإسلاميـة حين أقبلوا على الدنيا وغنائمها .

ونحن اليوم ، أقبل الكثيرون على الدنيا ، وتخلّوا عن مسؤولياتهم التي كلفهم الله بها ، وربما تركوا الميدان لينزل أعداء الله فيه ، ويمتدوا في ساحاته .

لقد أثر هذا الإقبال على الدنيـا على واقع الدعوة الإسلامية تأثيراً كبيراً ، تأثيراً سيئاً . وأسوأ مافيـه أن أولئك الذين يقبلون على الدنيا يظلون في قلب العمل الإسـلامي ويرفعون شعاراتـه كلما استدعى الأمر ، فيوهنـون النفوس ، ويضعضعون الصفوف ، ويـزيدونها خبالاً .

ومن خلال هذا الإقبال على الدنيا فُتحت ثغرات كثيرة ، واختُرِقت الصفوف ، وعاث المفسدون وهم مختفون ، حتى اختلط الحابل بالنابل ، ومن خلال هذا الإقبال على الدنيا اختلطت الأمور واضطربت الموازين .

هـ - الضعفاء من المسلمين :

الضعفاء إيماناً أو علماً أو تجربة ، ربما يكونون أحياناً ساحة لنشاط أعداء الله ، يستغلّون ضعفهم ليتسلّلوا من خلالهم إلى صف المؤمنين ولينشروا الفساد والفتنة .

من واجب الدعوة الإسلامية أن ترعى نواحي الضعف وتمضي في معالجته وحماية الدعوة من أخطاره بالدعوة المستمرّة على نهج سليم ، وبالتربية والتعهد والبناء والتدريب ، وبالنظام الإداريّ الذي يضع كل طاقة في مكانها ، وينزل كل مسلم منزلته الأمينة ، والذي يوفر نظام الإشراف والمراقبة ، والتوجيه والمتابعة .

وهذا أمر مستمر في واقع الدعوة الإسلامية ، فلا يمكن أن يكون المسلمون كلهم على مستوى واحد من الوسع والطاقة . ولابد للدعوة أن ترعى هذه الظاهرة بالدراسات والمعالجة السليمة .

ولقد قدمنا دراسات متعدّدة عن الوسع ، وعن منازل المؤمنين ، وقدمنا ميزان المؤمن ليكون الوسيلة الأمينة لإنزال الناس منازلهم ، وقدمنا نظام الإشراف والمراقبة ، والتوجيه والمتابعة .

وجعلنا النيّة والنصيحة وقضايا الإيمان والتوحيد ، وقضايا الإشراف والمتابعة ، والتقويم ، وغير ذلك ، جعلنا هذا كله بنوداً ثابتة ماضية في مناهج التربية والإعداد والتدريب .

٣ - العقبات الذاتية من واقع المسلمين :

أ - **اضطراب التصوّر لمعنى الدعوة الإسلامية** : لقد نسى كثير من الدعاة أن أساس الدعوة الإسلامية هو الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، إلى دين الله

ورسالته ، مع امتداد التكاليف الربّانيّة الثابتة وترابطها وتناسقها . فَشُغِل بعضُهم ببعض الأعمال الجزئية ، معزولة عن التكاليف الربانية الثابتة ، التي تؤلف الصراط المستقيم الممتدّ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنة والدار الآخرة ورضوان الله - .

فتحولت الدعوة عند بعضهم إلى النشاط السياسي وحده ، حتى شُغِلوا به عن أي نشاط آخر . وربما حسبوا الشعائر وحدها مع السياسة كافية لتمثل نهج الدعوة الإسلامية .

وشغل آخرون بالدعوة إلى الديمقراطية والاشتراكيّة والعَلمانيّة ، والحداثة ، والمذاهب الغربيّة الفكرية والأدبية ، والبنيوية والأسلوبيّة والتفكيكية ، والقوميّة ، والوطنية ، والإقليمية وكثير غير ذلك . ومن المؤسف أن تخرج بعض هذه الدعوات مغلّفة بشعارات الإسلام ، يسمعها الناس من بعض الدعاة المسلمين ، فتختلط في نفوسهم صورة الإسلام وتناسق مبادئه وتماسك نهجه .

وتبرز العصبيات الجاهلية وتمتدّ في واقع المسلمين ، حتى تزيد التصور اضطراباً .

ويكون من ثمرة ذلك خلافات وصراع وتمزّق يأكل الجهود والأوقات ويزيد الضعف والوهن ، وتظل الجهود المبذولة لدعوة القلوب إلى ربّها وخالقها ، إلى حقيقة الإيمان والتوحيد ، جهوداً ضيّقة لاتكاد تستطيع أن تقف أمام طوفان الفتنة والصد عن سبيل الله .

فأخذ نشاط الدعاة المسلمين أشكالاً مختلفة متنافرة ، تلتقي فئة مع فئة ، وتفترق فئة عن فئة ، وتضيع الجهود بين اللقاء والفراق .

غاب عن بال بعضهم أن الدعوة الإسلامية حمل رسالة ربّانية ، هي الحقيقة الكبرى في الكون والحياة ، ومن أجلها بعث الله الرسل والأنبياء ، ومن أجلها تقوم الدعوة الإسلامية في الأرض .

إذا لم يشعر الداعية والدعاة بأنهم يحملون قضية كبرى ، يحملون رسالة في الحياة ، هي قضية دعوة الناس إلى صدق الإيمان وصفاء التوحيد وإلى منهاج الله ، إذا لم يشعر

الدعاة بأن هذه قضيتهم ورسالتهم التي تستحقّ منهم بذل جهدهم ووقتهم ومالهم ، وأنها هي التي تستحق الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس ، إذا لم يشعروا هذه الشعور ، فكيف تقوم الدعوة الإسلامية ؟!

إن التصوّر السليم للدعوة الإسلامية ، التصوّر الربّاني ، التصور الذي يجعل كل مسلم عامل وداعية يوقن بأن القضيّة قضيّته هو كما هي قضيّة غيره ، وبأن الدعاة في الأرض يجتمعون صفّاً واحداً على قضيّة الدعوة لإسلامية الواحدة ، قضيّةً واحدة وتصوراً واحداً نابعاً من الإيمان الصادق والتوحيد الصافي ومن منهاج الله .

إن سائر قضايا المسلمين مهما عظمت تدخل في قلب التصور الأكبر والأشمل للدعوة الإسلامية ، لتتماسك القضايا كلها تماسكاً إيمانيّاً ، على نهج وخطة ، وتأخذ كل قضيّة مكانها ومنزلتها ومرحلتها في النهج العام والخطة العامة ، ولا تعلو قضيّة أبداً على قضية الإيمان والتوحيد والدعوة إليها دعوة مستمرّة لاتتوقف .

إن توقف الدعوة إلى الإيمان والتوحيد ، وتبليغ الناس رسالة الله ، على نهج وخطة ، إن توقّف هذه الدعوة يعني اضطراب جميع قضايا المسلمين وتفككها وانفصالها ، لتتيه كلُّ قضيّة في متاهة قومية أو إقليمية ، أو عائلية أو مصالح مادية ، معزولة كلها عن قضيّة الإيمان والتوحيد .

ب : الصورة الحزبيّة للعمل الإسلامي :

لقد أخذ العمل الإسلامي صورة أحزاب متفرّقة وجماعات متنافرة ، يدور بينها الصراع والشقاق بصورة مؤلمة محزنة مفزعة . ولقد امتدّ الصراع بين هذه الأحزاب زمناً طويلاً ضاعت فيه جهود وأوقات وأموال وثارت الضغائن والأحقاد والافتراءات في أجواء مشحونة لايرضاها الإسلام .

ثم أخذ كل حزب يولّد حزباً جديداً ، وتوالدت الأحزاب وتوالدت الخلافات والصراع والشقاق . وامتلأت الساحة بالشعارات ، كل شعار ينافس الشعار الآخر .

وأصبحت الجهود الحقيقيّة تبذل حتى يثبت كل فريق وجـوده في الساحة ، ويقوم بأنشطة لاحاجة للناس فيها ولكنها تعين على وجوده في الساحة . واشتدَّ التنافس !

ماهـو الوجود الـذي يُريد كل فـريق أن يثبت نفسه فيـه ؟! إنها ساحات لـو تريّث المؤمنون قليـلاً ، ولو وجدوا الناصحين ، لابتعـدوا عن كثير منها ، فهي ساحـات وحول وتيه واضطراب ، ولانطلقوا يوجدون ساحات النور والإشراق للدعوة الإسلامية .

شغلت الجهود من خـلال العمل الحزبيّ عن الدعـوة إلى الإيمان والتوحيـد وتثبيته في القلـوب ، حتى يكـون القـاعـدة التـي تجمع المؤمنين في الأرض ولا تفـرّقهم . وانصرفت الجهود إلى التنـافس على التجميع تحت شعارات الإسـلام ، واستغلال الوسـائل المختلفة للتسابق إلى كسب الأفراد ، دون توافر نهج وخطـة إيمانيّة ، إلا كسب الولاء للحزب ، ولو كان الولاء ظاهرياً .

لقد أصبح الولاء للحزب هو سقف الـولاء ومنتهاه ، ولم يعد الولاء الأول لله إلا شعاراً في كثير من المواطن . وأصبح العهـد والبيعة للحـزب هي أعلى عهد وأكبر بيعـة ، ولم يعُدْ العهد الأول مع الله هـو أساس البناء والتربيـة وإعداد المناهج . وأصبح ميـزان الحبّ هو التحـابّ في داخل الحزب وفي أطره . ولم يعـد الحبّ الأكبر لله ولـرسولـه ، لينبع منـه كل حبّ في الدنيا .

وبذلك أصبحت الأخـوة أخوّةً في الحزب وولاءً للحزب وعهـداً مع الحزب ، ولم تعد الأخوة أخوّة في الله كما أمر الله ورسوله :

« إنّما المؤمنون إخوة . . . »

« المسلم أخو المسلم . . »

هـذا أمر من عنـد الله ومن عند رسـولـه ﷺ . ولكنه لم يعـدْ هو الأمـر الذي يصـوغ الرابطة في الواقـع . لقد أصبحت الرابطة الحزبيّة هي إطار الأخـوّة ، ولم تعدْ رابطة الأخوة في الله ممتدة بين المسلمين ، ولم يعد المسلم عملياً أخا المسلـم ! وإنما أصبحوا شيعاً وأحزاباً متفرّقين :

﴿ فتقطّعوا أمرَهم بينهم زبُراً كلّ حزب بما لديهم فرحون ﴾ [المؤمنون : ٥٣]

﴿ إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئُهم بما كانوا يفعلون ﴾ [الأنعام : ١٥٩]

وكذلك :

﴿ ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البيّنات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ [آل عمران : ١٠٥]

لم تعد الفرقة والتمـزّق والشيع والأحزاب تثير أيّ اعتراض في كثير من النفوس . لقد استمرّ التفرّق دهـراً حتى ألفه الناس واعتادوه ، ونسوا أن هذا التفـرّق عليه عذابٌ عظيمٌ عند الله . لم يعد هذا العذاب العظيم يثير خشية في النفوس .

وظنّ كل فريق أنـه هو الرائد ، وأن على الجميع أن يتبعـوه وحده . فهو أبو الـدعوة وأبو العمل ولا سواه . ومع هذا الظن كيف يكون اللقاء .

واتخذ كل فـريق أنـداداً مـن دون الله يعطـونهم عمليّـا الحب الأكبر والـولاء الأول ، فاقترب بعض النـاس بذلك من الشرك ، وتكوّنَ تـابع عُطّلت قواه وشلّت ، ومتبـوع يأمر وينهى :

﴿ ومن الناس من يتخـذ من دون الله أنداداً يحبّونهم كحبّ الله والـذين آمنوا أشدّ حبّاً لله ولو يرى الذين ظلموا أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب إذ تبرّأ الذين اتُّبعـوا من الذين اتّبعـوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب وقـال الذين اتّبعوا لـو أن لنا كـرّة فتبرّأ منهم كما تبرّأ وا منا كـذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ [البقرة : ١٦٥-١٦٧]

لم يعد المسلمـون يلتقون على نهج واضح محدّد نابع مـن الكتاب والسنّة ومن حـاجة الواقع . فتعـدّدت مايسمّى بالمنـاهج ، وتعدّدت السبل ، وتعدّدت الـولاءات ، وكثرت الفتاوى والآراء ووجهات النظر في جو محموم من الخلافات .

وتجمّعت الأخطاء حين لم تجد القـادرين على معالجتهـا ، ولا الوقت لمعـالجتها ، ثمّ فُقدت الرغبة بالعلاج . وانقطع التناصح ، وأصبحت النصيحة مصدر خصومة وعداء ، أو اتهام بالعداء والانشقاق ، وماتت المحاولات للإصلاح ودفنت .

وخفّ العلم بالكتـاب والسنة . وانتشرت آراء فـرديّة أومذهبيـة أو حزبيّـة ، وكثرت الاتهامات والتراشق بـالسهام ، دون تـوافر فرصـة من الرويّـة والهدوء ، للقيام بـدراسات جادة للمشكلات ولعلاجها .

ولكن من خـلال هذه الأجـواء ظلّ هنالك الصـالحون الصادقـون العاملون يعملـون بكل مايستطيعون لإخراج الأمة من ظلمتهـا ووهدتها . لن تخلو الأرض أبداً من الصالحين الصادقين ، فتلك سنة الله في الحياة وقضاؤه وقدره :

فعن ثـوبـان عن الرسـول ﷺ قـال : « **لاتـزال طـائفة من أمّتي ظـاهـرين على الحق لايضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك** » [رواه مسلم والترمذي وابن ماجه][1]

هذه الطائفة ممتدّة مع الزمـن . لم تتحدّدْ بجنسية ولابعرق ولا بلون ، ولكنها تحدَّدتْ بخصائص ربّـانيّة : «**ظـاهـرين على الحق**» ، والحق هو منهـاج الله ، يمسّكون بـه . ويردّون كل أمورهم صغيرهـا وكبيرها إليه ، عن إيمان مشرق وتوحيـد صاف وعلم وافر ، ووعي للواقع من خلال منهاج الله .

وهذه الطائفـة تعمل من ناحية أُخرى بين أمـواج من ملايين المسلمين المنصرفين عن الدعوة الإسلامية ، والذين لايكاد يربطهم بالإسلام إلا الهُويّةَ والهُوية تكاد تختفي .

ج - غياب النهج والتخطيط :

وبغياب النهج والتخطيط غابت الأهداف الحقيقية ، وتضاربت الأهداف المعلنة ، وصارت الأهـداف شعاراً ينـادى به دون رصيـد واضح في الواقع . واضطـربت الـوسائل

(١) صحيح الجامع الصغير زيادته : (ط : ٣) - (رقم : ٧٢٨٩) .

والأساليب وتناقضت . وأصبحت الأفعال والمواقف أقرب إلى ردود الفعل والارتجال منها إلى الموقف المدروس المحكم .

وكان هذا الحال مع وجود العلل التي سبق عرضها . فتجمعت كلها لتوفّر للأعداء فرصاً كبيرة يتسللون من خلالها ، أو يوجهون ضربات موجعة أو يديرون المجازر وأعمال الإبادة ، وتسقط الديار .

وأصبح من الواضح أن جهود قرن من الزمان تقريباً لم تورث الأُمة إلا الهزائم والنكبات والفواجع ، على صورة متتالية . ثمّ أخذت الفواجع تتسارع والنكبات يلاحق بعضها بعضاً ، وكأن الناس سكارى ، أو مخدّرون أو مشلولون لايقوون على عمل شيء .

لو أن أحداً فقد مبلغاً كبيراً من المال لأقام الدنيا وأقعدها ، يقيم الدعوى بعد الدعوى ، ويلحّ في طلب حقّه ، ويأخذه الهمّ والغم والأسى . ضاعت فلسطين وامتدت الفواجع ، في معظم انحاء العالم الإسلاميّ ، ومع ذلك فإنّك ترى البذخ والإسراف في الأعراس والحفلات وسائر شؤون الحياة ، وترى الناس كأنهم لم تصبهم فاجعة .

إن غياب النهج والتخطيط وما يتبعه من تحديد المراحل والأهداف والوسائل والأساليب وغير ذلك ، جعل بعض المسلمين يدخلون بعض الأنشطة ارتجالاً دون أن يعدّوا لها أي نهج أو خُطة إلا : الشعارات والحشود المؤيدة والهتافات .

إذا جاء وقت الانتخابات يبدأ عندئذ بعض المسلمين يفكرون ويتنافسون : أيدخلون الانتخابات أم لايدخلونها ؟! وتتناقض الآراء والاجتهاد ويقع الصراع .

وإذا دخل فريق الانتخابات تحت شعارات محدَّدة ، مضت السنون ولم تتحقّق الشعارات ولا الأهداف . ويبدأ الخلاف من جديد ، ويبدأ التلاوم .

قضايا كبرى في حياة المسلمين لم تجد حتى اليوم النهج والخطة ، ولكنها وجدت الشعارات والمناورات والمحاولات ، والارتجال وردود الفعل . ومع مضِيّ الزمن وانكشاف الفشل ، يظلّ الكبر في النفوس ، وتظل المحاولات لتغطية الفشل ، وكأن العمل

مسرحيّة لها أدوار ، كـان أجدر بـالمسلمين أن يتجنبوهـا ، ويبحثوا عـن نهج إيمانيّ رباني يجمع القلوب والنفوس ، ويحيي الهمة والعزيمة ، ويبني الجيل المؤمن المتراص .

لقد أورث هـذا كله خللاً وأمـراضاً يصعب عدّهـا وحصرها ، ولكن ساحـة الواقع تكشف أكثر مما يُمْكن أن يُسَطّر على الورق .

جـ- طاقة هائلة معطلة في المسلمين :

هـذه مـلايين من المسلمين ، الملايين المعطلـة بين الجهل والفقـر والأمـراض ، أو الـلامبـالاة أو الانصراف إلى الـدنيـا ، هـذه الملايين من الأغنيـاء والفقـراء ، والأقـويـاء والضعفـاء ، والمتعلمين والجهلاء ، أصبحت مـرتعاً خصبـاً للدعـوات غير الإسلاميـة ، وأصبحت قوى يستفيـد منها أعداء الله ، ولايستفيد منهـا المسلمون بشيء ، أو يستفيدون بالنذر القليل .

لقد ضاعت هـذه القوى الكثيرة حين تحجّر العمل الإسلاميّ على صـورته الحزبيّة ، وحين لم تنجح محاولات الامتـداد العالمي إلا من خـلال شعـارات ومؤتمرات وتجمعـات ، امتدّ معها الصراع والفراق والتمزّق .

الـدعوة الإسـلاميّة يجب أن تكـون للنـاس كافّـة ، ويجب أن تستفيد من جهـد كلّ مسلم وطاقة كل مسلم ، حين لاتتنافر القلوب وتتباعد العزائم .

و - اضطراب الروابط الإيمانيّة وتمزّقها :

وكـان من أثـر ذلك كلـه أنك أصبحـت تـرى الأحـلاف التي تجمع المسلم مع غير المسلم والـداعية مع خصمـه ، وفي الوقت نفسـه لايستطيع المسلم أن يتحالف مع أخيـه المسلم .

من العجيب أن تـرى هـذا التجمع الإسـلامي يقف صفّاً واحـداً مع تجمّع غير إسـلامي ، ينـابـذ الإسلام وأهلـه ، ولا يستطيع هـذا التجمع الإسـلامي أن يتـآلف مع

التجمع الإسلاميّ الآخر . امتدّ الصراع وامتدت الأحقاد ، وأُعلِنت مواقف يفرح فيها المسلم بمصيبة أخيه المسلم ، ويحنو على غير المسلم يمدّه بعونه وماله وقوته .

إن الروابط الإيمانيّة أمر من عند الله ، جعلها أقوى الروابط وأوثقها وأعلاها ، كلها تقوم على أساس الولاء الأول لله والعهد الأول مع الله والحب الأكبر لله ولرسوله . هنا ، عند هذه النقطة الثابتة التي تمثّل سقف الولاء والعهد والحب ، هنا تلتقي جميع الولاءات الإيمانية وترتبط بها وتتغذّى منها وتسير على نهجها . إذا لم يتحقق في نفس المؤمن هذا الولاء الأول والعهد الأول والحبّ الأكبر فكيف تنشأ أخوة الإيمان ؟! إنها لن تنشأ أبداً حتى يتحقق هذا الولاء الأول لله وحده ، والعهد الأول مع الله وحده ، والحبّ الأكبر لله ولرسوله ، وحتى تتحقّق كذلك سائر قواعد الإيمان والتوحيد التي فصّلها منهاج الله . ولن تنشأ كذلك سائر الروابط الإيمانيّة التي شرعها الله حتى يتحقَّق ذلك كُلّه . إنها تتحوّل إلى عصبيات جاهليّة تمزّق المسلمين شيعاً وأحزاباً إذا غابت قواعد الإيمان والتوحيد .

إن الإسلام نظم الروابط الإيمانيّة بين الأفراد والأرحام والشعوب تنظيماً ربّانيّاً دقيقاً . **فيجب أن يكون من أهداف الدعوة الإسلامية والتربية الإيمانية بناء هذه الروابط ، دون السقوط في شرك المنافقين والمخادعين والأعداء ، وخلخلة الضعفاء ، ذلك حتى ينهض الصف المؤمن كالبنيان المرصوص .**

لقد تحوّلت رابطة الأرحام لدى بعض المسلمين إلى عصبيات جاهلية في كثير من الأحيان .

لقد استفاد أعداء الله كثيراً من اضطراب الروابط الإيمانيّة بين المسلمين في الأرض . استفادوا كثيراً وأضروا بالمسلمين كثيراً .

فعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ **«إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها . وإن أُمّتي سيبلغ ملكها مازُوي لي منها ، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأصفر . وإني سألت ربي لأمتي أن لايهلكها بِسَنَةٍ عامّة وأن لايسلّط عليهم عدوّاً من**

سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم . وإن ربي قال لي : إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرد . وإني أعطيتُ لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها ، أو قال من بين أقطارها ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً » [رواه الترمذي][1]

يكشف لنا هذا الحديث الشريف الحماية الربّانيّة التي وعد الله بها عباده المؤمنين ، وكشف لنا كيف أن هذه الحماية تزول حين تتمزّق الروابط الإيمانية : « . . حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً . . . » فإلى الروابط الإيمانيّة أيها المؤمنون !

٤ - ظهور صورتين متناقضتين لايرضى بهما الإسلام : الغلوّ والتفريط في التصوّر والممارسة :

لقد كان من مظاهر اضطراب التصوّرات أن انفرد بعض المسلمين بأعمال تحمل شعار الإسلام دون إخضاعها إلى شرعه وأحكامه . وقد أخذ هذا الاضطراب صورتين : صورة تبتعد عن شرع الله بالغلوّ والتطرف دون دليل من كتاب أو سنة يسوّغ هذا الموقف والغلو . وقد نهى الإسلام عن الغلو كثيراً . ولكن الغلو لم يكن الصورة الوحيدة للابتعاد عن شرع الله . لقد كانت الصورة الثانيّة أبعد أثراً في واقع المسلمين ، وأشد خطراً على الدعوة الإسلامية ، وحملت معها التجارب المريرة من المذلة والهوان . إنها التنازل والتساهل والمراءاة بغير حق وباسم الإسلام والإسلام بريء من ذلك .

وفي الحقيقة كلتا الصورتين أثّرت وتعاونت مع الصورة الأُخرى في الإضرار .

لقد ظنّ بعضهم أنه بمسايرة أعداء الله مسايرة تحمل بعض التنازلات ، مع رفع شعارات غير إسلامية ، والمناداة بها والدفاع عنها ومحاولة تزيينها أمام الرأي العام المسلم ، وتأويل الآيات والأحاديث تأويلاً فاسداً لإيجاد المسوّغ لهذه المواقف المتهاوية ، ظنّوا بأنهم يرضون هؤلاء الأعداء ويأمنون شرّهم ، أو يحقّقون بعض المصالح . ولقد أخطأوا في ذلك خطأً كبيراً .

(١) الترمذي : ٣٤/ ١٤/ ٢١٧٥ .

إن للإسلام سبيلاً واحداً بيّنه لنا وفصّله منهاج الله ، وبلّغه لنا رسول الله ﷺ ، ومضت الدعوة الإسلامية يقودها محمد ﷺ على هذا السبيل الواحد ، ممارسة وتطبيقاً لمنهاج الله ، وسار صحابة رسول ﷺ على هذا السبيل نفسه ، لم يبدّلوا ولم يغيّروا ، ولم يراؤوا ولم يتنازلوا! ومضى كذلك الصالحون من أئمة الإسلام على هذا السبيل لم يغيّروا . فالسبيل واضح جليّ ، لايضطرب إلا مع النفوس المضطربة .

وجاء الواقع من خلال عصور كثيرة تكشف لنا أن الذين تنازلوا عن دينهم ، أو عن جزء منه ، ومالؤوا أعداء الله ، وظنّوا أنهم بذلك يحمون أنفسهم ، جاء الواقع ليكشف لنا أنهم كانوا هم أول ضحايا هؤلاء الأعداء الذين وثقوا فيهم . فما أن انتهوا منهم وقضوا مصالحهم عن طريقهم ، حتى رموهم تائهين في الأرض ، أو جثثاً مطروحة في العراء ، أو هياكل تخنقها السجون ، على غضب من الله وذلة بين أيدي الكافرين ، ولاتنفعهم شفاعة الشافعين ! .

إن من أهم أسباب التطرف بالغلوّ أو التفريط نقاطاً نوجزها بما يلي :

أ - الأخذ بالشعارات من الإسلام أكثر من أخذ العلم الحق من الكتاب والسنة .

ب - عدم ردّ الواقع إلى منهاج الله ردّاً أميناً واعياً عن إيمان راسخ وعلم وخبرة .

جـ - عدم وجود منهج يرسم الدرب ومراحله وأهدافه ووسائله وأساليبه مع المسيرة كلها ، ومجابهة الأحداث مجابهة آنيّة ارتجالية تحمل ردود الفعل والهزائم النفسية أكثر مما تحمل من إيمان ويقين وعلم .

د - العقبات التي سبق ذكرها ، كل عقبة كان له دور في ذلك .

« إن الوسط أو الوسطية ، وإن التيسير وعدم التعسير ، وإن عدم الغلوّ ، إن هذا كله لانبلغه إلا بممارسة منهاج الله ممارسة إيمانيّة . إن منهاج الله نفسه هو الصورة الوسط ، وهو التيسير ، وهو عدم الغلو وعدم التفريط . وإلى ذلك تشير الأية الكريمة : ﴿**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً...**﴾

[البقرة : ١٤٣]

لقـد وضع الإسـلام ضـوابط دقيقة للفـرد والجماعـة والأُمـة كلهـا ، حتى تنضبط في الوسط الذي يحبه الله ورسوله ، وحتى لاتقع في الغلو ، وحتى تنجو من التفريط .

إن غيـاب منهـاج الله عن واقع كثير مـن المسلمين دفع إلى التطـرف والانحـراف ، تحت شعار من شعارات الإسـلام ، شعار بعيد عن النهج والتخطيط والـدراسات الأمينة الدقيقة .

إن التـزام قواعـد الإيمان والتـوحيـد والتزام منهـاج الله هي النقطـة الأولى التي يجب الانطلاق منها ، لِيَعُودَ منهاج الله يؤدّي الدور الذي كان يؤدّيه في مدرسة النبوة .

٥ - اضطراب الروابط والعلاقات في واقع الأمة :

لقد نظم الإسلام حقوق كلِّ فئة أو طـائفة تقيم في ظل حكم الإسلام وشرعه ، وبين واجباتها . ومضت ممارسة هذه الحقوق والـواجبات خلال تاريخ طويل ، ضرب الإسلام فيه المثل الأعلى للعدالة والحق ، وخاصة مع أهل الكتاب .

ونظم الإسـلام العـلاقة بين الحاكم والمحكـوم ، على أن يلتـزم كلٌّ منهما شرع الله ، وأن تلتزمه الأمة كلها ، حتى تكون كلمة الله هي العليا في واقع تطبيق التشريع والممارسة .

لقد تنازل بعض المسلمين عن شرع الله في واقعهم ، وأخذ هذا التنازل صورة قانونية ، وبقي للإسلام بعض الشعارات التي لاتبني جيلاً مؤمناً ولاتحقّق مهمة الإسلام في الأرض .

واعتاد بعض المسلمين ذلك وألفوه حتى صاروا ينادون به ويدعون إليه .

كان الإسلام في مرحلة هو وحـده مصدر التشريع في الأُمة . ثمَّ أَصبح بنصّ القانون أَحد مصادر التشريع ، أو أهمها . ثم أصبح الفقـه من مصادر التشريع ، واستمّر التنازل في معظم أقطار العالم الإسلاميّ ، واضطربت الـروابط والعلاقات في واقع الأمة . وأصبح منهم من يـرى أن الديمقراطيـة هي طريق النصر ولكنهـا خيّبت الآمال وجـاءت بالهزائم والفـواجع . وظن بعضهم أن الإســلام يحتـاج إلى «تحديـث» وإلى «عصرنـة» ، فجــاء

التحديث بالفتنة والفاحشة والفساد ، وجاءت العصرنة بالمذلة والهوان والاستسلام ، والفرقة والتمزّق !

ورأى بعضهم أن العَلمانيّة تحمي المسلمين وتعطيهم حقوقهم . فضاع المسلمون وضاعت حقوقهم ، وغرقوا في خلافات وشُغِلوا بالفتات . وامتد الزمن والمسلمون يزيدون شعارات ومؤتمرات وهتافات ، والهزائم تتوالى والفواجع تتدافع ، والمجازر والدماء تتدفّق !

ويعجب بعضهم كيف أن بعض الحكام يؤذون المسلمين أو يعذّبونهم !

ماذا يريد المسلمون من حماية بعد أن رُفِعَ شرع الله ولم يعد هو الذي يحكم ؟! من أين يرجو المسلمون العدالة ودين الله لم يعد هو الذي يصوغها و يقررها ؟ واضطربت العلاقات بين الحاكم والمحكوم !

حتى الشعارات بدأت تتحوّل وتبتعد عن شعارات الإسلام في بعض البلاد ، وأخذت تتحول إلى شعارات العَلمانيّة أو الإقليمية ! فكيف تستقرّ روابط الأُمة وليس لها مايجمعها : شيع وأحزاب ، وكتل وجماعات ، وفرق ونحل ومذاهب !

٦ - آثار الجوّ النفسيّ العام :

لقد أورث العمل الإسلامي والنتائج التي وصل إليها إحباطاً في كثير من النفوس ، حتى أصبح من الناس من لايثق بالعمل الإسلامي ، أو ينفر من الدعوة إليه .

إن آثار الفشل من ناحية ، وآثار الإرهاب العنيف الذي صُبَّ على العمل الإسلامي من سجون وتعذيب وإجرام لايكاد يتصوّره العقل ، لقد أورث هذا كله إحباطاً وخوفاً في النفوس . وآثر الكثيرون الركون والانعزال . ففقد العمل الإسلامي طاقات كثيرة كانت تستطيع أن تبذل وتعين .

لاننكر أن أعداء الله خططوا بإحكام لضرب العمل الإسلامي وتمزيقه وإخفاء عيوبه حتى تظل تعمل في تمزيق القوى والصفوف .

ولكننا لانعتب على أعداء الله . فهم أعداء لله فماذا ينتظر المسلمون منهم ؟ هل يريد المسلمون من أعدائهم الإنصاف أو النصر أو الخير أو بلوغ الحق أو العدالة ؟!

إن أعداء الله دائماً هم المعتدون :

﴿ لايرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمّة وأولئك هم المعتدون ﴾ [التوبة : ١٠]

إنما العتب على أنفسنا نحن المسلمين . لقد وعدنا الله بالنصر من عنده ، إن أوفينا بعهده ، وحذرنا من أعداء الله ، فأبى بعضهم إلا أن يظنّ أن النصر من عند هؤلاء وليس من عند الله . فتنازعتهم القوى وتفرّق أمرهم .

إن الإحباط والخوف وتوقّع الفشل دفع بعضهم إلى ملاذ غير ملاذه وإلى مأوى غير مأواه . فدخل جحور الذئاب والثعالب ، وذاق مرارة التجربة غير الإيمانيّة ، يَرْجُو النجاة هناك فخاب أمله :

﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ماأسرّوا في أنفسهم نادمين ﴾ [المائدة : ٥٢]

إن للإسلام سبيلاً واحداً للنصر ، بيّنه الله لعباده المؤمنين ، ولاسبيل لهم سواه فَلْيَتَبَيَّنوا السبيل .

الجو النفسيّ العام لم يعد في صالح أحد من المسلمين . لقد أصبح الخوف له تأثير سيّيء في بعض النفوس . لم تعد الخشية من الله هي التي تحرّك المؤمن وتوجهه . لقد أصبح الخوف خوفاً من البطش ، أو خوفاً من مصائب الدنيا ، أو خوفاً من انقطاع الرزق ، وغاب صدق السعي وجميل التوكل على الله .

إن هناك قوى تخطط ليل نهار لإشاعة الإحباط والخوف على صورة دنيوية انهزامية متطرفة في الانهزام . إنها تخطط لذلك في جميع الميادين الاقتصادية والسياسية ، والعسكرية والاجتماعية ، والنفسية والفكرية .

إن أول وسائل العلاج التركيز على قضية الإيمان والتوحيد ، وتغذية النفوس بها وتثبيتها ، لتكون عملاً ممتداً في جميع المراحل ، عملاً منهجياً متكاملاً مع سائر الأهداف . وإن العودة إلى منهاج الله عودة منهجية متكاملة صحبة عمر وحياة ، هي الخطوة المرافقة للخطوة الأولى ، ومن هاتين الخطوتين تنطلق الدرب والمراحل والأهداف ، على صراط مستقيم ، في سبيل الله ، إلى الهدف الأكبر والأسمى -الجنة- .

٧ - الأفكار الباطلة والعادات السيئة والبدع مما ورثناه عن عصور سلفت :

إن بعض الأفكار والعادات التي استقرّت في واقع المسلمين ، والتي حملتها لنا قرون طويلة ، هي أفكار وعادات باطلة ليست من الإسلام في شيء ، ولكن كثيراً من الناس ألفها واعتادها حتى أصبحت لديه جزءاً من تصوره وفكره . وهذه تقف عقبة كبيرة أمام الدعوة الإسلامية . ولقد كانت من أهم العقبات التي أشار إليها القرآن الكريم :

﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون ﴾ [البقرة : ١٧٠]

وتتوالى آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى وتبيِّن أثر هذه العقبة في طريق الدعوة وما تحتاجه من جهود .

واليوم تبرز هذه العقبة بشكل كبير . ولا مجال هنا لأن نعدّد جميع الأفكار الباطلة المستقرة في أذهان الكثيرين ، ولا البدع الممتدّة في نواحي كثيرة من الحياة ، حتى كأنك ترى أن الإسلام أخذ يعود غريباً كما بدأ في كثير من الأقطار .

والمؤسف أن هذا « الغث » يجعله بعضهم من التراث ، من تراث الأُمة ، ومن تراث الإسلام ، والإسلام منه بريء .

إننا بحاجة إلى أن «نغربل» تراثنا حتى ننفض عنه مايخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وحتى يبقى تراث الإسلام جواهر ولآلىء ممتدة في تاريخ الإنسان .

لن نستعرض هنا كلّ هذه الانحرافات وأفكار الضلال وعادات البدع ، ولكننا نشير إلى قليل منها لأهميته اليوم .

فكثير من المسلمين استقرَّ في ذهنه أنه تكفيه الشهادتان ولا حاجة له إلى الشعائر أو غيرها . واستقرَّ في ذهن الآخرين أن الشعائر وحدها تكفيه وأن مسئوليته في دين الله لاتتجاوز حدود بيته وأسرته ، وأنه لا عليه إن ترك تبليغ رسالة الله وهو قادر على ذلك .

فتعطلت طاقات كثيرة أَخْلَتْ الساحة ، والساحة في أشد الحاجة إلى كل طاقة عاملة . وأصبح لهذا التصور دعاة يُخذّلون الهمم والعزائم وينشرون الوهن والضعف .

وطائفة أخرى تقول ليس عليك أن تدرس منهاج الله . فمنهاج الله هو للعلماء والعباقرة وليس للناس عامة . وظهر لهذا التصور دعاة ينشرون الجهل ويبعدون الناس عن منهاج الله وعن لغته .

وآخرون يرون أنه حسب المسلم أن يأخذ آية من هنا وآية من هناك مع توافر الوسع للدراسة المنهجيّة . فلا تعود علاقة المسلم سليمة مع منهاج الله كما كانت في مدرسة النبوة .

هذا خلاف البدع في العادات والتقاليد التي تستهلك وقت الأمة وطاقاتها وبعض ثرواتها .

وكان من أثر ذلك أن غابت المسؤولية الفرديّة ، حتى أَصبح كثير من المسلمين الذي يحملون الشهادات العلميّة لايعرف من كتاب الله إلا النزر اليسير أولا يعرف شيئاً ، ويدع ذلك كله إلى العلماء ، كلما احتاج أمراً هُرع يستفتيهم في أمر حكمه صفحة أو أقل أو أكثر في كتاب من كتب السنة ، أو آية محكمة جليّة ، لاتستغرق دراستها إلا وقتاً قصيراً .

لقد ساء الحال حتى لم يعد بعض المسلمين يفكرون ، ولا يتأملون ، ولا يتدبّرون أُمور دينهم . فشلّت قدرة التفكير ، أو اتجهت إلى الدنيا كلها .

امتد الجهل بالكتاب والسنة بين ملايين المسلمين ، وتعطلت قوى التفكير ، وانصرف الكثيرون لايحملون من الدين الا أمانيّ وإن هم إلا يظنون .

٨ - تنافس بعض الدعاة على لَعاعَـة من الدنيا :

كلٌّ يـريـد أن يُثبت نفسـه وأن يُعـزَى النجاح ، إن حصل نجـاح ، إليـه وحـده ، ويُعـزَى الفشل وما أكثـره إلى غيره . لم يعد هنـاك بين الـدعاة تنسيق للجهـود ، فتنافـرت الجهود والقلوب وتضاربت الأفكار ، وتباعـدت الدروب . ومن أسوأ مظاهر التنافس أن يسطو بعضهم على أفكار بعضهم الآخـر ، فيأخذ مايحلو له وينشره باسمـه حرفياً أو يعيد صياغته ليُخفي جـريمته وكأنه في هذه الكلمة أو تلـك بلغ المراتب العلا ! خفّت التقوى أو اختفت من بعض القلـوب ، بين دويّ من الشعارات . لم يَعدْ يُـرْعى للكلمة أمـانة ، ولا للفكرة أمانة ، ولا للكتاب أو المقالة أمانة .

يقول أحدهم : لو أني أخذت فكرة أعجبتني مـن كاتب آخر ، ثم أعدتُ صياغتها ونشرتها باسمي ، أفي ذلك إثم ؟!

فقلت لـه : لو أنك سَرقتَ سيّـارة ، وأعدت طـلاءها وغيّرتَ رقمهـا وسرت بها بين الناس ، ألا تكون سارقاً ولصّاً ؟! وسـواء أعرف الناس أم لم يعرفوا ، ألا يعلم الله مافعلتَ وما أخفيت ؟! أو ليس عقاب الله أشد من عقـاب الناس ؟! أو ليس أشد عقاب عند الله بعد الكفر هو إضاعة حقوق الناس ، أو الاعتداء عليها ؟

أولى الناس أن يـراجعوا أنفسهم ومسيرتهم هم الـدعاة ! وأسـوأ الدعاة مـن يظنّ أنه لايخطىء ولا حاجـة له إلى محاسبة نفسه والبحث عن عيـوبه والتوبة إلى الله . أسـوأ الناس من يأخذه الكبر والغـرور ، يفرح بما عنده ، ويحقـر ماعند غيره ، فـلا يقبل النصيحة ولا هو ينصح ! تتزايـد أخطاؤه مع مسيرته ، وتزداد آثامـه ، ولا يجد من يعالج ويراجع ، ولا من يشرف ويقوِّم ويوجّه !

تنافس الـدعاة على لَعَاعَةٍ من الـدنيا شغلهم عن العمل الجاد والصراط المستقيم . شغلوا أنفسهم بـالفتات وشغلوا الآخـرين ! وحساب الجميع عنـد الله ! وليت الأمر وقف عنـد هـذا الحد . ولكن زاد الأمـر سوءاً حين أصبح المسلم يكيـد لأخيـه المسلم في عتمـة الليل ، أو يعطل مصالحه المشروعة ، أو يسدّ أمامه باب السعي الحلال .

لقد أصبح الكتاب الإسلامي عرضة لأن يحاربه المسلم أكثر مما يحاربه عدوّ الإسلام . فهذا يحارب كتاب ذاك ، وذاك يحارب كتاب هذا ، وأصبحت القضيّة ليست تنافساً على طلب الآخرة ، ولكن تنافساً على لعاعَةٍ من الدنيا .

لقد هبط المستوى في كثير من الأحيان إلى درجة متدنيّة تفرض علينا النصح والتذكير ، وإعادة النصح والتذكير .

٩ - بروز نواح متعدّدة من الخلل في قضية الإيمان والتوحيد والدعوة لها ، نوجز ذلك بما يلي :

أ - لم يضعها كثير من المسلمين على أنها أخطر قضية لكل إنسان وأكبر حقيقة في الكون ، ولم يبذلوا الجهد الحقَّ لها .

ب - اضطراب الفطرة لدى الكثيرين فاضطرب الإيمان والتوحيد لأنهما قضية الفطرة أولاً .

جـ - الخلل في تصور الألوهية والربوبية عند الكثيرين ، والخلل في تصور العبودية لله رب العالمين ، واضطراب التناسق والتكامل بين تصوّر هذه وتلك وترابطها .

د - غياب التصوّر للعهد الأول مع الله ، والولاء الأول لله ، والحب الأكبر لله ولرسوله ، ولمعنى الخشوع والتضرّع واللجوء إلى الله ، والخشية منه ، فلم يعد ترتبط عهود الدنيا والولاء والحب فيها مع العهد الأول لله والولاء الأول له والحب الأكبر له .

هـ - الخلل في تصوّر معنى النيّة الخالصة لله ، والتصور الذي يهب اليقظة والوعي ومعرفة الدرب والأهداف .

و - لم تعد قضيّة الإيمان والتوحيد قضية مفاصلة وحسم ، ولاقضية تكاليف والتزام ولاقضية مسؤولية وحساب .

ز - هجر منهاج الله حتى لم يعد مصدر المفاصلة والحسم ، والتكاليف والالتزام ، والمسؤولية والحساب .

ح - بسبب هذا الخلل الممتد قامت الصعوبات أمام معالجة الشوائب والأمراض ، وضعف الحافز الإيمانيّ للنهوض للتكليف الرباني بتبليغ رسالة الله إلى الناس وتعهدهم عليها ، والنهوض إلى سائر التكاليف الربانية .

الفصل الثاني

المبشـــرات

إذا كـان أمام الـدعوة الإسـلاميـة عقبات كثيرة ، فإن أمـامها كـذلك مبشّرات أكبر وأوثق . إن معظم العقبـات نابع من الإنسـان على سنن لله ماضيـة وحكمة بـالغة وقـدر غالب . إنها الحياة الـدنيا دار ابتلاء وتمحيص ليرى الله من عباده مـن هو أحسن عملاً ، وهو أعلم بهم . ولكن لتقوم الحجة لهم أو عليهم يوم القيامة .

ولكنّ المبشّرات تشرق من وعـد الله ، ومن أصـدق من الله قيـلاً ، ومن أوفى بعهـده من الله ؟! .

ولنسمع إلى إشراقه البشريات من آيات الله البيّنات :

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر : ٥١]

وعد حقٌّ من الله ، لايتطلب إلا أن نصدق الله في إيماننا ، وأن نتبع سبيله الحق .

﴿من عمل صـالحاً من ذكـر أو أنثـى وهـو مـؤمن فلنحيينّـه حيـاة طيّبـة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧]

حياة طيبة ! طيبها في طهارتها وصدقهـا ، وأمنها وأمانها ، حين يكون المؤمن مع ربّه على صراط مستقيم .

﴿... وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم و إياي فارهبون ﴾ [البقرة : ٤٠]

وكذلك :

﴿يـاأيها الـذين آمنـوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبّـت أقـدامكم * والـذين كفروا فتعساً لهم وأضلّ أعمالهم ﴾ [محمد : ٧، ٨]

وكذلك :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنَّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليُمكِّنَنّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لايشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم تُرْحمون ﴾
[النور : ٥٥، ٥٦]

وكذلك :

﴿ ألا إنَّ أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتّقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [يونس ٦٢-٦٤]

وكذلك :

﴿ ... ونزّلنا عليك الكتاب تِبْياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾
[النحل : ٨٩]

وكذلك :

﴿ وإذا ماأُنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهو يستبشرون ﴾ [التوبة : ١٢٤]

وكذلك :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيَقْتُلون ويُقْتَلون وعداً عليه حقّاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم * التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ [التوبة : ١١١ , ١١٢]

وتتوالى الآيات الكريمة تسوق البشرى بعد البُشرى للمؤمنين ، ولايكلفهم الله إلا بأمرين يشملان كل التكاليف : ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات ..** ﴾

ويفصّل منهاج الله الإيمان والعمل الصالح تفصيلاً يجعل منهما درباً ممتداً ، ونهجاً متماسكاً ، وصراطاً مستقيماً ، ورحمة وهدى وبشرى للمسلمين .

إن الله سبحانه وتعالى جعل باب النصر يُفْتَحُ للمؤمنين أبد الدهر ، لمن يريد أن يلجه ويمضي على الصراط المستقيم . إن باب النصر يقود إلى الصراط المستقيم ، إلى السبيل الواحد الذي لاسبيل سواه . ومفتاح هذا الباب النيّة الصادقة الخالصة لله ، النيّة الصادقة الواعية التي تعرف الدرب والأهداف والوسائل والمراحل .

النيّة الصادقة هي أول الدرب ليمتدّ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنة والدار الآخرة ورضوان الله - .

كل خطوة فيه بشرى للصادقين ، وهمٌ وغمّ للمنافقين ولأعداء الله !

أيها الدعاة ! فإلى بشريات ممتدة مترابطة من عند الله !

وفي واقع الحياة ، مهما أظلمت الأيام وتوالت المصائب ، ووقف اليائسون ، وتراجع الضعفاء ، في واقع الحياة بشريات كثيرة ، من أهمها الطائفة الظاهرة الماضية مع الزمن على الصراط المستقيم في سبيل الله :

فعن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لايضرّهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك** » .
[رواه مسلم والترمذي وابن ماجه] (١)

البشريات للمؤمنين العاملين الصادقين ! فإذا لم تأت فلنراجع أنفسنا ، فإنه ابتلاء من الله ليمحّص الذين آمنوا ويظهر من أوفى بعهده مع الله .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط: ٣) - (رقم : ٧٢٨٩) .



الباب الثالث

أمام المسلمين سبيل وحيد
ولا سبيل سواه

الفصل الأول

أمام المسلمين سبيل وحيد ولا سبيل سواه

﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : ١٥٣]

فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : خط رسول الله ﷺ خطاً بيده ثمّ قال : «هذا سبيل الله مستقيماً» ، وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ الآية : « وأن هذا صراطي مستقيماً . . »
[رواه أحمد والحاكم والنسائي وغيرهما][1]

وكذلك :

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : ١٠٨]

إنه سبيل واحد للمؤمنين . وللمشركين سبل عدة ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه . وقد جعل الله للمؤمنين سبيلاً واحداً لاسبيل سواه ، حتي يجمع هذا السبيل المؤمنين كافّة في كلّ عصر ، وكذلك في جميع العصور . ولقد مضى على هذا السبيل محمد ﷺ : « قل هذه سبيلي . . » ، وكذلك أصحابه : « أنا ومن اتبعني . . » ، وجميع من اتبعوه وآمنوا بالله ورسوله وكتابه على مدى الدهر . وكذلك يجب أن يمضي المؤمنون اليوم على هذا السبيل ، فلا سبيل لهم سواه .

والمضيّ على هذا السبيل هو المضيّ على الصراط المستقيم الذي أمرنا الله باتباعه أمراً ماضياً مع الزمن كله : ﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه .. ﴾ . والمضيّ عليه هو القيام

(١) أحمد : الفتح الرباني : ١٨/ ١٤١

بالتكاليف الـرّبانية على بصيرة ، التكاليف الربّانيّة الممتـدّة على الصراط كله ، التكاليف المتماسكة المترابطة التي تـرسم بتماسكها الدرب ، ومحور هذه التكاليف هـو الدعوة إلى الله ورسوله إلى الإيمان والتوحيد ، دعوة الناس كافّة : « . . **أدعو إلى الله** . . » !

ويبتدىء هذا السبيـل في حياة المؤمن بصدق الإيمان وصفاء التـوحيد والشهادتين ، لينطلق من هذا كله إخلاص النيّة لله سبحانـه وتعالى ، إخلاصاً يربط المسيرة كلها ، ونيّة تمتد على السبيل كلـه ، وعلى الصراط المستقيم كله . ثمّ ينطلق من ذلك القيام بـالشعائر أداءً وخشوعاً ، ثم طلب العلم الذي جعله الله فـريضة على كل مسلم ، العلم الذي أوله وجامعه هو العلم بمنهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربيّة - .

فإذا حمل المسلم هذا الزاد الرئيس في مسيرتـه على الدرب ، انطلق بزاده إلى الدعوة إلى الله ورسوله ، دعـوة تمتد مع النيّة وأداء الشعائر وطلب العلم على الـدرب كله ، انتقل من هدف ربّـانيّ إلى هدف ربّـاني ، على درب ممتدّ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الـدار الآخرة ورضوان الله والجنّة - .

ولقد سـار على هذا الـدرب أئمة المسلمين الأعـلام : الخلفاء الـراشدون والصحـابة ومن تبعهم بصـدق وإحسان إلى يـوم الـدين ، على نهج النبوّة الخاتمة ، كما أوصى بـذلك النبيّ الخاتم محمد ﷺ :

فعن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسـول الله ﷺ يوماً بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها الدموع ووجلت منها القلـوب . فقال رجل : إن هذه موعظة مودّع فماذا تعهد إلينا يـارسول الله ؟! قال : «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبد حبشي . فإنه من يعش منكم يرى اختلافاً كثيراً وإيـاكم ومحدثات الأمور ، فإنه ضلالة . فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين . عضّوا عليها بالنواجذ**»
[رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه] (١)

---

(١) أبو داود : ٣٤/ ٦/ ٤٦٠٧ - الترمذي : ٤٢/ ١٦/ ٢٦٧٦ - ابن ماجه : المقدّمة / ٣٥ .

نعم ! صدق رسول الله ﷺ « . . . فإنه من يعش منكم يرَ اختلافاً كثيراً . . » ! ولقد رأى المسلمون في تاريخهم الطويل اختلافاً كثيراً ، ومرّوا بتجارب شتى . أما اليوم فيمّر المسلمون بمرحلة خطيرة ، لاتقتصر مشكلاتها على الاختلاف الكثير ، ولكنها امتدّت إلى التمزّق والصراع ، أو قلْ إلى التفتُّت والتناحر ، وإلى الضعف والهوان . ولانكاد نجد وصفاً لواقع المسلمين اليوم أبلغ ولا أعمق من حديث رسول الله ﷺ :

فعن ثوبان عن الرسول ﷺ قال :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كلِّ أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها » قيل : يارسول الله ! فمن قلة يومئذ ؟ قال : « لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، يُجْعل الوهنُ في قلوبكم ، ويُنزَع الرعب من قلوب عدوّكم ، لحبكم الدنيا وكراهية الموت » [رواه أحمد وأبو داود] (١)

وفي رواية أبي داود : « . . . ولينزعنّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن » فقال قائل : يارسول الله ! وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت » .

وعند أحمد يتساوي النصّ في آخره مع نصّ أبي داود ، ومع نص صحيح الجامع الصغير في كلمة « من كلِّ أفق » .

وإذا استعرضنا أوضاع المسلمين اليوم نجد عظمة هذا الوصف ، ونجد المحن بعد المحن تدور في واقع المسلمين .

ليس الهدف هنا استعراض الواقع الذي يمرّ به المسلمون اليوم فالأمثلة كثيرة جداً ، أكثر من أن يحيط بها كتاب . ولكننا هنا بصدد عرض موجز للنهج العام في الدعوة الإسلامية ، والنظرية العامة في الدعوة الإسلامية ، من خلال المنهاج الرباني والواقع ، عسى أن يكون فيما نعرضه إضاءة لدرب طويل للخروج من ظلمات الواقع الذي يعيشه المسلمون . (٢)

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ٨١٨٣) والنصّ منه . أبو داود : ٣١/ ٥/ ٤٢٩٧ أحمد : المسند : ٥/ ٢٧٨ ، ٢٧٨ ، الفتح الرباني : ٢٤/ ٣١/ ٣٩ .

(٢) لدراسة واقع المسلمين تراجع الكتب للمؤلف التالية : «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية » : الباب السابع ، «واقع المسلمين أمراض وعلاج ، «الصحوة الإسلامية إلى أين » «المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية ، الملاحم ، وغير ذلك .

من هذا الواقع يجب أن يخرج المسلمون إلى العزّة والقـوة ليحملوا رسالة الله إلى الناس ، ليكونوا شهداء على الناس ، وليكونوا القوة الكبرى في الأرض :

﴿وكذلك جعلنـاكم أمة وسطاً لتكـونوا شهـداء على الناس ويكون الـرسول عليكم شهيداً﴾ [البقرة : ١٤٣]

وليكونوا خير أمة أُخرجت للناس :

﴿ كنتم خير أُمـة أُخرجَـت للناس تأمـرون بـالمعروف وتنهـون عن المنكـر وتؤمنون بالله ..﴾ [آل عمران : ١١٠]

من هذا الواقع يجب أن يخرجوا ليسعوا إلى الأهداف الـربانيّة الثابتة على طريق ممتدٍّ إلى الهدف الأكبر والأسمى – الدار الآخرة ورضوان الله والجنّة – .

من هذا الواقع يجب أن يخرجوا ليكونـوا القوة الكبرى في الأرض تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله !

فهل بلوغ ذلك ممكن ؟!

نعم ! إنه ممكن ، ذلك لأنهم ، إن صـدقوا ، فمعهم أكبر قوة في الكـون ، معهم القوة التي هي وحدها تهب النصر : الله الذي لا إله إلا هو ، الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! .

﴿ ولاتهنـوا في ابتغـاء القـوم إن تكـونـــوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً﴾ [النساء : ١٠٤]

نعم ! ذلك ممكن ، والـدرب مفتوح ميسَّر بـإذن الله ، وسبيله أن يَصْـدُق المسلمون ربهم ويوفوا بعهدهم مع الله .

﴿ .. وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم ... ﴾ [البقرة : ٤٠]

فـالمهمة اليـوم إذن هو البحث عن « السبيل» للخـروج ، وعن «الصراط المستقيم » الذي بيّنة الله لنا في كتابه المبين .

هناك سبيل واحـد للمؤمنين لاسبيلان ولا أكثـر . سبيل واحد ، جعلـه الله واحداً حتى يلتقي المؤمنون عليه صفاً واحداً كالبنيان المرصوص . سبيل واحد ولا سبيل سواه .

إنـه سبيل واحـد يبتـدىء بصـدق الإيمان والتـوحيـد ، يحمل البشرى للمـؤمنين ، ويحمل الأمن والعزّة بالله .

﴿ ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلـون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٣٩]

سبيل واحد ولاسبيل سواه . سبيل يمضي عليه المؤمنون المتّقون أولياء الله :

﴿ ألا إن أوليـاء الله لاخـوف عليهم ولاهم يحزنـون * الذيـن آمنوا وكـانـوا يتّقـون * لهم البشرى في الحياة الـدنيا وفي الآخـرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هـو الفوز العظيم ﴾ [يونس : ٦٢-٦٤]

هـذا هو السبيـل الوحيـد : لاخـوف ولا حـزن ، إيمان وتقوى ، وبشرى في الحيـاة الدنيا وفي الأخرة .

هذا هو السبيل الذي جعله الله للمؤمنين ، لينـالوا به العزّة ، فالعزّة كلها لله ، يهب الله العزة للمؤمنين الصادقين :

﴿ ولايحـزنك قولهم . إنّ العـزّة لله جميعاً هو السميع العليم ﴾ [يونس : ٦٥]

﴿ ... ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لايعلمون ﴾ [المنافقون : ٨]

وإذا كان للمؤمنين سبيل واحد للنصر ، ولا سبيـل سواه ، فلا شك أن الله بيّن هذا السبيل لعباده المؤمنين حتى لايضلوا ، وفصّله تفصيلاً ، كما ذكرنا قبل قليل :

﴿ قل هذه سبيلي أدعـو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحـان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : ١٠٨]

﴿ وأنّ هـذا صراطي مستقيماً فـاتبعـوه ولاتتبعـوا السبل فتفـرّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : ١٥٣]

ويأتي بيان « هذه السبيل » و «وهذا الصراط » بياناً مفصّلاً في المنهاج الرباني - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - ولكن معرفة هذا السبيل يحتاج إلى تدبّر منهاج الله تدبّراً واعياً في صحبة منهجيّة ، صحبة عمر وحياة ، صحبة لاتتوقف [1] .

فمن منهاج الله ومن تدبّره نعرف السبيل للخروج من ظلام الواقع إلى اشراقة النجاة والعزّة . ويمكن أن نلقي بعض الأضواء على هذا السبيل . [2]

* * * *

لابدّ أن يعي المسلم منذ البداية دوره في الحياة ، وأن يعي المسلمون كذلك ، وأن يدركوا أن الله لم يخلق الإنسان عبثاً :

﴿ أيحسب الإنسان أن يُترَكَ سدى ﴾ [القيامة : ٣٦]

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاتُرْجَعُون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ [المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦]

فالإنسان لم يخلقه الله عبثاً ، وإنما جعل له مسؤوليات وتكاليف في هذه الحياة الدنيا ، سيسأل عنها يوم القيامة ويحاسَبُ عليها ، فيدخل الجنة من آمن وأوفى ، ويدخل النار من كفر وخان عهده مع الله .

إن الشرط الأول للقيام بهذه المسؤولية والتكاليف هو الإيمان . فالكافرون لايستطيعون القيام بهذه المسؤولية ، لأن المسؤوليّة والقيام بها نابعان من الإيمان مرتبطان به .

* * * *

ولننظر في هذه المسؤوليات والتكاليف في إطارها العام من كتاب الله ، من الآيات الكريمة . فكتاب الله أُنزل ليبيّن للناس هذه المسؤوليات والتكاليف . وبتدبر منهاج الله

---

(١) يُراجع كتاب « دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية » المؤلف .

(٢) يراجع كتاب : أضواء على طريق النجاة » للمؤلف .

نجد أن هـذه المهمة عرضهـا القرآن الكريـم من خلال أربعة تعبيرات ربّـانيّة ، كل تعبير يعرض التكاليف من ناحية ، حتى تتكامل الصورة والعرض :

أولاً : العبادة : عبادة الله وحده دون شرك أبداً :

﴿ وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٥]

وكذلك :

﴿ ولقد بعثنا في كل أُمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطـاغوت فمنهم من هـدى الله ومنهم من حقّت عليـه الضلالـة فسيروا في الأرض فـانظروا كيف كـان عاقبة المكذّبين ﴾ [النحل : ٣٦]

وتتوالى الآيـات الكريمة في القـرآن الكريم لتؤكـد هذه الحقيقة وتُفصِّلهـا حتى تكون حياة الإنسان المؤمن كلها عبادة لله .

ثانياً : الأمانـة : التي حملهـا الإنسان بإذن الله ، فإن أوفى بها كـان عادلاً أمينـا غير جاهل ، وإن لم يـوفِ كان ظلومـاً لنفسه ولغيره جاهـلاً بعظمة الأمانـه وأهميتها : **﴿ إنا عرضنـا الأمانة على السمـوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنهـا وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾** [الأحزاب : ٧٢]

ثالثـاً : الخلافة في الأرض : ليظل الإنسان جيـلاً يخلف جيلاً ، يطبق شرع الله في الأرض لتكـون كلمة الله هي العليـا في واقع الإنسـان : **﴿و إذا قال ربّك للمـلائكة إني جاعل في الأرض خليفة .. ﴾** [البقرة : ٣٠]

﴿وهـو الـذي جعلكم خـلائف الأرض ورفع بعضكم فـوق بعض درجـات ليبلوكم في ماآتاكم إن ربك سريع العقاب و إنه لغفور رحيم ﴾ [الأنعام : ١٦٥]

رابعاً : عمارة الأرض بحضارة الإيمان :

﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم

من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثمّ توبوا إليه إنّ ربي قريب مجيب ﴾ [هود : ٦١]

هذه هي مهمـة الإنسان التي خُلِقَ لها ، ليؤديها في حيـاته الدنيا ، أفـراداً وجماعات وشعوباً وأُممـا . كلهـم مسؤولون عن الوفـاء بهذه المهمة التي نجد عرضهـا من خلال هذه الصور الأربع المتكـاملة المتنـاسقة : **العبادة، الأمانة ، الخلافة ، العمارة** . وكلُّ واحد من هذه التعبيرات يُعبِّر عن المهمة ذاتها من جوانبها المختلفة .

والإنسـان يؤدي هـذه المسـؤولية من خـلال **الابتلاء** الذي كتبـه الله على بني آدم ، ليُمحِّص الله كلّ إنسان وكلّ أمّة ، ولتقوم الحجة لـه يوم القيامة أو عليه . والله أعلم بما في سريـرة كل إنسان . ولكـن رحمة الله وحكمته ، وقضـاءه وقـدره ، قضت أن تقوم الحجـة ليراها الإنسـان نفسه . **فالابتلاء** في الحياة الـدنيا قضى بـه الله ليمضي من خلال سعي الإنسان وجريه في الحياة الدنيا :

﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كـلّ شيء قدير * الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ [الملك : ١ ، ٢]

يجب تـوعية المسلم لهذه الحقيقـة ، لهذه المهمة العظيمـة التي خلقه الله لها في الحيـاة الدنيا .

يجب غرس ذلك في قلبـه من خلال الآيات والأحـاديث ، ليعلم مهمّته ومسـؤوليته علماً يقينياً نـابعاً من إيمانه مـرتبطاً به . وليعلـم كذلك أن مرجعـه إلى الله محاسَب عن هذه المسؤولية . فهـو لم يُخلَقْ عبثا لا في الدنيا ولا في الآخـرة . فتمتد في قلبه ووعيه مسـؤولياته وهـو يصـاحب منهـاج الله مصـاحبـة عمـر وحيـاة . وإذا صـدق إيمانـه نهض إلى هـذه التكاليف بحـافز إيماني ، وهبّ ليوفي عهـده مع الله سبحانه وتعـالى ، صابراً على مـا يلقاه من عنتٍ ومعاناة ، مطمئنّا بذكر الله :

﴿ أفمن يعلم أنما أُنـزل إليك من ربّك الحق كمن هو أعمى إنما يتـذكر أولـوا الألباب * الـذين يوفون بعهد الله ولاينقضـون الميثاق * والذين يصلون مـا أمر

الله بـه أن يـوصل ويخشـون ربهم ويخافون سـوء الحسـاب * والـذين صبروا ابتغاء وجـه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقـوا مما رزقناهم سرّاً وعلانيـة ويدرؤون بالحسنـة السيّئة أولئك هم عقبى الدار * جنّـات عدن يـدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرّياتهم والملائكة يـدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعمى عُقبى الدار ﴾ [الرعد : ٢٤]

من ظل هذه الآيات نلمح المؤمن في صورة جليّة ، وهو ماض ليوفي بعهده مع الله : يصل ماأمـر الله به أن يوصل ، ويخشى ربـه ويخاف سوء الحساب ، بمضي صـابراً يبتغي وجـه ربـه ، ويقيم الشعـائر وعلى رأسهـا الصـلاة ، وينفق في سبيل الله سرّاً وعـلانيـة ، ويدفع السيئة بالحسنة .

إنها صورة تمثّل **العمل الصالح** في الأرض وهو يمتدّ في **ممارسة إيمانيّة** عظيمة ، حتى كأن هذه هي مهمة الإنسان التي عـرضناها قبل قليل من خلال تعبيرات . إنها هي المهمـة نفسها ، تـرد تفصيـلاتها في كتاب الله ، لتبيّن كيف تكـون العبـادة ممتدّة في حيـاة الإنسان في جميع ميـادين حياتـه ، وكيف يكون الـوفاء بالأمـانة والخلافـة ، وكيف تكون عمارة الأرض بحضارة الإيمان .

فنستطيع إذن أن نقـول اليوم إن العهد مع الله والأمـانة والخلافـة والعمارة ، كل ذلك يعني : ممارسة منهاج الله في الواقع البشري . هذه هي **الممارسة الإيمانيّة** (١) .

فالممارسة الإيمانيّة إذن هي نهج ممتد يمثل امتداد العمل الصالح في واقع الحياة .

نستطيع الآن ، وقد عرفنـا بصورة عامة مهمة الإنسان في الحيـاة الدنيا ، نستطيع أن نعيد ونوجز المسؤوليات والتكاليف التي تنشأ عن هذه المهمة : (١)

١ - التفكير واتخاذ القرار بالإيمان أو عدمه وتحمل مسؤولية كل قرار ونتيجته .

٢ - الإيمان والتوحيد ، إذا آمن وهداه الله ، والشهادتان .

---

(١) يراجع كتاب التوحيد وواقعنا المعاصر للمؤلف : الباب الثالث - الفصل الرابع .

(٢) يراجع كتاب بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية - للمؤلف : الباب الخامس .

٣ - الشعائر ، لتكوّن هي والشهادتان الأركان الخمسة .

٤ - تدبُّر منهاج الله ودراسته دراسة منهجيّة صحبة عمر وحياة ،ودراسة الواقع ووعيه من خلال منهاج الله .

٥ - الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، وتبليغ رسالة الله إلى الناس .

٦ - المضيّ على «صراط مستقيم » لتحقيق الأهداف الربّانيّة الثابتة في الواقع البشريّ ، وممارسة منهاج الله ممارسة إيمانيّة في كلّ ميدان يخوضه المؤمن ، من نفسه خاصة ، وبيته وأُسرته ، ووظيفته وعمله وتجارته ، وغير ذلك ، ماضياً داعية يبلّغ رسالة الله إلى الناس ويتعهدهم عليها .

أما الأهداف الربانيّة الثابتة فنوجزها بنقاط :

الدعوة إلى الله ورسوله ، التعهُّد والتربية والتدريب ، بناءا الجيل المؤمن ، الجهاد في سبيل الله ، أن تكون كلمة الله هي العليا ، وعمارة الأرض بحضارة الإيمان .

فالإيمان والتوحيد إذن ليس مجرد شعور وعاطفة فحسب ، وإن كانت العاطفة والشعور جزءاً منه ، ولا مجرّد تفكير وتأمل ، وإن كان التفكير والتأمل جزءاً منه ، ولكنَّ **الإيمان والتوحيد** مع هذا كله :

مفاصلة وحسم ،

وتكاليف والتزام ،

ومسؤولية وحساب .

لابدَّ أن يعي المسلم هذه الحقائق في مدرسة الدعوة الإسلامية ، من خلال الآيات والأحاديث ، ومن خلال التأمل في الكون وتدبّر آيات الله فيه ، ومن خلال التدبُّر في تاريخ الإنسان وسنن الله فيه ، ومن خلال الواقع وأحداثه وعبره حين يتدبّر ذلك كله من خلال منهاج الله ، ومن خلال ردّ الأحداث والأمور كلها إلى منهاج الله ردّاً أميناً واعياً .

* * * *

من خلال الواقع الذي يمرّ فيه المسلمون ، لابدّ من مسيرة محدّدة للخروج من الواقع المظلم إلى العزّة والقوّة ، العزّة بالله ، والقوة بالإيمان والوفاء بالعهد والصدق مع الله .

ومن أجل ذلك ، من أجل هذه المسيرة ، من أجل ممارسة منهاج الله في الواقع البشريّ ممارسة إيمانيّة ، لابدّ من النهج والتخطيط حتى لايظل العمل ردود فعل وارتجالاً، ولا شعارات وصراخاً ، ولا اضطراباً وقلقاً .

لابد من النهج والتخطيط الذي يقوم على دراسات جادة أمينة دقيقة ، دراسات جادة تقوم على أساس من منهاج الله وعلى وعي الواقع من خلاله .

إن هذه الدراسات يجب أن تمتدّ إلى جميع ميادين الحياة ، وأن تمتدّ مع الزمن كله لاتتوقف ، حتى تظل ناميّة متجدّدة تلبّي حاجات الواقع المتجدد .

ومع نمو الدراسات وامتدادها تظل الأسس التي تقوم عليها الدراسات ثابتة ، حتى لاتنحرف الدراسات بالنهج ، وحتى لاتخرج عن « **الصراط المستقيم** » الذي أمرنا الله باتباعه وعدم الخروج عنه .

إن النهج والتخطيط ضرورة هامة في حياة المسلمين ، وفي مسيرة الدعوة الإسلامية ، على أن ينضبط النهج والتخطيط بالقواعد الربانيّة الأساسية التي تحميه وتغذيه . (١)

من هذه الدراسات التي استغرقت عدداً غير قليل من الكتب المنهجيّة في موضوعات متعددة خرجت النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، لتجمع في صورة مبسطة منهج هذه الدراسات وترابطها وتناسقها ، ولتوجه العمل والجهد على «**الصراط المستقيم**» وإلى أهداف محدّدة جليّة في الحياة الدنيا ، أهداف ربّانيّة ثابتة ، تمتدّ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنة -

* * * *

(١) يراجع كتاب «النظرية العامة للدعوة الإسلامية - نهج الدعوة وخطة التربية والبناء» الباب الثالث : الطبعة الثالثة . ، [ص: ٧١-ص ١٠٤] للمؤلف .

ولا بد أن نوضح أن القضية ليست محصورة في حلّ مشكلاتنا في الحياة الدنيا ، وأن نخرج من ظلام الواقع إلى إشراقه العزّة فيها . إنها تمتدّ إلى أبعد من ذلك . ولتوضيح الأمر نقول إنها ثلاث مسؤوليات عامّة في وقت واحد ، تمضي الثلاث معا دون انفصال .

أولاً : مسؤولية الفرد المسلم في أن ينجو من فتنة الدنيا حتى ينجو من عذاب الآخرة ، وحتى يدخل الجنّة برحمة من الله .

ثانياً : مسؤولية الأمة المسلمة في أن تنهض من غفوتها لتخرج من ظلام الواقع إلى إشراقه العزّة بالله .

ثالثاً : إخراج الناس من عبادة الأوثان والأهواء والعباد إلى عبادة الله وحده ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، والمضيّ على صراط مستقيم إلى أهداف ربانيّة ثانية تمتدّ إلى الهدف الأكبر والأسمى – الدار الآخرة ورضوان الله والجنة– .

كثير من الناس ينسى القضيّة الأولى والثالثة : ينسى أنه هو نفسه سيموت ، وأن الموت حق ، وأنه هو نفسه سيُبعث ويحاسب ، ويدخل الجنّة أو النار . وأنه ليس أمامه إلا فسحة الحياة الدنيا لينجو بنفسه . وينسى كثير من المسلمين أنهم مسؤولون أفراداً وأُمة عن إبلاغ الناس رسالة الله ، ودعوتهم إلى الإيمان والتوحيد وسائر مقتضياته ومسؤولياته .

هؤلاء الذين يموتون على الكفر ، والمسلمون لم يبلّغوهم دعوة الله ورسالته ، ألا يحمل المسلمون جزءاً من المسؤوليّة عن هؤلاء ؟!

كيف يرضى مؤمن صادق الإيمان أن يرى الناس تتهاوى في جهنّم وهم يموتون على الكفر ويظل مشغولاً عن هذه المسؤولية العظيمة ؟!

إن هذه المسؤوليات الثلاث تمضي مترابطة معاً ، متماسكة ، لا يجوز فصل واحدة عن الأُخريين .

إن هـذا يعني أن مسـؤوليـة الأمة كلهـا لايمكن أن تتحقّق إلا إذا تحقّقتْ المسـؤوليّـة الفرديّة للمسلم ، حين يعي ماعليه من تكاليف سيحاسب هو نفسه عليها . (١)

من هنا يأتي دور النهج والتخطيط ، والإدارة والنظام ، ودور النظرية العامة للدعوة الإسـلاميّة ، لتـذكُّر هـذه كلها بهذه المسـؤوليات وبترابطهـا وتناسقهـا ، ولوضع الخطـة العمليّة والمناهج التطبيقية لتحقيق ذلك في الواقع البشري .

فإلى سبيل الله أيها المسلمون ، إلى الصراط المستقيم ، لنستقيم عليه ونتوب إلى الله :

﴿ فـاستقم كما أُمـرت ومن تـاب معك ولاتطغوا إنـه بما تعملـون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلمـوا فتمسّكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثمّ لاتنصرون ﴾ [هود : ١١٢ ، ١١٣]

وكذلك :

﴿ ... وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [النور : ٣١]

(١) يراجع كتاب «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق للمؤلف : الباب الخامس - الفصل الثالث وكتاب «بناء الأمة المسلمة الواحدة . . » للمؤلف - الباب الخامس .

الفصل الثاني
الجيـل المؤمـن
والصـراط المستقيـم

﴿ اهـدنـا الصراط المستقيم * صراط الـذين أنعمت عليهم غير المغضـوب عليكم ولا الضالين ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧]

الصراط المستقيم هو النهج الرباني الذي أمر الله عباده أن يسلكوه ولاينحرفوا عنه ، لينجوا في الدنيا وينجوا في الآخرة :

﴿وأنَّ هـذا صراطي مستقيماً فـاتبعـوه ولاتتبعـوا السبل فتفـرّق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : ١٥٣]

وكذلك :

﴿ وهـذا صراط ربك مستقيماً قـد فصّلنـا الآيـات لقـوم يـذكّـرون ﴾ [الأنعام : ١٢٦]

ولايُعقل أن يأمرنا الله سبحـانه وتعالى باتباع صراطه المستقيم ، دون أن يبيّنـه لنا بياناً شافيا لايترك حجّـة لضالٍ منحرف أبداً ، ودون أن يفصّلـه تفصيلاً يقطع الطريق على كلّ مجادل بالباطل .

إن الله رحيم بعبـاده ، لايظلم أبَداً ، ذو مغفـرة للنـاس على ظلمهم ، فيسّر برحمتـه للإنسـان كلَّ مايحتاجـه ليهتدي إلى الصراط المستقيم ، وكلّ مايتحاجـه لاتباعه والتـزامه وجعل مع ذلك الميول والشهوات ابتلاءً منه سبحـانه وتعالى ، حتى يُمحِّص عباده ، وهو أعلم بهم ، وحتى تقوم الحجة من خلال الابتلاء والتمحيص للإنسان أو عليه .

وقدّر الله أن تكـون المعركة الأولى لـلإنسان مع نفسه ، في صراع بين الحق الـذي ولد

عليه في فطرته ، وبين نزعات الشهوات التي غرست فيه ، على موازنة دقيقة أمينة ، ينظمها الإيمان المغروس في الفطرة بين مختلف الميول والغرائز والقوى العاملة في داخل الإنسان .

وعلى أساس من ذلك كله ، وضع الله على الإنسان مسؤوليات وتكاليف أمره أن ينهض إليها ليفي بها .

وهذه التكاليف هي محور الأمانة التي حملها الإنسان ، وأساس العهد الذي أخذه الله من بني آدم . فأصبح الإنسان مكلفاً بالوفاء بعهده مع الله ، وبالأمانة التي يحملها .

فمن أهم مايجب على المسلم أن يعرفه إذن التكاليف الربّانية الملقاة على عاتقه ، والتي هي محور الصراط المستقيم الذي أُمِر باتباعه ، والتي سيحاسب عليها بين يدي الله .

إن المسؤوليات تبتدىء بواجب التفكير ، التفكير الواعي النابع من الفطرة ومن القوى التي أودعها الله فيها ، ليقرر الإنسان نفسه أيؤمن أم يكفر وليتحمّل مسؤولية قراره بعد ذلك .

فإن آمن بدأت مسؤولياته الأُخرى التي تبتدىء بالأركان الخمسة : الشهادتان والصلاة والصوم والحج والزكاة . ثمّ تتوالى المسؤوليات والتكاليف الربانيّة وتمتدّ : طلب العلم ، وأساسه المنهاج الربانيّ - قرآنا وسنّة ولغة عربية - ، ثم تبليغ رسالة الله إلى الناس لإخراجهم من الظُّلمات إلى النور ، ومن عبادة الأوثان والأهواء والعباد إلى عبادة الله وحده ، الله الذي لاإله هو له الأسماء الحسنى . وتمضي التكاليف بعد ذلك وتمتد .

والنظريّة العامة للدعوة الإسلامية تُبْرِزُ الخطوط العامة لهذه المسؤوليات في الرسم الهيكلي لها ، وتبرز تفصيلات المسؤوليات في دراساتها المختلفة .

إنها تعرض صورة واضحة «للصراط المستقيم» الذي أمر الله عبادة باتباعه ، وتعرض التكاليف الواجبة على المسلم وعلى الأمة أثناء المضيّ على هذا الصراط المستقيم ، ليكوّن ذلك كله نهجاً ممتداً من نقطة الانطلاق إلى الهدف الأكبر والأسمى - الدار الآخرة ورضوان الله والجنة - .

وإذا تحدَّد « **الصراط المستقيم** » : نقطة انطلاق ، ودرباً ممتداً جلياً ، تحدّد كذلك معنى «**في سبيل الله** » ، ليظَلّ عمل المؤمن على هذا الصراط المستقيم ، على هذا الدرب ، متجهاً إلى الهدف الأكبر والأسمى .

مهما حمل العمل من زخرف وزينة ، ومظاهر مغرية من الحسن ، والخير الظاهري ، فهو غير مقبول عند الله إذا خرج عن الصراط المستقيم ، ولم يرتبط بالهدف الأكبر والأسمى . ذلك لأن ارتباط العمل والقلب بالهدف الأكبر والأسمى يحدّد النيّة ويجعلها خالصة لوجه الله ، والمضيّ على الصراط المستقيم الذي فصّله الله سبحانه وتعالى في المنهاج الرباني هو الذي يجعل العمل مطابقاً لمنهاج الله . وهذان هما الشرطان الضروريان في أيّ عمل حتى يقبل عند الله :

أولاً : صدق النيّة وإخلاصها لله سبحانه وتعالى ، كما بيّنت لنا ذلك الآيات والأحاديث :

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين * لاشريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين ﴾ [الأنعام :]

﴿ قل إني أُمرتُ أن أعبد الله مخلصاً له ديني ﴾ [الزُمر : ١١]

﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني ﴾ [الزّمر : ١٤]

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ [الزمر : ٢]

﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيّمة ﴾ [البيّنة : ٥]

وعن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« **إنما الأَعمال بالبينَّات وإنما لكل امرىء من عمله مانوى** . . . » [رواه الشيخان](١)

(١) البخاري : ١/١/١ ، ٢/٤/٥٤ ، وفي كتب أُخرى من صحيحه . مسلم : ٣٣/ ٤٥/١٩٠٧ .

ثانيـاً : أن يكـون العمل مطابقـاً للكتاب والسنـة ، فإن خـالفهما فهو مـردود على صاحبه لايقبله الله :

« من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ » [رواه الشيخان وغيرهما] (١)

لابد إذن من تـوافر الشرطين معـاً في وقت واحد ، حتى يقبل العمل عنـد الله . فإذا فسدت النيّة بطل العمل ، وإذا خالف العمل منهاج الله بطل كذلك .

هـذه قضيّـة أســاسيـة في التصـوّر الإيماني ، وفي التربيـة والبنـاء ، وفي الإعـداد والتدريب . ولا بد أن تأخـذ مدرسة الإسلام ، مـدرسة الدعوة الإسلاميـة ، هذه القضيّة أخذاً جـاداً في نهجها ومناهجهـا ، وفي النهج والتخطيط ، حتىٰ تترسّخ هذه القـاعدة في العقول والقلوب والنفوس ، وحتى يسهل على المسلم ممارستُها في واقع الحياة .

وكيف تصدق النيّة وتخلص لله سبحانه وتعالى حتى يُقْبَل العمل عند الله ؟!

وكيف يكون العمل مطابقاً لمنهاج الله حتى يُقْبَل عند الله ؟!

إن أساس هذين الشرطين هو صدق الإيمان والتـوحيد . فإذا صدق الإيمان صدقت النيّة وأُخلِصَتْ لله سبحـانه وتعـالى . وإذا صدق الإيمان والتـوحيد ، استجـابت االفطرة السويّة السليمة إلى أمر الله ، وهُرِعتْ إلى التكاليف الـربآنية ، تنهض إليها لتوفيَ بالتزامها العهد والأمانة .

وكيف يعرف المسلم التكـاليف الربّانيّـة بصورتها الحقيقية دون مغـالاة أو قصور أو انحراف ؟!

إن مصدر ذلك هو مصدر رئيس واحد ، هو منهـاج الله – قرآناً وسنّة ولغة عربيّة – ينهض المؤمن الصـادق إليه بعزيمـة وقوة ، ولهفـة وشوق ، ليتـدبره ويعي منـه التكاليف الربّانيّة التي وضعها الله في عنقه ، والتي سيحاسَب عليها بين يدي الله يوم القيامة .

---

(١) البخاري : ٥٣/ ٥/ ٢٦٩٧ ، مسلم : ٣٠/ ٨/ ١٧١٨ ، أبـو داود : ٣٤/ ٦/ ٤٦٠٦ ، ابن ماجه المقـدمة / ١٢ . ابن حبان : تحقيق أحمد محمد شاكر : (ص: ١٦٢-١٦٤) .

يُقْبِل المؤمن على منهاج الله ليتدبّره تدبّراً واعياً ، ليدرك مسؤولياته ، وهو يعلم خطورة الأمر وأهميته . يعلم ذلك من إيمانه الصادق وتوحيده الصافي لله سبحانه وتعالى .

فإذا وجد المؤمن عقبات في الواقع ، أخذ يجاهد حتى يزيل هذه العقبات دون أن يستسلم لها . ذلك لأن طلب العلم بمنهاج الله مسؤوليته هو أولاً : فذلك فرضٌ فرضه الله عليه ، لا مجال للتخلّف عنه ولا للتقصير فيه في حدود وسعه الصادق :

فعن أنس عن النبيّ ﷺ قال «**طلب العلم فريضة على كل مسلم . وإن طالب العلم يستغفر له كلّ شيء ، حتى الحيتان في البحر** » [رواه ابن عبدالبر في العلم][(١)]

طلب العلم فريضة على كل مسلم . والذي فرض طلب العلم هو الله سبحانه وتعالى ، وبلّغنا رسوله ﷺ هذا الفرض والأمر والتكليف .

الذي فرض طلب العلم هو الله سبحانه وتعالى ، وهو الذي فرض الصلاة والشعائر كلها ، وهو الله الذي فرض سائر التكاليف الربانيّة ، ورتّبَها ترتيباً جليّاً .

الإيمان والتوحيد يدفعان المسلم إلى الشهادتين وإلى الشعائر كلها ، لتكون هذه هي الأركان الخمسة التي يقوم عليها الإسلام ، وتقوم عليها سائر التكاليف الربانيّة :

فعن عبدالله بن عمر عن الرسول ﷺ :

بني الإسلام على خمس : «**شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان** »

[رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي][(٢)]

نعم ! بُنيَ الإسلام على خمس . فهذه الخمس هي أساس البناء وأركانه . وعليها يقوم سائر البناء ، أو سائر التكاليف الربّانيّة . ولا تُقْبَل التكاليف عند الله دون الأساس

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط:٣) : (رقم: ٣٩١٤) .
(٢) المصدر السابق : (رقم : ٢٨٤٠) .

والأَركان . فمن هذه الأسس والأركان القائمة على صدق الإيمان وصفاء التوحيد ، تنطلق النيّة الخالصة لله سبحانه وتعالى .

وبهذه النيّة الخالصة لله سبحانه وتعالى يُقْبل المُسْلم على كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ ، كما جاءا بـاللغة العربيّـة ، إقبال شوقٍ ورغبـة بحافـز إيمانيّ ليبحث عن التكاليف الأُخرى مفصَّلة في منهاج الله ، ثم ينطلق إلى هذه التكاليف طـاعة لله وعبادة له واستجابة لأمره .

من هذه الآيات الكـريمة والأحاديث الشريفة نـدرك بيسر وسهولة معنى «**الصراط المستقيم** » كما يبيّنه لنا منهاج الله .

فنقطة الانطلاق هي النيّـة الصادقة النابعة من الإيمان والتـوحيد ، ثم يمتد الصراط المستقيم بالأركان والأسس ، بالشهـادتين والشعائر ، ثمّ يمتدّ الصراط المستقيم مباشرة إلى طلب العلم بمنهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربيـة - دراسة وتدبّراً وحفظاً ، دراسة منهجيّة صحبة عمر وحياة .

وبهذه الانطلاقة على «الصراط المستقيم » : بالنيّـة الصادقة ، والشهادتين والشعائر ، وتدبّر منهاج الله ، يتوافر الأساس الضروريُّ لتحقيق الشرط الثاني لقبول العمل ، ألا وهو مطابقته لأحكام منهاج الله . فبتدبُّر منهـاج الله يعرف المسلم مسؤولياته وحكمها وفقهها ، ويصبح عملـه ، إذا صـدق ، مطابقـاً لأحكـام منهـاج الله . وبـذلك يتوافـر الشرطـان الضروريان لقبول العمل عنـد الله سبحانه وتعالى . وينطلق بـذلك المسلم إلى العمل وهو مزوّد بالزاد الحق .

ويمتدّ «**الصراط المستقيم** » بعـد ذلك ، حين ينهض المسلم إلى سائر التكـاليف الربـانيّة ، مزوّداً بـالزاد الحق ، صادق النيّـة ، واعياً للـدرب ، راكضاً إلى أهداف ربّـانيّة ثابتة جليّة .

ويمتدّ « **الصراط المستقيم** » بالسعي إلى تحقيق هـذه الأهداف الـربانيَّة الثـابتة في

الواقع البشري ، بحافز إيماني ، ماضِياً إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنة ورضوان الله والدار الآخرة .

ولا بد هنا من وقفة مع ظلال «النيّة» ومعناها وحكمها وأثرها في حياة المسلم .

النيّة طاقة عظيمة ، تبعث الوعيَ واليقظة في حياة المسلم ، وتُذهِبُ عنه الغفلة ، والغفوة والخدر . إنها تحصين متين ضد الخدر وضد الغفلة وضد وسوسات الشيطان . إنّها نعمة من الله على المؤمن لتكون النيّة ومايرتبط بها حارساً بإذن الله للمؤمن .

والنيّة ليست تمتمة شفاه ، ولا حركة رؤوس . ولكنها حركة في ضمير المسلم ، وقوة في نفسه وداخله ، وطاقة في وعيه وعقله .

والنيّة الصادقة توفّر هذا كله لأنها تعني أن المسلم يمضي على هدى ونور ، بعد أن عرف أهدافه في الحياة هدفاً هدفاً ، وعرف أن هدفه الأكبر والأسمى هو الجنة ورضوان الله والدار الآخرة ، وبعد أن عرف الدرب الذي يوصل إلى الأهداف ليبلغها ، والذي يربط الأهداف فيما بينها ويربطها بالهدف الأكبر والأسمى ، بعد أن عرف أن هذا الدرب هو «**الصراط المستقيم**» الذي بيّنه الله لنا وفصّله في كتابه المبين .

وإذا مضى المسلم على « **هذا الصراط المستقيم** » ، كان عمله بإذن الله « **في سبيل الله** » بعد أن توافرت كافّة الشروط الإيمانية لذلك ، فتصدق نيّته عندئذ وقد عرف الدرب والأهداف ، وصدقت عزيمته بالمضيّ على الصراط المستقيم دون توقف ولا انحراف .

ويصبح عمل المسلم بذلك **عملاً منهجياً غير ارتجاليّ ولا هو ردود فعل ، ولا هو تيه ولاحَيرةٌ ولا تردّد** . إنه **نهج وتخطيط** ابتدأ **بالنيّة الصادقة** ثم تحديد الدرب التي توصل إلى الأهداف ، وتحديد الوسائل والأساليب ، وكل أُسس النهج والتخطيط !

إن المؤمن لاتُخَدِّره الشعارات إلا حين تكون هي في اتجاه ، وعمله ومسيرته في اتجاه آخر ، ولارصيد للشعارات في الواقع . لاتخدّره الشعارات حين يكون محصّناً قوّياً بالإيمان والعلم والنهج الذي يرسم الدرب كله .

إنه ماضٍ على « **صراط مستقيم** » لاتفتنه الزخارف والزينة على جوانب الطريق لتخرجه عن الطريق وتحرفه عنه أو توقفه وتعطله .

إنَّه مطمئنٌّ يشعر بالأمن والأمان ، وهو في حمى الرحمن ، على «**صراط مستقيم** » لايزيغ عنه إلا هالك . إنه مطمئن لصدق نيّته وصدق عزيمته ولأنه عرف الأهداف والدرب ، والبداية والنهاية . فأيّ أمن أوسع من ذلك ، وأيّ أمان أوثق ، وأيّ اطمئنان أشدّ :

﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [الأنعام : ٨٢]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال : **« لقد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرّقا حتى يردا عليّ الحوض »** [رواه الحاكم](١)

والمسلم ، حين يمضي على «**الصراط المستقيم** » ، مستوفياً كافّة الشروط الإيمانيّة :

نهجاً وخطة ، وعلماً ويقظة ، فإنه لايُخدَع ولا يستدرج لباطل ولا يفتن ، وإذا أخطأ فإنه يتوب وينيب ، ويظلُّ على خير في كل أحواله ، ذاكراً لله سبحانه وتعالى ، بقلبه ولسانه وعمله ، يحميه الله ويحفظه الله :

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ :

« المؤمن غِرٌّ كريم . والفاجر خب لئيم » [رواه أبو داود والترمذي والحاكم](٢)

وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لست بالخب ولا الخَب يخدعني» . وعن ابن عباس عن النبي ﷺ : « المؤمن بخير على كل حالٍ تُنزَع نفسه من بين جنبيه وهو يَحمد الله » [رواه النسائي](٣)

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - (رقم : ٢٩٣٧) .
(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - (رقم : ٦٦٥٣)
(٣) صحيح الجامع الصغير (رقم : ٦٦٥٢) .

وعن عبدالله بن بسر أن رجلاً قال : يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علي ، فأخبرني بشيء أتشبّث به ، قال : «لايزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى . »

[رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم] (١)

وتأتي الآية الجامعة تصف المؤمنين والمؤمنات وهم يمضون على الصراط المستقيم :

﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾ [التوبة : ١١٢]

وكذلك الآية الجامعة :

﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدّقين والمتصدّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ [الاحزاب : ٣٥]

وتتوالى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تبيّن خصائص المؤمنين وهم يمضون على الصراط المستقيم » وتفصّلها تفصيلاً دقيقاً . ولانستطيع أن نجمع ذلك كله هنا ، ولكن هذه الخصائص بتفصيلاتها يجب أن تُدْرَس وتُحفَظ ، وتوضَع المناهج التربوية لتحقيقها في الإنسان المؤمن وتدريبه عليها في مدرسة الإسلام .

ولن نجد هذه التفصيلات إلا في منهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربية- بالأسلوب الرباني المعجز ، الميسّر للذكر .

نؤكد ثانية أنها مسؤولية الطاقة البشرية لوضع النهج والتخطيط لكل مرحلة وخطوة ولكل ميدان ، من أجل تحقيق هذه الخصائص الربانية الإيمانيّة في «**الجيل المؤمن**» الذين يمضي على «**الصراط المستقيم**» يحمل الأمانة التي سيحاسَب عليها .

---

(١) المصدر السابق : (رقم : ٧٧٠٠) .

لابـــدَّ من المضي على « **الصراط المستقيم** » حتى يــــدرك المسلم الهدف الأكبر والأسمى - الجنة - فلا يوجد سبيل آخر لبلوغ ذلك . إنه السبيل الوحيد .

وقد جعله الله سبيلاً واحداً حتى يتميّز بيسر وسهولة عن السبل الأُخرى ، فلا يضلّ عنه المؤمن ، ولاتختلط عليه الدروب والطرق .

وقد جعلـه الله سبيلاً واحداً ، وجعل للكـافرين سُبُـلاً شتى متعددة ، حتى يجتمع المؤمنون على درب واحـد ، ليكونـوا أمّة واحدة ، أمّـة مسلمة واحدة ، لا أحـزاباً متفـرّقة متصارعة .

وقد جعلـه الله سبيلاً واحـداً مشرقاً بيّنـاً واضحاً حتى تقـوم الحجَّة على مـن يتركه أو ينحرف عنه ، أو يتوقف ولايتابع ويمضي .

ومع هـذا المضيّ على «الصراط المستقيم » يكـون البـذل والجهد والمعـانـاة ، ويكـون «التدريب المستمر » الذي تنمو به الخبرة والزاد والتجارب .

ومع هذا المضيّ بشروطه الكاملة يتميز الجهـد والبذل بأمرين أساسين مع النية واتباع منهاج الله ، هما : الإتقان والإحسان :

فعن عـائشة رضي الله عنها عـن الرسـول ﷺ وقال : «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه** » . [رواه البيهقي في شعر الإيمان] (١)

وكذلك :

عن شداد بن أوس عن الرسول ﷺ قال :

« **إن الله كتب الإحســان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنـوا القِتلــة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته ، وليُرِحْ ذبيحته** » [رواه أحمد ومسلم] (٢)

إن المضيّ على الصراط المستقيم ، مع نمّـو الـزاد والخبرة سيـوفّـر هـذين الأمـرين : الإتقان والإحسان .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ١٨٨٠) .
(٢) صحيح الجامع الصغير وزيادته (رقم : ١٧٩٥)

وعلى هذا الصراط المستقيم قد يتعرّض المسلم لخطرين : التوقف والانحراف .

والتوقف يُعطّل متابعة الأهداف الربانيّة وتحقيقها تعطيلاً يتعارض مع وفاء **الداعية المؤمن** بعهده مع الله . فالداعية تقدّم بنفسه إلى حمل أمانة الدعوة والمضيّ بها ، فإن توقّف فقد أساء وظلم وحسابه عند الله .

والأساس أن يكون كل مسلم داعية إلى الله ورسوله على قدر وسعه وطاقته وفي ميدانه ، على الصراط المستقيم ، إلا من قصّر به وسعه عن ذلك .

أما الانحراف عن « **الصراط المستقيم** » فهو الهلاك والضياع ، فلا يقبل من أحدٍ عملٌ إلاّ أن يتوب ويعود إلى « **الصراط المستقيم** » . وأنى لمن انحرف وخرج عن الصراط المستقيم أن يبلغ الهدف الأكبر والأسمى .

إن التوقف يعني توقّف الزاد . فزاد الداعية زاد نامٍ يمضي لينمو الإتقان والإحسان في العمل كله . إن التوقّف عن المضيّ على الصراط المستقيم يولد صورة أو أكثر من صور التراجع ، والتراجع يزيد فَقْدَ الزاد وينقص العطاء وقد يدفع هذا وذاك إلى الانحراف ثم الهلاك .

إن هذا السبيل الوحيد للمؤمنين ، الصراط المستقيم ، يمضي عليه المؤمن وهو مطمئن واثق بالله صادق التوكل ، حين يرافقه في مسيرته كلها زاد عظيم وعدة عظيمة تهبه القوة والثبات والقدرة على المضيّ بإذن الله . هذا الزاد وهذه العدة التي ترافق المؤمن في مسيرته كلها ، مسيرته المنهجية ، نوجزها بما يلي :

١ - صدق النيّة وإخلاصها وتجديدها حتى تظل مصاحبة للمؤمن من نقطة الانطلاق حتى لقاء الله ، وكذلك الشعائر .

٢ - مصاحبة منهاج الله مصاحبةعمر وحياة ، مصاحبة منهجية ، تلاوة وحفظاً وتدبّراً ، ومصاحبة المنهاج الفرديّ .

٣ - ذكر الله مع كل خطوة ، حتى يدفع ذكر الله الخطوات كلها على الصراط

المستقيم في سبيل الله دون توقُّف ولا انحراف ، وحتى تكون كل خطوة ، هي نفسها ، ذكراً لله غنياً بالقلب واللسان والعمل .

إن هذا الزاد الغني الكريم يجمع المؤمنين على وعي وبصيرة على الصراط المستقيم :

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ [يوسف : ١٠٨]

وكذلك :

﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السّبُل فتفرَّق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : ١٥٣]

٤ - مجاهدة النفس ابتداء من نقطة الانطلاق حتى لقاء الله . ومجاهدة النفس تعني مراقبتها ومحاسبتها وردّها إلى منهاج الله حتى يكون هواها تبعاً لما جاء به محمد ﷺ ، وحتى يكون رسول ﷺ أحبّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين ، وحتى يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما . إنها مجاهدة للنفس ماضية .

فعن فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال : **« المجاهد من جاهد نفسه في الله »** [رواه الترمذي وابن حبان][(١)]

(١) الترمذي : ٢٣/ ٢/ ١٦٢١ . صحيح الجامع الصغير زيادته : (ط:٣) - (رقم : ٦٦٧٩) .

الفصل الثالث

هل المسلمون اليوم قادرون على بناء مصنع الأجيال المؤمنة

لقد سبق أَن عرضنا موجَز النظرية العامة للدعوة الإسلامية في عدد من الكتب التي صدرت ، وجاءت تفصيلات كل جزء منها في سائر الكتب . وبإيجاز فإن جميع الكتب التي صدرت تمثل « **النظريّة العامة للدعوة الإسلامية** » موجزاً وتفصيلاً ، وسترتبط الكتب التي تصدر بعد ذلك بهذه النظرية العامة . فالكتب والدراسات جميعها كتبٌ منهجيّة ، تعرض النظرية والنّهج ، وتعرض كذلك المناهج التطبيقية والنماذج العملية ، سواء أكان ذلك في الفكر والتصور ، والإيمان والتوحيد ، أم مشكلات الواقع الفكرية وأحداثه ووقائعه ، أم الأدب وقضاياه ، أم الفقه وامتداده ، أم الدعوة والبلاغ ، أم التربية والبناء ، أم النهج والتخطيط والإدارة والنظام ، وغير ذلك .

ولكننا نقدم موجز النظرية العامّة في هذا البحث ، بناء على طلب بعض الإخوة أن يُعْرَض موجزُ هذه النظرية في كتاب خاصّ به ، حتى يسهل دراسة هذا الموجز ، ثمّ يعود من يشاء إلى تفصيلاتها في كتبها الأُخرى .

ومن المفروض أن تمتدّ الدراسات المنهجية القائمة على أُسس راسخة ثابتة ، نابعة من المنهاج الربّانّي ، مرتبطة به مع امتدادها ، ملبّية لحاجات الواقع ، لتمثل في ذلك كله ناحيتين هامتين : المضيّ على الصراط المستقيم ، الذي بيّنه الله لنا وفصّله ، والنموَّ والتطوّرَ في الجهد البشريّ على أساس من الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ، النمو والتطور الذي نسميه ونصطلح عليه : « بالإتقان والإحسان » .

ومن خلال هذا النهج المتماسك نستطيع أن نستفيد من التجارب البشرية المفيدة في ميدان الصناعة والعلوم التطبيقية ، لنعيد صياغتها ونهجها وأهدافها ، ولتصبح جزءاً من

النهج الإيماني الحق . أما بالنسبة للتصورات المتعلّقة بالحياة والموت ، والكون وآفاقه ، فنحن -المسلمين- نملك التصوّر الحق الذي أُمرنا أن نبلّغه للعالم كله ، للناس كافّة ، وأن نجاهد من أجل ذلك في سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالقوّة والعزّة ، وبالقتال إذا استدعى أمر الله ذلك وتوافرت شروطه الإيمانيّة .

إن الدعوة الإسلامية مدرسة للإنسان ومصنع للأجيال ، تمضي مع الزمن كله لاتتوقّف ولا تتعطّل ، تقذف بالأجيال المؤمنة مع الدهر مواكب متتابعة مترابطة ، لتنشر الحق والعدل في الأرض كلها ، وتنشر الأمن والأمان والسلام ، والصلاح والخير ، والطهر والحرّية الأمينة والمساواة العادلة ، ولتتعارف الشعوب في الأرض تحقيقا لأمر الله ، في ظل الإيمان والتوحيد وإعلاء كلمة الله لتكون هي العليا ، وليكون عندئذ خير الناس وأكرمهم عند الله أتقاهم :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [الحجرات : ١٣]

وكذلك :

﴿... وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا إن الله عزيز حكيم ﴾
[التوبة : ٤٠]

على هذا الأساس يجب أن يكون تعارف الشعوب ، على أساس التقوى ، ولتكون التقوى هي أساس الموزانة والمفاضلة ، وليكون الأتقى هو الأكرم عند الله .

وعندما تمضي الدعوة الإسلامية على أسسها الربانيّة ، فإنها تحقّق بإذن الله ، التكاليف الربانية والأهداف الإيمانية في الواقع البشري ، حين تصبح كلمة الله هي العليا وشرعه هو الذي يسود ويحكم .

ذلك كله لمنع الفتنة والفساد في الأرض ، وإيقاف الجرائم ، وتجفيف منابع الكفر ، ليشرق الإيمان والتوحيد في القلوب وكذلك في الأرض ، خيراً وبشرى وعزّة للإنسان .

لقد أراد الله أن يبتلي الإنسان في الحياة الدنيا بهذه المسؤوليات والتكاليف ليُمَحِّصه ، ولتقوم الحجة له أو عليه يوم القيامة ، والله أعلم به ، بما يعمل وبما ينوي ، بما يعلن وبما يُسِرّ . أراد الله لحكمة يعلمها أن يمضي ذلك بالجهد البشري ، بالطاقة البشرية ، ولو شاء الله لهدى الناس جميعاً ، ومنع الفساد في الأرض :

﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [النحل : ٤٠]

إنها مسؤولية الطاقة البشرية أن تضع كافّة ماوهبها الله من نعم وقوى عبادة لله وطاعة له ، لتحقيق هذه التكاليف الربانيّة ، لنشر الصلاح في الأرض ، والأمن والعدل ، ولدرء الفتنة والفساد والإفساد ، ولجمع الناس والشعوب على كلمة الإيمان والتقوى ، والتوحيد والعمل الصالح ، ليسعد الناس في الأرض ، في الحياة الدنيا ، بعد أن بيّن للناس طريق ذلك ووسائله ، ووفّر لهم ما يحتاجونه لتحقيق ذلك .

إن البشريّة كلّها ، إن الشعوب كلّها ، إن الإنسان حيثما كان وفي أي عصر كان ، إن الناس كافة ، بحاجة إلى الإسلام ، بحاجة إلى دعوة الإيمان والتوحيد ، بحاجة إلى منهاج الله كله ، حتى ينجو الإنسان من فتنة الدنيا ، وينجو من عذاب الآخرة .

عندما يتصور الداعية المسلم الدار الآخرة حق التصور إيماناً ويقيناً لا خلل فيه ولا ريبة ، ويتصوّر أن الكافر الذي يموت على كفره سيُلقَى في جهنم ، في عذابها ، خالداً مخلداً فيها ، حين يتصوّر المسلم هذه الحقيقة تصوراً صادقاً إيماناً ويقيناً ، فإنه لايملك إلا أن ينطلق يدعو إلى الإيمان والتوحيد ، مستجيباً لأمر الله ، لينقذ الناس من عذاب جهنم ، ولينقذ نفسه وزوجه وولده وأرحامه وأهله جميعاً ، والناس جميعاً .

إن الداعية لايدعو إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، في محاضرة فحسب ، أو كلمات يلقيها في مجلس طارىء ، أو كتاب يوضع على الرفّ ، ولكنه يتابع العمل في خطواته المتكاملة المترابطة . إنه ، بعد أن يبلّغ ويدعو ، يتعهّد ويربّي ، ويدرّب ويبني ، ليمضي العمل نهجاً متكاملاً متماسكاً ، تترابط مراحله وأهدافه وساحاته ، لاتنعزل مرحلة عن مرحلة ، ولا هدف عن هدف .

إنه العمل المنهجيّ الذي ينطلق من نقطة ، ثم يمضي على الصراط المستقيم الذي بيّنه الله لنا وفصّله ، إلى هدف بعد هدف ، ثمّ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الدار الآخرة ورضوان الله والجنة - .

إن هذا العمل كله ، بجميع خطواته ومراحله ، تكليف ربّاني ، وأَمرٌ من عند الله وعلى المسلمين بعامة ، وعلى الدعاة بخاصة . وعلى كل مؤسسة معنيّة ، أن تضع النهج والخطة لتنفيذ هذا التكليف الربّاني على ضوء الواقع الذي يمضي العمل فيه .

من هنا تنشأ ضرورة النهج والتخطيط على أسس ربّانية ثابتة . ومن هنا توضع النظرية في هذا الميدان أو ذاك ، من خلال الجهد البشريّ المؤمن ، لتيسير الممارسة الإيمانية بشمولها وامتدادها ، وممارسة منهاج الله في الواقع البشريّ في كل ميدان مهما صغر أو امتدّ وكبر .

المسلم الفرد مكلف بتطبيق منهاج الله في حدود مسؤولياته التي سيحاسَبُ عليها يوم القيامة . والأسرة مكلفة كذلك بتطبيق منهاج الله في بيتها وشؤونه وفي علاقات أفراد الأُسرة ومسؤولياتهم . والأمّة كلها مطالبة بذلك ، وكل مسلم مطالب بذلك : فالمهندس يجب أن يمارس منهاج الله عن إيمان وعلم في واقع عمله الهندسي ، والطبيب في طبّه والتاجر في تجارته .

والدعاة كذلك مطالبون بتطبيق منهاج الله في نشاطهم ودعوتهم ، وفي النهج والتخطيط لذلك ، وفي الإدارة والنظام ، وفي تحديد الرأي والموقف ، وغير ذلك من أوجه النشاط .

هكذا يبرز دور الجهد البشريّ المؤمن في ممارسة منهاج الله في الواقع البشريّ في جميع ميادينه وحالاته ، وتتضح المسؤولية ، مسؤولية الفرد والجماعة والأمة ، ويتضح لنا «**الصراط المستقيم**» الذي بيّنه الله سبحانه وتعالى لنا ، حتى يسير المؤمن على بيّنه ونور .

من خلال هذا الجهد في الدراسات على أساس من الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ، تطرأ مصطلحات جديدة لتعبّر عن خطوة أو نهج ، أو فكر أو عمل ، حسب مايتطلبه الواقع الذي ندرسه من خلال منهاج الله . وإننا لنرى مثل ذلك في جميع مراحل التاريخ

الإسلامي ، حين ينطلق علماء المسلمين والأئمة الأعلام في دراساتهم وأبحاثهم في ميادين مختلفة من الحياة ، يثرون التاريخ بزاد كريم من الفكر والمصطلح والنظريات .

ولا بد أن يستأنف المسلمون مسيرتهم في يقظة وإفاقة ، ونيّة وعزم ، وإرادة وتصميم ، وإيمان ويقين .

إنها مسؤولية المسلمين أنفسهم ، مسؤولية كلّ مسلم في الأرض ، ثمّ تشتد المسؤوليات كلما ارتفع مستوى المسلم ووسعه ، وكلما ارتفع مكانه ومركزه . وأشد الناس مسؤولية في الدنيا والآخرة الدعاةُ الذين قدّموا أنفسهم إلى الناس دعاةً ، وعاهدوا الله والناس على أن ينهضوا إلى ماأمرهم الله ، إلى بناء مدرسة الإسلام ، لتصنع الأجيال المؤمنة التي يريدها الله سبحانه وتعالى ، الأجيال المؤمنة التي تحمل الخصائص الإيمانيّة التي فصّلها الله في المنهاج الرباني ، الأجيال المؤمنة التي وعدها الله أن ينزل نصره عليها ، ويوفي بعهده لها إن هي صدقت وأوفت بعهدها مع الله .

هل المسلمون اليوم قادرون على بناء مدرسة الإسلام ومصنع الأجيال المؤمنة ؟

هل المسلمون اليوم قادرون على النهوض إلى الأمانة التي يحملونها ليوفوا بها ؟!

إن هذا كله يحتاج إلى قلوب أخلصت لله وعزائم اشتدت وقويت في طاعة الله ، وقدرات تضيء الطريق بالدراسات الإيمانية والجهود الصادقة !

إن النظريّة العامة للدعوة الإسلامية باب من أبواب هذه الدراسات المنهجيّة ، مع مايرافقها من دراسات تفصيلية لكل بند من بنودها ، وجزء من أجزائها .

إن النظرية العامّة للدعوة الإسلاميّة ، بخطوطها العامّة ، توجّه الجهود وتوضح الدرب . إنّها صورة من صور النهج والتخطيط الذي فقدناه طويلاً في حياتنا ، والذي لابدّ أن نستأنف النشاط به اليوم ، لننفي عن أنفسنا الارتجال وردود الفعل وضياع الجهود والأوقات ! .



الباب الرابع

المسؤوليّة الفردية

الفصل الأول

جوهر المسؤولية الفردية ومحورها والأُسس التي تقوم عليها

١ - «الأمانة» التي حملها الإنسان هي محور المسؤولية والحقوق والواجبات :

لماذا نطرح قضية المسؤولية الفردية اليوم ؟! نطرحها لأن صورتها اضطربت في أذهان الكثيرين تحت ضغط الأفكار المتناقضة الوافدة ، ولأن الملايين من المسلمين تخلّوا عن مسؤولياتهم الفردية وأصبحوا مرتعاً خصباً لأعداء الله . ولأن حقوق الإنسان التي تطالب بها هيئات كثيرة عزلت هذه الحقوق عن المسؤوليات . **والحقوق والمسؤوليات مترابطة** لايمكن فصل بعضها عن بعض إذا أردنا حياة متوازنة سليمة للإنسان ، فلا يستطيع الإنسان أن يوفي بمسؤولياته إذا جُرِّد من حقوقه ، ولايستطيع أن يستوفي حقوقه إذا أضاع مسؤولياته .

إن جميع حقوق الإنسان ومسؤولياته تنطلق من قاعدة رئيسة يقررها الإسلام ليميز بها الإنسان عن سائر مخلوقات الله . **تلك القاعدة هي أن الإنسان يحمل أمانة في هذه الحياة الدنيا** لايحملها غيره من المخلوقات :

﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً * ليعذّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾

[الأحزاب : ٧٢ ، ٧٣]

ونعتقد أن هذه «الأمانة » هي ممارسة منهاج الله في واقع حياة الإنسان على الأرض وحين يحمل الإنسان هذه « **الأمانة** » ويمضي بها في الحياة الدنيا يتوب الله عليه ويغفر له ،

(١) أحمد : الفتح الرباني : ١٨/ ١٤١

فهو من المؤمنين والمؤمنات . أما إذا ترك هذه «**الأمانة**» وتخلّى عنها فيكون ظلوماً جهولاً . إنه جاهل بعظمة هذه الأمانة ، ظالم لنفسه بتركها وظالم لغيره .

لذلك وهب الله الإنسان كل مايلزمه لحمل هذه الأمانة ، وتميّز ببعض ذلك عن سائر المخلوقات ، كما تميّز عنها «بالأمانة» التي يحملها . ومن أهم ذلك السمع والبصر والفؤاد ، لتكون المنافذ التي يستقبل بها آيات الله المبثوثة في الكون ، ويستقبل بلاغ الأنبياء والرسل ، ولتظلّ فطرته تتلقى النّور الفيّاض الذي يجلوها ، ويحافظ على توازنها ، فيعي الإنسان حقيقة الأمانة التي يحملها ، فيؤمن بها ويمضي للوفاء بها :

﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ماتشكرون﴾
[الملك : ٢٣]

وحين تتعطل هذه القوى عن أداء مهمتها ، وتنغلق هذه المنافذ ويتوقف استقبالها للنور من آيات الله ومن بلاغ الأنبياء ، يهبط الإنسان إلى درك الأنعام بل إلى أضلّ من ذلك ، في غفلة وضياع وظلام :

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعينٌ لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ أولئك هم الغافلون﴾
[الأعراف : ١٧٩]

وتمضي الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة توضح قضية الإنسان ومهمته في الحياة الدنيا ومسؤولياته فيها . وإذا تدبّرنا منهاج الله فإننا نجد أن منهاج الله عبَّر عن مهمة الإنسان ودوره في هذه الحياة الدنيا بأربعة ألفاظ ، كلٌّ منها يدلّ على نفس المهمة والدور والمسؤولية ، ولكن بظلال مختلفة . وهذه الألفاظ أو الكلمات هي : **العبادة ، الأمانة ، الخلافة ، العمارة** . ويُفصِّل منهاج الله المهمة كلها وظلالها .

ثم يؤكد منهاج الله أن هذه المهمة والمسؤولية وظلالها المختلفة التي تمدّها الكلمات الأربع ، يمضي بها الإنسان من خلال سنّة الابتلاء التي كتبها الله على الإنسان ، ليمحِّصه وهو أعلم به ، ولتقوم عليه الحجة يوم القيامة أو تقوم له .

ويؤكد منهاج الله أن هذه الأمانة والعبادة والخلافة والعمارة تتمثّل بتكاليف ربّانيّة مفصّلة بيّنها منهاج الله وبيّن أن هذه التكاليف تُمثِّل **الصراط المستقيم** الذي أمرنا الله باتباعه ، وأن هذه الصراط المستقيم هو سبيل الله ولاسبيل للمؤمنين سواه .

٢ - حقوق الإنسان منحة من الله ونعمة منه وليست منّة من البشر :(١)

فالإسلام ، وهو دين الله ورسالته إلى خلقه وعباده ، حمله الأنبياء والمرسلون الذين خُتموا بمحمد ﷺ ، وبلّغوه وبيّنوه ليعالجوا به مشكلات الإنسان على الأرض ، وليدعوا الناس إلى الحق من عند الله لينجوا من عذاب الله في الآخرة ، وليستقيموا على أمر الله فيسعدوا في الدنيا ويأمنوا ، ويقوم بينهم ميزان العدل والأمن والحرية ، ميزاناً أمينا لايقف عند الشعارات ، وليعيدوا إلى الإنسان حقوقه التي سلبها المجرمون في الأرض ، والتي شرعها الله رب العالمين .

يارسول الهدى حملت إلى النا ... س سلاماً يرعاه دينٌ وصيد
أنت أرجعتَ لابن آدم حقّاً ... كم أضاعته فتنة وجحودُ
وعتاةٌ بغوا على الناس حتى ... تاه في الدرب جائع وطريدُ
ياحقوق الإنسان ! هذا هو الحقُّ ! ... سواه فباطل مردود
إنها مِنحةٌ من الله حقٌّ ... لم تُشرِّعه عصبة وعبيدُ (٢)

* * * *

وحملت الأُمة المسلمة بعد النبوّة الخاتمة رسالة الله إلى عباده لتمضي بها في الأرض ممتدّة مع الزمن جهاداً ووفاءً بهذه الأمانة العظيمة .

وكان الإنسان وصلاحه ، حقوقه ومسؤولياته وواجباته ، لقاؤه وفراقه ، تعاونه

(١) يراجع كتاب : «المسلمون بين العَلمانيّة وحقوق الإنسان الوضعيّة ، للمؤلف : الباب الخامس : (ص : ٢٤١-٢٩٦) . وكتاب : «التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الإنتماء الصادق إلى الإسلام » للمؤلف : الباب الثالث .
(٢) من ملحمة الأقصى للمؤلف - (ط : ٢) .

وخصامه ، محور هذه الرسالة الربّانية العظيمة ، ليكون الإنسان عبداً صالحاً لله رب العالمين .

لايُعقل أن تكون حقوق الإنسان في الأرض ، في الحياة الدنيا ، منحة من إنسان أو هيئة أو سلطان ، أو ثمرة فلسفة بشرية يصوغها الإنسان من خلال ضعفه وجهله وكبره وغروره .

إن حقوق الإنسان نعمة من الله على الإنسان ، ومنحة منه له ، ورحمة من رب العالمين ، من الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى كلها ، شرعها الله للناس جميعاً ، على مختلف المستويات والقدرات والمواهب ، حتى لايتمايز الناس في ميزان الله بالأنساب والدم وأشباه ذلك ، ولكن يتمايزون بالوسع والموهبة والقدرات ، بالكفاءة والبذل والعطاء ، والتنافس في ميدان الحق والصلاح في سبيل الله ، حين يضمّ ذلك كله التقوى الجامعة في ميادين الحياة كلها ﴿**إن أكرمكم عند الله أتقاكم**﴾ [الحجرات : ١٣]

٣ - الحق الأول للإنسان : حماية فطرته ، وهو الحق الذي أهملته النظم البشرية : [١]

لقد كان من أهم ماعالجته رسالة الإسلام أخطر قضية في حقوق الإنسان ، وأول حق من حقوقه . إنه ذلك الحق الذي أهملته شرائع الناس ، وأهملته لجان حقوق الإنسان وجمعياتها وهيئاتها ، وقتلته وأخفته في طيّات الشعارات والزخارف ، ودويّ الفتنة والفساد .

إن هذا الحق الأول للإنسان هو حماية فطرته التي فطره الله عليها ، والتي أودعها برحمته الإيمان والتوحيد ، وسائر الطاقات والميول ، لتعمل هذه الطاقات متصلة بالإيمان والتوحيد مرويّة من نبعه الغنيّ ، وليكون عمل الإنسان بعد ذلك عملاً صالحاً . أما إذا انعزل العمل عن هذا النبع أو جفّ النبع فلم يرْوه فيكون العمل فتنة وفساداً .

لذلك نرى أن الفلسفات التي أقامت نظمها في مختلف أنحاء الأرض ، لم تولِ

---

(١) يراجع كتاب : «المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعية » الباب الخامس - الفصل الخامس من أجل تفصيلات موسّعة عن هذا الحق الأكبر للإنسان . وكذلك كتاب « التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الاسلام » للمؤلف : الباب الثالث - الفصل الرابع .

قضية حماية فطرة الإنسان التي فطره الله عليها عناية ، ولم تحرص على توفير الجو الذي يحتضنها . بل على العكس من ذلك شوّهت الفطرة وآذتها وأفسدتها حين قطعت عنها ريَّ الإيمان والتوحيد ، وأحاطتها بالفتنة والفجور ، وألهبتها بالشهوات والأهواء ، وخدرتها بالسكر والخمور . أو أفسدتها بالرعب والإذلال ، والخنق والأغلال ، حتى انحرف السلوك ، وتاهت الكلمة أو اختفت .

إن هذا الحق الأول للإنسان هام وضروريّ . فمن خلاله يستطيع الإنسان أن يجابه الخطر لينجيه الله بفضله ورحمته وعونه ، فأمام كل إنسان خطران حقيقيان لا وهم فيهما ولايمكن أن يتجاهلهما إلا غاف أو تائه . هذان الخطران هما :

الأول : فتنة الدنيا بزينتها وزخرفها ، ومصائبها وما سنّة الله فيها من ابتلاء حقٌّ للإنسان .

الثاني : بعد النزول إلى القبر والدخول في عالم الغيب وحيداً منفرداً ، ليلقى حالاً جديداً ، وليلقى بعد ذلك البعث والحساب ، فإما إلى جنة وإما إلى نار .

سلامة الفطرة وحمايتها هي الباب الأول للنجاة في الدنيا والآخرة . فهي السلاح الأول في الحياة الدنيا أمام الفتنة ، وهي المنفذ والدرب إلى الخير والصلاح ، والنور واليقين . وبذلك تصبح هي الحق الأول للإنسان ، وواجب القوى كلها أن توفّر هذه الحماية لها : إنها واجب الوالدين أولاً والأسرة وأجواء البيت ، وواجب المعاهد والمؤسسات ، وواجب الإعلام ، وواجب العلماء والدعاة وأولي الأمر ، وواجب اللجان والهيئات القومية والدولية ، وواجب القوى كلها أن توفّر « الحضانة» الطاهرة الأمينة للفطرة ، وواجب الدعوة الإسلامية .

إن حماية الفطرة ورعايتها لتوفير سلامتها تمثل القاعدة الأولى التي تقوم عليها نظرية التربية الإيمانية ، في تربية الأطفال ورعايتهم وحمايتهم ، وتربية الفتيان والفتيات والشباب والشابات ، وبناء الأجيال المؤمنة الصالحة الطاهرة في الأرض رجالاً ونساء .

إنها محور التربية الإيمانية الإسلامية ومدارها : ولا بد أن تثبت هذه الحقيقة الهامة في

قلوب الدعاة والعلماء والحركات الإسلامية ، وفي المعاهد وكل من يلي أمراً من أمور التربية والبناء للأطفال خاصة وللأجيال كلها عامة في الساحة الإسلامية ، فكلهم محاسبون يوم القيامة عن ذلك بين يدي العزيز الجبّار .

هذه هي القضية الأولى التي تقوم عليها سائر حقوق الإنسان ، وتنطلق منها ، وتبنى عليها المسؤوليات كلها من حقوق وواجبات . فإذا سلمت الفطرة واستقامت على أمر الله نجا الإنسان والمجتمع والأمة ، وتوازنت الحقوق والواجبات ، وأصبح الإنسان قادراً على استقبال رسالة الله ، ووعي مسؤولياته وتكاليفه وحقوقه كما شرعها الله لعباده في أمرهم كله .

٤ - الأسس التي تحدّد بها مسؤوليات المسلم : واجباته وحقوقه :

تتحدَّدُ مسؤولية المسلم في واقع الحياة الدنيا على أسس أربعة ، تتوازن من خلالها الحقوق والواجبات :

أ – **المنهاج الربّاني** : فالمنهاج الرباني يحدّد التكاليف الربانيّة من تفكير وتدبر ، واتخاذ قرار ، وإيمان وتوحيد والشهادتين وأداء للشعائر وتدبُّر لمنهاج الله والدعوة إلى الله ورسوله ، وغير ذلك من تكاليف مفصّلة يحاسب عليها المسلم يوم القيامة ، مما لايمكن تفصيله وعرضه هنا . وهذه التكاليف منها فرائض ، على كل مسلم أن يقوم بها إلا من كان له عذر شرعيّ ، كالمرض الذي يمنع عن الجهاد في سبيل الله ، ومنها مايتحدّد على ضوء الأساس الثاني والثالث لتحديد المسؤوليات والحقوق والواجبات . والمنهاج الربانيّ هو الركن الأول في النظرية العامة .

ب – **الوسع** : إن التكاليف الربانية هي في حدود وسع الإنسان عامة . ولكن يضيق الوسع أحياناً في بعض الناس فيأتي من بعض التكاليف من غير الفرائض مايطيق ويقوى عليه ، وتتوالى الآيات والأحاديث في المنهاج الرباني لتبيّن هذه القاعدة الهامة وهي الوسع الصادق للإنسان ، الوسع الذي وهبه الله له ، والذي سيحاسبه عليه يوم القيامة . ونكتفي هنا بذكر آية وحديث ، ليعود المسلم إلى منهاج الله فيأخذ الصورة بتكاملها :

﴿ ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون ﴾
[المؤمنون : ٦٢]

نعم ! لايُظلم أحد أبداً . فالله أعلم بوسع كل إنسان ، وأعلم بما وضع عليه من تكاليف يحاسب عليها ، وأعلم بما عمل ، وبأي نيّة بذل وعمل ، وعلى أي نهج سار .

وعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ أنه قال : « **إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه مااستطعتم وإذا نهيتكم عنه فاجتنبوه** » [رواه الشيخان] (١)

والذي نودّ أن نؤكده هنا ماسبق شرحه حول قضية الوسع في كتب أُخرى من كتاب الدعوة ، ألا وهي قضية الوسع الصادق والوسع الكاذب . فالوسع الصادق هو الوسع الذي وهبه الله للإنسان والذي سيحاسبه عليه . وأما الوسع الكاذب فهو الذي يدّعيه الإنسان لنفسه ليسوّغ تقصيره وعدم قيامه ببعض التكاليف الربانية دون عذر شرعي مقبول . ولقد فصلنا في هذا الموضوع في كتاب : «النظرية العامة للدعوة الإسلامية نهج الدعوة وخطة التربية والبناء » .

ج - **النظام الإداري والخطة والنهج** : الذي تضعه الطاقة البشرية المؤمنة على أساس من المنهاج الربّاني والواقع ، والذي يبين تحديد الصلاحيات والمسؤوليات في كل مستوى إداريّ في الأمة . ويستمد هذا الأساس شرعيته من أنه قائم فعلاً على منهاج الله ، نابع منه ، مرتبط به ، خاضع له ، ومن أنه مع هذه الخصائص يلبي حاجة الواقع للمؤمنين .

ففي هذا النظام الإداري ، أو الخطة والنهج ، يجب أن تتحدّد بشكل واضح صلاحيات كل مستوى ومسؤولياته ، وأن تتحدّد أشكال المراقبة والإشراف والتوجيه والمتابعة . ويدخل في ذلك التكاليف أو التعليمات الصادرة في أي مستوى من مستويات

(١) تفسير ابن كثير لسورة الحشر ، حيث جاء قوله : وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « الحديث أعلاه » مجلد (٤) طبعة دار المعرفة ببروت - [ص : ٣٣٦] .

النظام الإداري ، التي تكون نابعة من الأسس الثلاثة السابقة ، مرتبطة بها خاضعة لها بصورة جلية .

د – **الواقع** : والواقع هو الركن الثاني في « النظرية العامة للدعوة الإسلامية » وهو يؤثر كثيراً في مفهوم الوسع ، وفي النظام الإداري والخطة والنهج ، والتعليمات والتكاليف الصادرة عن ذلك ، ويساهم هذا الركن في تحديد المسؤوليات والحقوق والواجبات بصورة متوازنة عندما يدرس الواقع ويفهم من خلال المنهاج الرباني .

إنَّ الأُسس الثلاثة الأخيرة يجب أن تكون مرتبطة بالمنهاج الرباني نابعة منه خاضعة له ، حتى تتوافر الموازنة الأمينة بين الحقوق والواجبات . وبمقدار ماتصدق الطاقة البشرية في إيمانها وعلمها وخبرتها يصدق النظام الإداري والنهج والخطة والتعليمات ، ويصدق النمو والتطور في الجهد البشري في ساحة الإيمان والتوحيد .

الفصل الثاني
المسؤوليات والتكاليف الرّبانية على الإنسان

١ - المسؤولية الأولى والتكليف الأوّل على الإنسان التفكير المنهجي الذي يقود إلى الإيمان :

إن أول المسؤوليات والتكاليف التي عليه من الله هي التفكير والتأمُّل والتدبُّر حتى يؤمن . فإذا كانت «**حماية الفطرة التي فطر الله الناس عليها**» هي الحق الأول والأخطر للإنسان ، فإن أول واجب عليه وأول تكليف ربّاني أن يفكر ويتأمل ويتدبّر وأن ينظر في نفسه وفي السموات والأرض وفي مسيرة التاريخ ، استجابة للفطرة التي فطره الله عليها . وقد وفَّر الله سبحانه وتعالى للإنسان جميع وسائل التفكير الإيماني المنهجي . وفّر له السمع والبصر والفؤاد ، ووهب له الفطرة السوية السليمة ، وبثَّ آياته في الكون كله ، وبعث الأنبياء والرسل حتى لايكون للناس على الله حجّة بعد الرسل . إن هذا التكليف الأول للإنسان بالتفكير والتأمل والتدبر تفكيراً هادفاً يؤدي بصاحبه إلى الإيمان والتوحيد :

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثمَّ تتفكّروا مابصاحبكم من جنّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ [سبأ : ٤٦]

وكذلك :

﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١]

هذه هي المسؤولية الأولى : «**أن تقوموا لله . .** » استجابة للفطرة ثم تتفكروا وتنظروا ، ثم تستمعوا إلى دعوة الرسل الذين ختموا بمحمد ﷺ .

وكذلك :

﴿ وفي الأرض آيـاتٌ للمـوقنين . وفي أنفسكم أفـلا تبصرون . وفي السماء رزقكم ومـا توعـدون . فورب السماء والأرض إنـه لحق مثل ماأنكم تنطقـون ﴾
[الذاريات : ٢٠-٢٣]

وكذلك :

﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾
[يونس : ١٠١]

وكذلك :

﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ [الحج : ٤٦]

وضرب الله لنـا أمثلـة كثيرة ونماذج من منهج التفكير الإيماني . فهـذا إبـراهيم عليـه السلام ينظر في ملكوت السموات والأرض يتأمل ويتفكر استجابة للفطرة السليمة :

﴿ وكـذلك نري إبـراهيم ملكـوت السموات والأرض وليكـون من الموقنين * فلمّا جنّ عليـه الليل رأى كوكباً قـال هذا ربي فلمّا أفل قـال لا أحبُّ الآفلين * فلمّا رأى القمر بـازغاً قال هـذا ربي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكـونَنَّ من القوم الضـالين * فلمّا رأى الشمس بـازغة قـال هذا ربي هـذا أكبر فلمّا أفلت قال يـاقوم إني بريء مما تشركون * إني وجّهت وجهي للـذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام : ٧٥-٧٩]

هكذا نظـر إبراهيم عليه السـلام في ملكوت السمـوات والأرض ، يتأمل ويتفكر في صفاء وصدق . ويضرب لنا القرآن الكـريم نماذج من وقفات إبراهيم عليه السلام ، ومن نظره وتأمّلـه وتدبّـره في ملكوت السمـوات والأرض ، وكيف كان نهج تفكيره نهجـاً إيمانياً انتهى به إلى القرار ، إلى إعلان إيمانه .

ويضرب لنا القرآن الكريم مثلاً آخر بمؤمن آل فرعون في سورة غافر وهو يواجه موقفاً خطيراً حين دعا موسى عليه السلام فرعون إلى الإيمان ، ومال فرعون إلى قتل موسى عليه السلام . فتصدى رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون يكتم إيمانه ليدافع عن موسى عليه السلام ويدعو قومه إلى الإيمان : **﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم إن الله لايهدي من هو مسرف كذاب * ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾**

[غافر : ٢٨ ، ٢٩]

ثم يعرض هذا الرجل المؤمن نهج تفكيره والأسس التي يقوم عليها نابعة من الفطرة السليمة :

﴿ وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد * ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار . من عمل سيئة فلا يُجزَى إلا مثلها ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأؤلئك يدخلون الجنّة يرزقون فيها بغير حساب * وياقوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار * تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ماليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار * لاجرَم أنّما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردّنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار * فستذكرون ماأقول لكم وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾ [غافر : ٣٨-٤٤]

وفي الحوار بين الرسل وأقوامهم نماذج من التفكير الإيمانيّ لدى الرسل ومن تبعهم ، ونماذج من التفكير المضطرب لدى الكافرين . وفي حياة الصحابة رضي الله عنهم نماذج أخرى . فسلمان الفارسي رضي الله عنه طوّف في الأرض يبحث عن الحق . يستمع إلى هذا وذاك ، ويفكر ويتأمل ويتدبّر ، حتى جاء المدينة ورأى الرسول ﷺ فهداه الله .

ونجد في الكتاب والسنة الإلحاح على الإنسان بالتفكير وبالتأمل والتدبّر .

وهذه المسؤولية ممتدّة مع الإنسان لاتتوقف حتى يوارى في قبره . ويظل الإنسان يتحمل مسؤوليّة تفكيره ، ومسؤولية مايصاحب التفكير من نيّة وعزيمة .

إن منهج التفكير الإيماني يتميّز أولاً بالنيّة الصادقة عند الإنسان والعزيمة الأكيدة للبحث عن الحق ، فلايعصف به الهوى ولا تجرفه المصالح ولا ينحرف عن النهج السليم .

ويتميّز كذلك بأنه نابع من الفطرة السليمة قبل أن تتشوّه ، مرتبط بها وبالقوى العاملة فيها ارتباط توازن وعدالة .

٢ - المسؤوليّة الثانية أن يتخذ قراراً ويتحمّل مسؤولية قراره :

هذه هي المسؤوليّة الثانية على الإنسان ، وهي مرتبطة بالمسؤولية الأولى : مسؤوليّة التفكير والتأمل والتدبر . فعلى الإنسان أن يتخذ قراراً نتيجة لتفكيره وتأمله : هل يؤمن أم يكفر ؟ فإن اتخذ قراراً بالإيمان والتوحيد ، فذلك استجابة لفطرته السليمة التي فطره الله عليها وغرس فيها الإيمان والتوحيد ، وذلك بهداية الله له . وإن كان غير ذلك فهو استجابة لفطرة غير سليمة ولاسويّة ، واستجابة لهوى ضالٍّ سيطر على فكره وقلبه فأضلّه الله بما كسبت يداه . والله يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاء على حكمة بالغة وقضاء نافذ وقدر غالب . والله يقضي بالحق فلا يظلم أبداً . فقضاؤه حقٌّ فيمن فكر واهتدى ، وقضاؤه حقٌّ فيمن ضل وكفر . وكان من قضاء الله وقدره أن يتحمّل الإنسان نتيجة قراره :

﴿ وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً * أولئك لهم جناتٌ تجري من تحتهم الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ [الكهف : ٢٩-٣١]

نعم ! هذه هي سنّة الله التي سنّها لعباده ، والتكليف الذي قضى به . إنه : **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. ﴾** !

إنها مسؤولية اتخاذ القرار بعد التفكّر والتدبر . ثم يأتي بعد ذلك مسؤولية تحمّل نتيجة القرار الذي يتخذه . فالمؤمن نتيجة قراره الجنّة في الآخرة وعون الله في الدنيا . والكافر نتيجته جهنم ، نارٌ يحيط بهم سرادقها في عذاب دائم .

من مسؤوليات المؤمنين ، كما سنذكر بعد قليل ، أن يبلّغوا الناس رسالة الله كما بلغها محمد ﷺ « وقل الحقُّ من ربكم » والناس يستمعون إلى هذه الدعوة ويُفكّرون ، ويتخذ كل إنسان قراره ويتحمل مسؤولية قراره . فلا إكراه في الدين – يجب أن يكون الإيمان ذاتياً ، نابعاً من فطرة الإنسان وقناعته ، متحملاً مسؤولية ذلك :

﴿ لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليهم * الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾
[البقرة : ٢٥٦ , ٢٥٧]

يجب أن يكون الإيمان نابعاً من أعماق الإنسان ، فلا يفيد المكر والخداع والنفاق ، فإن الله مطّلع على مافي القلوب وما ضمته الصدور .

﴿ لله مافي السموات وما في الأرض و إن تبدوا مافي أنفسكم أو تخفوه يُحاسبْكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾
[البقرة : ٢٨٤]

﴿ قل إن تخفوا مافي صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم مافي السموات ومافي الأرض والله على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران : ٢٩]

لكل قرار يتخذه الإنسان نتيجة ومصير ، ونهاية ومآل ، لاحجة للإنسان بعد ذلك

أبداً ، حين يأتيه الموت ، وينكشف الغطاء ، ويرى الحق الذي دعي إليه فأنكره وكفر به .

﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾

[المؤمنون : ٩٩، ١٠٠]

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولا نكذّب بآيات ربّنا ونكون من المؤمنين ﴾ [الأنعام : ٢٧]

هنا تطوى الفلسفات التي اغترّ بها هؤلاء فأهلكتهم . فرحوا بها في الحياة الدنيا حتى انكشف أمرهم وقامت عليهم الحجة وحقت عليهم كلمة ربّك أنهم أصبحوا بفسقهم أصحاب النار .

٣ - المسؤوليّة الثالثة للإنسان المؤمن :

إذا فكّر الإنسان وتأمل وتدبّر ، فاهتدى وآمن واتخذ قراره بذلك ، فتصبح مسؤوليّته بعد ذلك أن يعلن إيمانه وذلك بالشهادتين يعلنهما واضحتين صريحتين :

« أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّداً رسول الله »

يعلنهما المؤمن مدوّيتين في أعماقِ الزمان وفي أعماق الإنسان وفي آفاق الكون ، ليكون الإيمان عملاً جلياً مشرقاً لايعتوره لبس ولاغموض . ويستثنىٰ من ذلك طبعاً الحالات الخاصة التي قد يأذن فيها الإسلام بكتمان الإيمان فترة لاتدوم .

يجب أن يعلن المؤمن هاتين الشهادتين لتكونا العلامة التي يعرفه الناس بها ، والسمة البارزة فيه ، وليشهدوا عليه بها في الدنيا والآخرة .

إن اللحظة التي يعلن فيها المؤمن إيمانه لحظة فريدة في حياته وفي مسيرة الإنسان ، إنها تمثل النُّقلة الواسعة الهائلة في حياته ، حين ينتقل بها من الجاهلية إلى الإيمان ، ومن الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد والأوثان والشهوات إلى عبادة الله الذي لاإله الا هو .

هذه اللحظة تتميّز بهذه النقلة العظيمة الهائلة ، النقلة التي يرتبط بها المؤمن بربه وخالقه الله ، وتتعلّق أنظاره بالجنّة ، ويتغيّر مابنفسه من تصوّرات وآمال ورغاب . هذه النقلة لايعرفها إلا المؤمن الذي صدق إيمانه ، كما عرفها أصحاب رسول الله ﷺ وهم يعلنون إيمانهم بالله ورسوله ، بالشهادتين ، يعلنونها مدوّية في آفاق مكة والكعبة ، لتسمعها الدنيا ، ولتمضي بها مواكب الإيمان صادقة على صراط مستقيم ، على درب ممتدٌ إلى الجنة والدار الآخرة ورضوان الله .

هذه اللحظة الفاصلة في حياة المؤمن الصادق ، لاتكون فاصلة في حياة الذي نطق لسانه وما آمن قلبه . إن المنافق يحسب أنه قادر على أن يخدع الله وأنّىٰ له ذلك . إنها لحظة آنيّة ، ولنسُمّ الإسلام حينئذ إسلاماً آنياً ، لانملك نحن المسلمين المؤمنين إلا أن نقبل هذا الإعلان وهذا الإسلام «الآنيّ» . ولانملك نحن البشر أن نتّهم من نطق بالشهادتين أنه كاذبٌ لحظة نطقه بهما . فالله وحده يعلم مافي نفسه وصدره . ولكننا في الوقت نفسه نملك أن نطالبه بالوفاء بحقوق الشهادتين وشروط الإيمان . نطالبه بالوفاء بذلك في الدنيا . فإن قام بذلك كان أمره إلى الله وحسابه عند الله ، ويظلّ المؤمن مع المؤمن يُذكّر ويعين وينصح ، ويمضي المؤمنون على الوفاء بحق الشهادتين .

أما إذا نطق بالشهادتين واكتفى بهما وأبى أن يؤدّي الشعائر وأن ينهض إلى التكاليف الربانية ، فلا نملك أن نُقرَّه على ذلك ، فنذكّره وننصحه ، فإن أبى وأصرّ على عدم الوفاء بحق الشهادتين، فلا نملك أن نحكم له بالإسلام ولا با لإيمان ، وتطبقُ عليه أحكام الإسلام وشريعته وحسابه عند الله .

إن حكمنا عليه حكم في الدنيا ، لأننا مكلفون أن نطبّق شرع الله على ظاهر مانرى والله أعلم بالسرائر . والله يحكم بين عباده يوم القيامة ويفصل بينهم فيغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء .

إن إعلان الشهادتين إعلاناً جلياً أمر في غاية الأهمية في حياة المؤمنين . فعلى أساس هذا الإعلان نستطيع أن نحاسب ونطبق على من يعلن ذلك أحكام الإسلام وشرع الله ، ونطالبه بالوفاء بما نطق وأعلن .

إن بعض النـاس يَتـوهَّمون أَنهم تكفيهـم الشهـادتـان ليصبحـوا مسلمين ، دون أن يُطالَبُوا بـالوفاء بحقوق الشهادتين والتـزام قواعد الإيمان والتوحيـد . إن هذا وهمٌ قاتل . فـالإسـلام لا يأذن للمسلمين أن يُقِرّوا أحـداً على تـرك الشعـائر والتخلّف عـن سـائر التكاليف الـرّبانيَّة التي تـؤلّف كلها درباً ممتـداً إلى الجنّة . فمن توقَّف عنـد الشهادتين ولم يمض على الـدرب فأنى لـه أن يبلغ الجنّـة . ولكننـا تظل نقـول إننـا نطبق عليـه شرع الله وحكمه في تخلفه وعدم وفائه في الدنيا ، وحسابه يوم القيامة عند الله .

إن من أهم أسباب هـذا الوهم لدى بعض الناس أنهم يأخـذون جزءاً من الإسلام ، آية أو حديثاً ، يعزلونه عن سائر الآيـات والأحاديث ، ثمّ يبنون عليه فقهاً مريضاً . ومن الأسباب لهذا الوهم ابتعاد الناس عن الكتاب والسنـة ، وأَخْذُ الدين كلمة من هنا وكلمة من هناك ، دون أن تكوّن هذه الكلمات علماً حقّاً . ثمّ إنها وسوسة شياطين الجن والإنس ، وتسلل أفكار المنـافقين والمشركين والكافرين إلى قلـب المجتمعات الإسلاميّـة ، ابتلاءً من الله سبحانـه وتعالى ليمحّص عباده ولتقـوم لهم الحجّة أو عليهم ، وليُفتن المنـافق وينجو المؤمن الصادق .

إن المؤمن ، حين يعلن الشهادتين بصـدق وإخلاص ، فإنـه يعلن للدنيـا كلها أن ولاءه الأول لله ، وأن عهده الأول مع الله ، وأن حبّـه الأكبر هو لله ولرسوله ، وأنـه من هذا الـولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر ينشأ كل ولاء وعهـد وحب في الـدنيا . إنـه يعلن بهاتين الشهـادتين أن روابطه وعـلاقـاته مع النـاس جميعـاً روابط إيمانيّـة يصوغهـا الإيمان والتوحيد ، وأنّه يحبُّ في الله ويبغض في الله .

وبهاتين الشهـادتين يعلم المؤمن أن الإيمان والتـوحيد مفـاصلـة وحسم ، وتكـاليف والتـزام ، ومسؤوليـة وحساب ، وأن ذلك كلّـه مفصل في منهـاج الله - قرآنـاً وسنة ولغـة عربيّة .

وبهاتين الشهادتين تنعقد في قلبـه النيّة الخالصة لله ، النيّة التي تظل مصـاحبة له في

مسيرته كلها ، النيّـة التي تعني أولا الإخلاص لله سبحانه وتعالى ، وثانيـا أنها عزيمة على المضيّ على صراط مستقيم .

وبهاتين الشهـادتين ، وبهذه النيّة ، وبهذا التصـوّر لقضيّة الإيمان والتـوحيد ، يبـدأ الجهاد في سبيل الله ، جهـاداً في نفسه حتى تستقيم على أمر الله . جهـاداً يظل ممتداً حتى يلقى الله سبحانه وتعالى :

﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنيّ عن العالمين** ﴾ [العنكبوت : ٦]

﴿ **وجاهدوا في الله حقَّ جهاده ..** ﴾ [الحج : ٧٨]

عن فضالـة بن عبيد عن الرسـول ﷺ قال : « **المجاهد من جـاهد نفسه في الله** » [رواه الترمذي وابن حبان] [١]

وبهاتين الشهاديتن وبهذه النيّـة يظل يذكر الله قـائماً وقاعـداً وعلى جنبه ، حتى يظل لسانه رطباً بذكر الله .

وبهاتين الشهادتين ، وبـالنيّة الصـادقة ، وبمجـاهدة النفـس ، وبذكـر الله الممتد ينهض المؤمن ليوفي بالأمانـة ، والعهد ، وحق الخلافة في الأرض ، وعمارة الأرض بحضارة الإيمان . إنه ينهض من أجل ذلك إلى سائر التكاليف الربانيّـة ، لتكون حياته كلها عبادة لله ، كما أمر الله . ينهض المؤمن ليمارس منهـاج الله في الواقع البشريّ ممارسة إيمانيـة تدفع إلى العمل الصالح .

٤ - المسؤولية الرابعة : أداء الشعائر كلها والوفاء بها :

أن أول الممارسـة الإيمانيّـة بعـد الشهـادتين هي القيام بـالشعـائر كلهـا : الصيـام ، والصلاة ، والزكاة ، والحج لمن استطاع إليه سبيلاً .

وهذه الشعائر مع الشهادتين جعلها الله أركانـاً خمسة للإسلام ، وأسساً راسخة يقوم

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - (رقم : ٦٦٧٩) .

عليها بناء الإسلام بالتكاليف الربانيّة . إن جميع التكاليف الربّانيّة الأُخرى لاتصح ولاتقبل إلا إذا أوفى المسلم بالأركان الخمسة ، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ :

فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن الرسول ﷺ قال « **بُنيَ الإسلام على خمس : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان** » [رواه الخمسة] (١)

إن الله سبحانه وتعالى غنيّ عن العالمين . فهذه الأركان الخمسة : الشهادتان والشعائر التي فرضها الله ، هي حاجة الإنسان نفسه ، هي غذاؤه الذي يمده بالقوة والعزيمة ، والحماية والقدرة على المضيّ على صراط مستقيم . هي التي تدفعه لينهض إلى سائر التكاليف الربانيّة ، ليوفي بحق الأمانة التي حملها والعبادة التي خُلق من أجلها ، والخلافة التي جُعلت له ، والعمارة التي أُمر بها .

إن الوفاء بجميع التكاليف الربانيّة عبادة لله . وإنها تمضي كلها متماسكة مترابطة لتمثل الصراط المستقيم بتماسكها واستقامتها على نهج ربّاني متكامل .

إن أداء الشعائر بحقّها هو جزء من العبادة لله سبحانه وتعالى ، والوفاء بالتكاليف الأخرى عبادة أيضاً ، وعمل المؤمن كله إذا صدقت النيّة على صراط مستقيم عبادة خالصة لله . والله الذي فرض الشعائر هو الذي فرض سائر التكاليف .

إن الشهادتين وأداء الشعائر تصل المسؤوليات والتكاليف وتدفع المؤمن للمضيّ ، وتربط العمل كله بالدار الآخرة .

إن كثيراً من المسلمين اليوم يؤدون الشعائر وينطقون بالشهادتين ، ولكنهم يفصلون بين هذه الأركان الخمسة وبين سائر ممارستهم في واقع الحياة . فقد تجد الرجل المنتسب إلى الإسلام ، بالرغم من صلاته وصيامه ، يفكر بمنهج علماني يفصل الدنيا عن الآخرة ،

---

(١) أحمد : ١/ ٧٩ ، البخاري : ٢/ ١/ ١ ، مسلم : ١/ ٥/ ٢٠ ، الترمذي : ٤١/ ٣/ ٢٦١٢ النسائي : ٤٧/ ٣/ ٥٠٠١ ، صحيح الجامع الصغير وزيادته (ط : ٣) (رقم : ٢٨٤٠) .

ويفصل بين التكاليف الربانيّة ، فيؤدّي مايشاء ويعطل مايشاء . وقد تجد مثل هذا الرجل يقف في صف من يحارب الله ورسوله ، ويدعو بدعوة غير دعوة الإسلام .

فلا بد أن نعيد ونؤكد أن الأركان الخمسة فرض فرضه الله ، وأن هنالك فرائض أخرى فرضها الله سبحانه وتعالى ، لايجوز تعطيلها أو فصل بعضها عن بعض . وأن الأركان الخمسة ، إذا أُدِّيت بحقّها ، فإنها تدفع المؤمن إلى سائر التكاليف وتحميه من أن يتوقف في الطريق أو يتراجع أو ينحرف .

٥ - المسؤولية الخامسة : طلب العلم ودراسة منهاج الله وتدبّره :

وكما ذكرنا قبل قليل ، فإن الوفاء بالأركان الخمسة يدفع المؤمن دفعاً إلى أن يُقبل على منهاج الله دراسة وتدبّراً وحفظاً على قدر وسعه الصادق الذي سيحاسبه الله عليه ، لا على قدر الوسع الكاذب الذي يدّعيه تحت ستار من الأعذار .

إنه يُقبل إقبال شوق ويقين ، وتدبّر وفهم ، والتزام صادق وممارسة إيمانيّة ، صحبة عمر وحياة ، صحبة منهجيّة ، لاتتوقّف أبداً .

إنه يستعين من أجل ذلك بإمكانات المجتمع التي تعينه ولاتفتنه ولا تحرفه ولاتثبّطه .

إن دراسة منهاج الله وتدبره طلباً للعلم الحق هو فرض فرضه الله سبحانه وتعالى ، وبلّغنا إياه رسوله محمد ﷺ :

فعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال «**طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم ، وإن طالب العلم يستغفر له كل شيء حتى حيتان البحر** » [رواه ابن عبد البرّ وغيره] (١)

إنه تكليف من عند الله قائم على الأركان الخمسة مرتبط بها ، ممتدّ إلى مايليه من التكاليف الربانيّة ، لتتصل التكاليف وتمتدّ على صراط مستقيم . وإن دراسة منهاج الله تغذّي عمل الأركان الخمسة وتشدُّ العزيمة للنهوض إلى سائر التكاليف الربانيّة ، إنها تغذي

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - (رقم : ٣٩١٤)

إيمانه الذي انطلق منه وتغذّي خشوعه في أداء الشعائر ، ويظل التأثير متبادلاً : الإيمان والشعائر تدفع إلى دراسة منهاج الله ، ودراسة منهاج الله تغذّي الإيمان والتوحيد وصدق النيّة وإخلاصها لله ، حين يعرف المسلم من منهاج الله دربه كله ، والصراط المستقيم ، والأهداف الربانيّة الثابتة التي عليه أن يبلغها . إن النيّة وعي لما يقبل عليه المسلم وعزيمة على الوفاء به . ومنهاج الله يوفّر هذا ويغذّيه في قلب المؤمن الصادق . إن المسلم يعرف من منهاج الله التكاليف الربانيّة التي فرضها الله عليه ، والتي سيحاسَب عليها :

﴿ نحن أعلم بما يقولون وماأنت عليهم بجبّار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾
[ق : ٤٥]

نعم ! هذا هو أمر الله : **﴿.. فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد .. ﴾** ، ففي القرآن الكريم يجد المسلم التكاليف التي سيحاسب عليها يوم القيامة ، يوم الوعيد . وكيف يُعقَل أن يجعل الله مصير الإنسان إلى جنة أو إلى نار ، ثم لايبيّن لعباده بجلاء سبيل كل منها ؟! لا يُعقل أبداً ، فقد بيّن الله ذلك بالتفصيل :

﴿ كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾ [فصلت : ٣]

ويؤكد القرآن الكريم أهميّة هذه العودة لمنهاج الله ويلحُّ عليها ويأمر بها ، حتى لايبقى حجة ولا عذر لمتهاون أبداً :

﴿ المص * كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلاً ماتذكرون ﴾
[الأعراف : ١ -٢]

وجاءت السنّة النبوية لتؤكد هذه الحقيقة الكبيرة والمسؤولية الخطيرة : فعن أبي هريرة رضي الله أن رسول الله ﷺ قال : **« تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما ، كتاب الله وسنتي ، ولن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض »** [رواه الحاكم في مستدركه] [1]

(١) مالك : الموطأ : (رقم : ١٦١٩) - صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣)(رقم : ٢٩٣٧) - تخريج المشاكاة للألباني : (١٨٦)

إن هذه العودة إلى منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية - يجب أن تكون عودة منهجيّة يدفعها الإيمان والتوحيد ، يقبل عليها الإنسان المؤمن بشوق وخشوع . ويجب أن تخضع لشروط ونهج وخطة حتى تحقّق هذه العودة الكريمة هدفها . ويمكن أن نوجز معالم النهج والخُطة بنقاط سريعة نجد تفصيلاتها في كتاب : «دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية» ، وكتاب « منهج المؤمن بين العلم والتطبيق » . أهم هذه النقاط مايلي :

أ - أن يصاحب المسلم منهاج الله مصاحبة عمر وحياة ، صحبة لاتتوقف ، صحبة منهجيّة .

ب - أن يأخذ كل مسلم من هذه الصحبة قدر وسعه الذي سيحاسبه الله عليه ، قدر وسعه الذي وهبه الله له ، تدبُّراً وممارسة .

ج - أن يرافق هذه الصحبة دراسة اللغة العربيّة دراسة منهجيّة جادة .

د - أن يرافق هذه الصحبة دراسة الواقع ، لأن منهاج الله أنزل من عند الله ليمارس في واقع الحياة الدنيا ، على أن تكون دراسة الواقع أيضاً دراسة منهجيّة من خلال منهاج الله .

هـ - على الدعوة الاسلامية أن تضع تفصيلات هذه العودة إلى منهاج الله كما أشرنا أعلاه .

و - أن يكون التدريب على ممارسة منهاج الله في الواقع جزءاً رئيساً من منهج الدعوة وخطتها ، وأن يكون للتدريب نظريته ونهجه وخطته . وتكون الشهادتان والشعائر وذكر الله أول الممارسة الإيمانية والمسؤوليات عندئذٍ . ونجد تفصيلات نظرية التدريب ومناهجه ونماذجه ودراساته في كتب الدعوة . ولكن يقف أمام العودة إلى منهاج الله عقبات كثيرة .

فهذه المسؤولية الخامسة التي يجب على المسلم أن ينهض إليها بعزيمة وقوة يقف أمام الوفاء بها عقبات كثيرة ، إنها ، عقبات تراكمت مع التاريخ الطويل ، حتى هجر كثير من المسلمين منهاج الله وانقطعوا عنه :

﴿ وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ [الفرقان : ٣٠]

ومن خلال نظرة عاجلة لواقع العالم الإسلامي ، وواقع من ينتسبون فيه إلى الإسلام ، نجد أن هناك خللين رئيسين بارزين تنطلق منهما سائر ألوان الضعف والخلل والتمزّق . هذان الخللان هما : الخلل في التصور الإيماني والتوحيد ، وهجر واسع لمنهاج الله .

وإذا كانت الآيات والأحاديث تلح على التزام المسلم لمنهاج الله وعلى تعهّده ومصاحبته صحبة عمر وحياة ، فإن أئمة الإسلام على مدار التاريخ ذكّروا الناس بأمر الله ورسوله في هذا الشأن ، وقالوا في جملة ماقالوا : خذوا من حيث أخذنا .

لكننا لاننكر أن قروناً طويلة من التاريخ الإسلامي وضعت عقبات كثيرة أمام عودة الناس إلى منهاج الله ومصاحبته والتزامه . . لقد أقام هذه العقبات هوان المسلمين أنفسهم ، ومكر أعداء الله الذين استغلوا هذا الهوان .

وكان من أهم هذه العوائق ضعف الإيمان أو الخلل فيه وفي تصور التوحيد ، حتى ضعف الحافز الإيماني من قلوب بعض الناس أو اختفى عند آخرين .

ومن أهم هذه العوائق ضعف اللغة العربية عند أبناء الإسلام عامة وعند العرب خاصة ، حتى غلبت العجمة على لسان الكثيرين ، فعمّ الجهل بين المسلمين بالقرآن والسنة ، وأصبح المسلم عالة على غيره ، عالة على العلماء والدعاة ، وادعى العلم كثيرون من غير أهل العلم ، وأصبح المسلم لايكاد يشعر بالتكاليف الرّبانية التي وضعها الله في عنقه ، وغابت عنه معاني العهد مع الله ، والولاء لله ، ومعاني الألوهية والربوبية ، وعبودية الإنسان لربه وخالقه . وغابت عن كثير من المسلمين مسؤولية حمل الدعوة الإسلامية إلى الناس وبيانها لهم ، وغير ذلك من المسؤوليات والتكاليف .

لقد أصبح الكثيرون يدرسون أصعب علوم الدنيا ، ويبذلون الجهد العظيم لها ليلاً ونهاراً حتى ينالوا أعلى الشهادات بها ، ثم تراهم يُدبِرون عن تدبّر منهاج الله .

إن منهاج الله علم حق . بل هو أساس كل علم . ولكن شاع بين الناس تعبير « الثقافة الإسلامية » ، حتى استقرّ في أذهان الكثيرين أن الإسلام ليس علماً ، وأنه ثقافة ، وأنه حسب المسلم أن يأخذ كلمة من هنا وكلمة من هناك .

وتوالت العقبات أمام المسلم تصدّه عن تدبر منهاج الله ، فازداد ضعف إيمانه . وكلما ازداد ضعف إيمانه . ازداد إدباره عن تدبر منهاج الله . وأصبحت ظروف الحياة الاجتماعية والاقتصادية والإعلاميّة والسياسية عوامل تساعد على صدّ المسلم عن منهاج الله وعن التصور الحق للإيمان والتوحيد ، وعن حقيقة التكاليف الربانية التي سيحاسبه الله عليها يوم القيامة .

عقبات كثيرة لاننكر وجودها . ولكننا نعتبر الأُمة كلها بجميع مستوياتها مسؤولة عن ذلك وعن عدم النهوض لمعالجة هذه العقبات على أساس من نهج وخطة ، وتوفير السبل والوسائل للعودة الواعية إلى منهاج الله ، ولتدبّره والتزامه ، وكذلك لممارسته في واقع الحياة ، والتدريب على ذلك .

ولكن أول المسؤولين هو المسلم نفسه الذي لايحلُّ له أن يجلس مسترخياً لاهياً عازفاً عن منهاج الله ، مدبراً عنه ، هاجراً له ، ثم يضع اللوم على الآخرين فحسب ، ناسيا مسؤوليته الأولى ، باحثاً عن المسوّغات والأعذار الباطلة لهجره منهاج الله .

على المسلم نفسه أن ينهض هو أولاً ليستفيد من إمكانات المجتمع وهي كثيرة : العلماء والدعاة ، الكتب التي تعين ، وسائر الوسائل الحديثة المتوافرة .

أيها المسلم ! أيها المسلمون ، أيها العلماء ! أيها الدعاة ! انهضوا جميعاً لنغيّر مابأنفسنا أولاً من عجز وتقصير وإقبال على الدنيا ، ولننهض إلى مسؤولياتنا كما أمر الله بها وفصّلها في المنهاج الرباني الكريم .

لقد ظن بعض المسلمين أن أداء الشعائر هي أقصى مايطلب الإسلام منهم . وهذا وهم . فالشعائر هي الأساس التي بُنِيَ عليها الإسلام ، وبُنِيتْ عليها التكاليف . وكل مسلم مكلّف قدر وسعه الصادق الذي وهبه الله له ليضعه في نصرة دين الله . فهل يُقبل من مسلم أن يَدَّعي أن وسعه ضاق عن تدبّر منهاج الله واتسع لدراسة الطب والهندسة وغيرهما ؟!

من منهاج الله تُعرف التكاليف ، فإلى منهاج الله أيها المسلم ، لتعرف منه الحقَّ كله والتكاليف كلها ، قبل أن يأتي يوم لامردّ له من الله .

أيها الدعاة والمسلمون ! لاتخافوا على الإسلام ، فالله ناصر دينه ، وهو غنّي عن العالمين . ولكنه ابتلاء وتمحيص ، فخافوا على أنفسكم من فتنة الدنيا والنكوص عن التكاليف الربانية ، ومن عذاب الآخرة ، وتوبوا إلى الله جميعاً :

﴿... وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [النور : ٣١]

٦ - المسؤولية السادسة : وعي الواقع من خلال منهاج الله :

في هذه المرحلة التي يمرُّ بها المسلمون ، تجتاحهم الأعاصير والنكبات والفواجع ، والهزائم والمجازر ، وأعداء الله يثبون على المسلمين بالسلاح المدمر والفتنة والفجور ، والنساء والخمور . في هذه الأجواء من الظلام المتلاحق ، من كان يظن أننا نستطيع أن ننجو دون العودة الصادقة إلى الله ، ودون العودة الصادقة إلى منهاج الله ، فإنه واهم ! ومن كان يظنّ أننا نستطيع أن نجابه صفّ الأعداء المتراص بصفوف ممزّقة متنافرة ، وقلوب متنافرة ، وأهواء متصارعة ، فإنه غارق في الوهم والضلال ! ومن كان يظن أنه وحده قادر على مجابهة هذه الأخطار المحدقة ، فإنه غارق في سَكَرٍ وخدرٍ ووهم وكبر !

ومن كان يظن أن هنالك شيئاً يجمع الأمة غير صفاء الإيمان والتوحيد ، وصفاء العودة إلى منهاج الله ، فإن وهمه أشد ، وضلاله أبعد .

ومن كان يظنُّ أن الله يُنزل نصره على الناس لأنهم ادّعوا الانتساب إلى الإسلام دون التزام صادق وممارسة أمينة ، فإنه كذلك ضارب في بحار الوهم والظن الباطل .

إن الله سبحانه وتعالى لايُنزل نصره إلا على من أوفى بعهده مع الله ، وصدق الله بالوفاء :

﴿ .. وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ﴾ [البقرة : ٤٠]

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾ [غافر : ٥١ , ٥٢]

إن أمور الدين وقضايا الإيمان ليست أمانيّ وأحلاماً ، ولاظنوناً وأوهاماً . إنها جهاد حق ، وابتلاء ماضٍ ، وتمحيص أكيد ، وبذل ومعاناة ، والله مطلع ، يقضي بالحق والذين من دونه لايقضون بشيء . وهذا كله يجب أن يكون عملاً منهجياً لا ارتجال معه ، ولا ردود فعل آنية . ولكنه نهج ممتدٌّ وصراط مستقيم .

إذا نظرنا إلى واقعنا ومآسينا فلا نضع اللوم على أعداء الله وأعدائنا . بل نضع اللوم على أنفسنا . إن الله حق ، يقضي بالحق ، ولايمضي أمر في الكون إلا بقضاء الله . فما أصابنا إذن فهو بقضاء الله وقدره ، وقضاء الله وقدره حق لايظلم أبداً ، فالعيب إذن فينا نحن المسلمين ، في أنفسنا . فإن أردنا النجاة صادقين فلننظر في أنفسنا ، ولنبحث عن عيوبنا ، لننهض ونعالجها ، ولنستقم على أمر الله ، قبل أن تتوالى الفواجع :

مالي ألوم عدوّي كلما نزلت ... بي الفواجع أو أرميه بالتّهم
وأدّعي أبداً أني البريء وما ... حملتُ في النفس إلا سقطة اللّمم
أنا الملوم فعهد الله أحمله ... وليس يحمله غيري من الأُمم

ماذا ينتظر المسلم من أعداء الله الذين يحاربون الله ورسوله ليل نهار ؟! أينتظر منهم أن يقدموا له النصر على أطباق من الذهب . والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لايرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة وأولئك هم المعتدون ﴾ [التوبة : ١٠]

إن الإيمان والتوحيد ، وهما يمثلان القضية الكبرى للإنسان ، انفتاح على واقع الحياة ، وتدبّر لسنن الله فيها ، ووعي واسع لأبعاد الواقع وآفاقه . إن الإيمان والتوحيد ليسا غياباً ولاغيبوبة ، ولكنهما حضور وإفاقة وقوة . إنه النّور الذي يشقّ الظلمات ، ويجلو الحق أمام المؤمنين ، ويمدّ الدرب على صراط مستقيم ، وينفي ردود الفعل الآنية والارتجال ، ويرسي قواعد العمل المنهجي .

إلى هـذه الحقائق يجب أن تتجـه مدرسـة الإسلام في واقعنـا اليوم ، وإليهـا يجب أن يتجه الـدعاة ، لتكون هـذه القاعدة الصلبة للـدعوة الإسلاميـة ، وليكون هذان الـركنان الأساسيـان اللذان ينهضان عليها - المنهـاج الرباني والـواقع - لتكون هذه الثلاثـة معاً ، لاينفصل بعضهـا بعضهـا عن بعض ، منطلقـاً للعمل الصـالح ، والممارسـة الإيمانيـة الصادقة ، ومنطلقا لنجاة الأمة ومعالجة الواقع .

إن كل واحدة من هـذه القضايا الثـلاث تحتاج إلى دراسات أمينة ، لتنـزل إلى الواقع ممارسة وتطبيقـاً لا شعاراً يُطوَى ، وصيحة تخفت . يجب أن يرى العـالم كله حقيقة الإيمان والتوحيد ، لا من خلال المؤتمرات والندوات والكتب ، ولكن من خلال الممارسة والصورة الحيّة النابضة .

٧ - المسـؤ ولية السـابعة : ممـارسة منهـاج الله في الـواقـع ، ومعرفـة المسلم لحدوده ومبادرته الذاتية بحوافز إيمانيّة ، والاجتهاد في حدود مسؤولياته وأمانته وعلمه :

على ضوء ماسبق عرضه ، حين يوفي المسلم بمسـؤولياته التي سبق عرضها : الإيمان والتوحيـد ، تدبـر منهاج الله ، وعي الواقـع من خلال منهاج الله ، تتـوالى أمامـه الآيات والأحاديث التي تبيّن لـه تكاليفه ومسـؤوليـاتـه وحقوقه . كيف لا ، وقـد عرف أن الإيمان والتوحيد مفاصلة وحسم ، وتكاليف والتزام ، ومسؤولية وحساب ، وعرف أن منهاج الله هـو المصدر الأول الـرئيس لهذا كله . سيعـرف عنـدئذ أن على كل مسلم مسؤوليـات في الحياة الدنيا تؤكدها الآيات والأحـاديث ، وحسبنا هنا أن نذكر بحديث رسول الله ﷺ عن ابن عمر : «**ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيتـه . فالأمير الذي على النـاس راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهو مسؤول عنهم ، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولـة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهـو مسؤول عنه . ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**» [رواه الشيخان والترمذي] (١)

(١)البخاري : ١١/ ١١/ ٨٩٣ - مسلم : ٣٢/ ٥/ ١٨٢٩ الترمذي : ٢٤/ ٢٧/ ١٧٠٥ .

وهكذا شمل الحديث الشريف جميع مستويات الأُمة ابتداءً من الأمير حتى العبد . ويدخل في هذا الشمول : التاجر والموظف والسياسي والاقتصادي والمدرس ، والرئيس والخادم . ولذلك ذكر البخاري هذا الحديث في كتب الجمعة والاستقراض والوصايا والعتق والنكاح والأحكام ، ومسلم في الإمارة والترمذي في الجهاد ، فشمل الحديث جميع المستويات والأفراد والميادين .

ومحور هذه المسؤولية التي يحملها كل مسلم هو ممارسة منهاج الله في واقعه وفي حدود مسؤولياته وأمانته واختصاصه . فيصبح في هذه الحالة من أهم مسؤولياته أن يعرف حدوده وأمانته واختصاصه على أساس مما سبق عرضه في تحديد المسؤوليات .

فإذا عرف المسلم حدوده وأمانته وجب عليه ا التزامها والوفاء بها ، وعدم التعدّي على حقوق غيره ومسؤولياته ، ووجب عليه معرفة حدود من يتعامل معهم لينزلهم منازلهم : فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من حُسن إسلام المرء تركهُ مالايعنيه » [رواه الترمذي ومالك] (1)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : «أمرنا رسول الله أن ننزل الناس منازلهم » [مسلم](2)

فلا بد للمسلم أن يعرف مايعنيه ، وأن يعرف حدوده وحدود غيره . والمصدر الأول لهذا كله هو المنهاج الرباني .

وتأتي بعد ذلك المسؤولية الأُخرى ، وهي المبادرة الذاتية تحركها الحوافز الإيمانية إلى مسؤولياته وواجباته . هذه المبادرة الذاتية مرتبطة كل الارتباط بكل ماسبق عرضه . فكيف تتولد الحوافز الإيمانية لتدفع المبادرة الذاتية إذا ضعف الإيمان أو اضطرب ، وإذا لم يصدق العلم بمنهاج الله ووعي الواقع من خلال منهاج الله . (3)

---

(1) الترمذي : ٢٧/ ١/ ١٣١٧ . مالك : (رقم : ١٦٢٩) .
(2) مسلم : المقدّمة .
(3) يراجع كتاب منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ، للمؤلف ، وكتاب : الحوافز الايمانية بين المبادرة والالتزام .

ويظل محور هـذه المسؤوليـات هو ممـارسـة منهاج الله في حـدود مسؤوليـات المسلم وأمانته . ولكنـه أثناء هذه الممارسة الإيمانية سيجـد أمامه قضايا هـو مسؤول عنها لايجد لها نصوصاً في منهاج الله . هنا يكون من مسؤوليته الاجتهاد إذا توافرت الشروط السابق ذكرها كلها ، وإذا عرف حدوده ومسؤولياته التي سيحاسبه الله عليها .

ومن هنـا جاء حـديث رسول الله ﷺ الـذي يحدِّد للمسلم هذه المسـؤولية الهامـة في الاجتهاد فيما يعرض له عندما تتوافر الشروط السابقة :

فمن حـديث وابصة قـوله ﷺ : «**يـاوابصة استفت قلبك واستفت نفسك (ثـلاث مرات) البرّ مااطمأنـت إليه النفس ، والإثم ماحاك في النفس وتـردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك**» . [رواه أحمد][1]

فالاجتهاد إذن مسـؤولية كل مسلم فيما يدخل في دائرة مسؤولياتـه التي سيحاسبه الله عليها يـوم القيامة . فالطبيب المسلم يجب أن يعـرف منهاج الله ويدرسه في حـدود وسعه وأمانتـه حتى يستطيع أن يجتهد فيما يجدّ له من أحـداث . والمهندس كذلك ، والتـاجر في تجارته ، والرجل في بيته ، وكلُّ مسلم في ميدان عمله وحدود مسؤوليته ووسعه الصادق .

المهندس مثلاً تمرّ عليه قضايا في مهنته ومن خلال مسؤولياته تحتاج إلى رأي وفتوى . والرأي والفتوى تحتاج إلى فهم القضية . والقضية قضيـة فنّية يحتاج فهمها إلى علم في هذا الاختصاص ، وإلى دراسـة مواصفـات فنيه واسعـة وعروض شركـات ربما بلغت مجلدات كثيرة ، ودراسة عقود وما أشبـه ذلك . فكيف يمكن لأحد أن يفتي في هذه القضية إلا إذا توافرت فيـه هذه الشروط . إن معرفة الدين والشرع ومنهاج الله ، كل قـدر وسعه الصادق ضرورة لاغنـاء عنها لأي رأي أو فتـوى ، ولكن يجب أن ينضم إلى العلم بمنهـاج الله وعي هذه القضية الفنية وعياً أميناً .

لانستطيع أن نطلب اليـوم من علماء الشريعـة أن يـدرس كل واحـد منهم جميع

(١) أحمد : الفتح الرباني : ١٩/ ٥٩ .

الاختصاصات العلميـة . ولكننا نستطيع أن نطلب من أصحاب الاختصـاصات العلمية أن يـدرسوا منهـاج الله ويتدبّـروه ، حتى يتيسَّـرَ لهم ممـارسة الحديث الشريف السـابق . يضـاف إلى ذلك أن تدبّـر منهاج الله واجب على كـل مسلم قدر وسعـه وطاقتـه ، ولكن دراسة التخصصات الفنيّة ليست واجباً على كل مسلم .

ففي ميدان التخصص والمسـؤولية والأمانة : على كل مسلم أن يجتهـد فيما يعرض له من أمر ، بعد أن يستكمل الشروط اللازمة لذلك . ومن واجبه أن يبادر إلى استكمال هذه الشروط .

إن واقعنا اليوم يشهد ظروفاً مغايرة لذلك . فالطبيب قد يجهل دينه ، ويضطر العالم الشرعي أن يفتي في بعض الأمـور الفنيّة . فـلا بـد أن يعي المسلم اليوم هـذه المسؤوليـات والواجبات ، فإنه محاسب عليها غداً بين يدي الله . وكثيرون من المسلمين اليوم لايدركون خطورة هذا الأمر ، فيتهاونون فيه تهاوناً كبيراً .

٨ - المسـؤولية الثامنـة : المسـاهمة في تحقيق الأهـداف الـربانيّة الثابتـة ، وأوّلها : الدعوة إلى الإيمان والتوحيد :

إذا صدق المسلم بـالوفاء بـالمسؤوليات السابقـة فإن المسؤوليات الأخـرى والتكاليف الـربانيّـة تتفتّح أمامـه من منهاج الله ، ومـن إيمانه الـذي يغذيـه منهاج الله ، ومن وعيـه للواقع من خلال منهاج الله .

هـذه المسؤوليـات تصبح مسؤوليـة الأمة بكـامل طـاقتها حين تقـوم الأُمة ، وتقـوم مسؤوليات الأمة وواجباتها بقيام المسؤولية الفردية كما ذكرنا سابقاً .

ويصبح الوفـاء بالمسؤولية الفـردية أساساً لبنـاء الروابط الإيمانية ، ولبناء الأمـة لتتابع الأمة الوفاء بهذه المسؤوليات .

إن المسؤوليات التي تُبنَى على المسـؤوليات السابقة لايمكن حصرها في هـذه العجالة

بتفصيل . ولكننا نستطيع أن نقول إن هذه المسؤوليات تتمثل في قيام الفرد والجماعة بالسعي لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية الثابتة التي سبق أن أشرنا إليها ، والتي نعيد إيجازها هنا :

- الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد .
- التربية والبناء ، والتعهد والتدريب .
- بناء الجيل المؤمن .
- الجهاد في سبيل الله .
- الأمة المسلمة الواحدة التي يحكمها منهاج الله وتكون كلمة الله هي العليا فيها .
- الانتشار في الأرض وبناء حضارة الإيمان بدلاً من الحضارة المادية .

ومن أجل هذه الأهداف الربّانية الثابتة تقوم أهداف مرحلية تتحدّد على أساس من منهاج الله والواقع ، تعين على الانتقال من هدف ثابت إلى هدف ثابت آخر ، على طريق ممتدٍّ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الجنّة - .

إن كل مسلم مسؤول عن المساهمة في تحقيق هذه الأهداف الربانية في الواقع البشري قدر وسعه وطاقاته ، ولا يُعذَر أحد بالتخلّف عنها إلا بعذر شرعي واضح .

وتتماسك هذه الأهداف الثابتة فيما بينها ، حتى إذا انتقلنا إلى الهدف الثاني عمل الهدفان الأول والثاني معاً . وتظل الأهداف تمتد من مرحلة إلى مرحلة حتى تعمل كلها معاً . ولقد درسنا «الأهداف» في كتاب لقاء المؤمنين - الجزء الثاني .

الفصل الثالث
المسؤوليـــة الفرديـــة
بين الإسلام وبين المذاهب العلمانية
ودورها في بناء الأمة المسلمة الواحدة
ومسؤوليتهـــا

١ - دور المسؤولية الفردية في بناء الأمة المسلمة الواحدة ومسؤوليتها :

من هذه المسؤوليـات التي عرضناها تتفتّح أمام المسلم سائر المسـؤوليات والتكاليف الـربـانيّة التي يحدِّدهـا منهـاج الله ويفصِّلهـا ، لتُمارَس في الواقع الـذي يعيشـه المسلم ، والذي يفهمه من خلال منهاج الله .

وإذا كانت هـذه هي مسؤوليات الفرد المسلم ، إلا أن مسـؤولية القيام بها لا تنحصر في الفرد المسلم منعزلاً عن الأُمة أو منطوياً عنها . إنها في الوقت نفسه مسؤولية الجماعة والأُمـــــة ، حين تتناسق الجهود وتترابط العزائم لتصبَّ كلها في مجرى واحد من الخير والصلاح ، والقوة والعزّة .

فمن هـذه المسؤوليـة الفرديـة تُبْنَى مسؤوليـة الامة من خـلال مايَبْني منهـاج الله من روابط إيمانية ، وما يقـوم على ذلك كله من نهج وتخطيط يجمع ويبني ، ونظام إداري يحدّد الصلاحيات والمسؤوليات والحقوق ، والإشراف والمراقبة والتوجيه والمتابعة .

إن الارتجال وردود الفعل لاتعين المسلم الفرد ولا الأمة على الوفـاء بالمسؤوليات . ولا تفيد الشكوى والنواح على الأطلال .

إن النهج والتخطيط سمـة من سمات العمل الإيماني والممارسـة الإيمانيّـة . إنـه ثمـرة المسؤوليات التي سبق عرضها حين يصدق المسلم في الوفاء بكل واحدة منها .

إن الإيمان والتوحيد وعي وإفاقة ويقظة . إنه ارتباط الإنسان بربه وخالقه ، بالحق الذي تقوم عليه السموات والأرض ، والحياة الدنيا والآخرة .

إن الإيمان والتوحيد هما المفتاح لتدبّر منهاج الله . وكيف يتدبّر الإنسان منهاج الله إذا لم يصدق الإيمان والتوحيد . لقد جعل الله على قلوب الكافرين والمنافقين أكنّة أن يفقهوا القرآن ، وفي آذانهم وقراً :

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ماقدّمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنّة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾ [الكهف : ٥٧]

إن كل واحدة من هذه المسؤوليات تحمل في جوهرها قوة تربط المؤمن بالمؤمن لِتُبْنَى الأمة المسلمة . وتزداد هذه القوة كلما ازداد صفاء هذه المسؤوليات وصدقها . ويصبح الوفاء بهذه المسؤوليات أساس بناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض ، وغياب هذه المسؤوليات الفردية يعطل بناء الأمة المسلمة الواحدة ويعطل مسؤ ولياتها .

٢ - الأخطار الناتجة عن غياب المسؤولية الفردية :

إذا كانت المسؤوليات الفردية في خطوطها العامة العريضة هي كما عرضناها مبنية على منهاج الله ، فإن تفصيلات هذه المسؤوليات ومنزلتها وأهميتها مفصلة في منهاج الله .

فالشهادتان وأداء الشعائر وذكر الله ، ذلك كله هو أول المسؤوليات بعد الإيمان والتوحيد . بل هي جزء من الإيمان والتوحيد ، وهي الأساس الذي بُني عليه الإسلام .

وهي مسؤولية كل مسلم في الدنيا وفي الآخرة . وعليها تقوم سائر المسؤوليات ومنها تنبع . وهي تؤلف قاعدة هامة لبناء الروابط الإيمانية وبناء الأمة المسلمة الواحدة .

فإذا كانت هذه هي مسؤوليات الفرد المسلم ، فمنها تتكون مسؤولية الأمة . فإذا غابت المسؤولية الفردية أو اضطربت وتقلصت ، اضطربت مسؤولية الأمة ، وظهرت

فيها الدعوات المضطربة والاتجاهات المنحرفة والمبادىء الخارجة عن الإسلام ، من ديكتاتورية وديمقراطية واشتراكية وعلمانية وحداثة بألوانها ومذاهبها المختلفة .

عندما تغري الديمقراطية اليوم بعض المسلمين بزخارفها ، فإن هذا يكون نتيجة لسوء واقع المسلمين ، ومافيه من ظلم وخوف وقلق وعدم مساواة ، ونتيجة لعدم تطبيق الإسلام تطبيقاً أميناً تبرز فيه عظمة الإسلام وعدالته والحرية المتوازنة الكريمة فيه ، وقواعد المساواة والأمن ، وتوازن الحقوق والمسؤوليات ، فينصرف بعض الناس ، لا لإقامة عدالة الإسلام والحرية المتوازنة فيه والمساواة الأمينة في تشريعه، بل للبحث عن ذلك في فلسفات بشرية تهائهة ، حيث تضيع بذلك جهودهم في الدنيا والآخرة . فاعجب إذا شئت حين ترى داعية مسلماً يدعو للديمقراطية في أمريكا ، وداعية آخر يدعو للرفق بأهل الكتاب الذين يذبّحون المسلمين ليل نهار ، وداعية آخر مسلماً يدعو لأوثان أُخرى هنا وهناك .

غياب المسؤولية الفردية يجعل الملايين من المسلمين غثاء كغثاء السيل ، أو قطيعاً يُساق إلى هلاكه ، تحت خَدَر شديد من دويّ الشُّعارات التي لايصحبها علم ولا ممارسة أمينة . ومن دوي الهتافات والتعبيرات العامة .

إن غياب المسؤولية الفردية يضع أخطر العوائق أمام صدق التعامل مع الواقع حيث تُدفَع القطعان ، كل قطيع باتجاه ، فتتصادم الجهود أو تموت ، وتقتل الأوقات وتُهدَر الطاقات .

وغياب المسؤولية الفردية يضيّع على المسلمين حسن ترتيب الأوليات ، والخطوات والأهداف ، ويفتح أبواب الفتنة بعد الفتنة ، ويغيب النهج والتخطيط.

إن غياب المسؤولية الفردية يفتح المجال لظهور ماأُسميه «بالطبقة العائمة » ، الطبقة التي تكون مرتعاً لقوى الشر ولأعداء الله ، يفسدون فيها ، ويستغلونها لإفساد الآخرين .

إن غياب المسؤولية الفردية والوعي الناتج عنها يمدُّ ساحات الإشاعات والقيل والقال . فتمتدّ الفتنة وتظهر الدعوات المتناقضة ، وتُستهلك الجهود في محاولات التوفيق بين حقٍّ بيِّن وباطل مكشوف .

هذا كله في الحياة الدنيا . أما في الآخرة فالمصيبة أدهى وأَمرّ عند غياب المسؤولية الفردية ، حيث يقف كل انسان وحده بين يدي الله ، ويتخلّى عنه الأعوان والأوثان وكل من ادّعى قوة وسلطاناً :

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرّة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطّع بينكم وضلّ عنكم ماكنتم تزعمون ﴾ [الأنعام : ٩٤]

وكذلك :

﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدّهم عدًّا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ [مريم : ٩٣-٩٥]

إن المسؤولية كلها في ميزان الإسلام ممتدة بين الدنيا والآخرة ، لاينفصل بعضها عن بعض ، سواء في ذلك مسؤولية الفرد والجماعة والأُمة والناس كافّة . إن الله ربّ الدنيا والآخرة ، وهو رب العالمين . ومنهاج الله منهج حياة كامل في الدنيا وبلاغ عن الآخرة ، منهج للفرد والأُمة والبشرية .

فالمسؤولية في ميزان الإسلام ممتدة في الدنيا إلى الآخرة ، لايمكن الفصل بينهما ، ويضطرب التصوّر ويختلُّ لو انعزلت مسؤولية عن الأُخرى . فحين يقول رسول الله ﷺ : « **ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته . .** »[1] ، فإنه يكشف لنا ارتباط المسؤولية في الدنيا بالمسؤولية في الآخرة وامتدادهما . كما يكشف لنا هذا الحديث الشريف أن على هذه المسؤولية الفرديّة تقوم مسؤولية الجماعة والأمة ومسؤولية البشرية كلها .

(١) عن عبدالله بن عمر . رواه الشيخان والترمذي : البخاري : ١١/ ١١/ ٨٩٣ ، وفي كتاب الجمعة وكتب أخرى . مسلم : ٣٣/ ٥/ ١٨٢٩ . الترمذي : ٢٤/ ٢٧/ ١٧٠٥ .

لينهض المسلم الذي أوفى بمسؤوليته الأولى إذا صدق إيمانه بربّه وأفاق من غفوته ، إلى مسؤوليته الثانية إلى منهاج الله تلاوة ودراسة وتدبّراً ليعرف منه سائر مسؤولياته التي سيحاسَب عليها .

وسيجد المسلم الصادق الذي يعزم على الوفاء بعهده مع الله ، حين ينهض إلى مسؤولياته التي عرفها من منهاج الله ، أن عليه أن يحاسِب نفسه بين حين وآخر ، وأن يراقبها ، وأن يقوِّم عمله ، حتى يستطيع أن يغيّر ما بنفسه إلى طاعة أمينة لله ، حتى يُغيِّر الله لنا واقعنا . وأُذكّر نفسي أولاً وأذكر إخواني المؤمنين بآيات لله بيّنات :

﴿ سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لايغيّر مابقوم حتى يغيّروا مابأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له ومالهم من دونه من وال ﴾ [الرعد : ١٠ ، ١١]

وكذلك :

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا مابأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ [الأنفال : ٥٣]

٣ - المسؤولية الفردية بين الإسلام وبين المذاهب البشرية :

ومن أخطر مايصيب المجتمعات البشرية اضطراب المسؤولية الفردية ، اضطراب مسؤولية الإنسان وواجباته وحقوقه ، من خلال ماتتبنّى المجتمعات البشرية من مبادىء وفلسفات .

إذا استعرضنا تاريخ الإنسان وواقعه اليوم نجد أن المسؤولية الفردية مختلّة ومضطربة بين انفلات شديد ، كما هي الحالة في المجتمعات الغربية وما تتبناه ديمقراطيتها من حرّية فرديّة واسعة ، أَغرقت الإنسان في شهواته وأهوائه المادية حتى خدّرته ، فاستسلم لهذا

النظـام ، وبين قيود خـانقـة كما هي في ديكتـاتـورية الطبقـة العـاملـة (البروليتاريـا) ، وماتستبدُّ به من حكم ديكتاتـوري مطلق أرهب الناس حتى استسلمـوا إليه ، وبين نظم أخرى مختلفـة أضاعت الإنسـان في متاهـات بعيدة بين اضطراب مسـؤولياتـه واضطراب حقوقه ، مما أورث المجتمعات البشرية صراعات ممتدةً وحـروباً طويلة ، واختلالاً ظاهراً في الموازين والتقـويم ، واضطـرابـاً في معنـى العـدالـة والحرّيـة والمسـاواة ، حتى لم تعـد الشعارات كـافية لإنقاذ الإنسـان ، ولا اللجان والجمعيات والهيئـات القومية والـدولية . وامتلأت الأرض فتنة وفساداً في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس :

﴿ظهر الفسـاد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليـذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ [الروم : ٤١]

هذه القضيـة ، قضية الإنسـان في الحياة ومسـؤوليته ودوره فيهـا ، شغلت الفـلاسفة والمفكرين في مختلف الأُمم والشعوب منذ أقدم العصـور حتى يومنا هذا . وظهرت فلسفات كثيرة حول هذا الموضـوع وما يتفرَّع عنه من قضـايا . ولكن هذه الفلسفـات البشرية جاءت مضطربة مبهمـة متناقضة ، تأخذ جزئيّـة واحدة من الحياة الدنيا ، ثمّ تبني عليهـا تصورها الكامل للكون كله والحيـاة كلها ، والإنسان بامتداد عصوره وأجنـاسه وشعوبه . إنّ الخطأ كبير جداً ، حين يحاول إنسـان محدود الوسع والطاقة ، محدود العصر الـذي يعيش فيه ، أن يفسِّر الكون كله منذ نشأته التي لم يشهـدها إلى نهايته التي هي أيضاً من نبأ الغيب . لذلك جاءت التصوّرات مضطربة متناقضة ، تختلط بالأساطير والوهم والضلال .

من هنا جـاء تميّز نظرة الإسلام إلى الكـون والحياة والإنسان ، لأنها جـاءت من عند رب الكون والحياة والإنسان ، من عند الله الذي لاإله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة :

﴿ عـالمُ الغيب فلا يظهـر على غيبه أحـدا * إلا من ارتضى من رسول فإنـه يسلك من بين يديـه ومن خلفه رصداً * ليعلم أن قد أبلغـوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلّ شيء عدداً﴾ [الجن : ٢٦-٢٨]

وكذلك :

﴿ قل لايعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون * بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون ﴾ [النمل : ٦٥ ، ٦٦]

ولذلك جاءت جميع الفلسفات البشرية معزولةً عن علم الآخرة ، تحمل معها الأساطير والخرافات والأوهام ، لاتقدّم نهجاً متوازناً لحياة الإنسان ، ولا لمسؤولياته ولا لحقوقه . إنها بنت تصوّرها العام على جزئية أو بعض الجزئيات ، وإنها عزلت الحياة الدنيا عن الآخرة فكراً وتصوراً ومسؤوليات وحقوقاً .

إن من أحدث هذه التصورات ماعرضه ستيفن هوكنج Stephen W. Hawking حين حاول أن يفسّر نشوء الكون ونهايته في كتابه : «**موجز التاريخ للزمن** A brief History of Time» عن طريق المعادلات الرياضية وبعض الظواهر الكونيّة ، فاصطدم بقضايا كثيرة ، وجعل من بعض الفرضيات والظنون حقائق . وحين تحدّث عن الإسلام افترى عليه ونحّى البحث العلميّ جانباً ، وأخذ بالوهم ، وخلط الإسلام بالنصرانية واليهودية خلطاً عجيباً جاهلاً، واعتبر ما تقوله النصرانية هو ما يقوله الإسلام ، ولم يكلف نفسه أن يدرس الإسلام بأمانة ليتحدَّث عنه بأمانة . ولم يعرض مايقوله الإسلام عن بدء الكون ونهايته ، وعرض أن القديس «**أوجستين**» اعتبر أن بداية الكون كانت قبل خمسة آلاف سنة في كتابه « **مدينة الله** » . إن الإسلام لم يحدّد زمناً معيناً لبدء خلق الكون أو الإنسان ، وإنما قدّم الحقائق المطلقة التي تبيّن كيف خلق الله الكون ومدة خلقه له ، وكيف خلق الإنسان . ولكن «ستيفن هوكنج» استعرض أفكار أرسطو الوثنية ، وأفكار «إمانيول كانت » في كتابه «نقد العقل الخالص » الصادر سنة ١٧٨١م . كما استعرض بعض النظريات العلمية لنيوتن وكارل بوبر وآنيشتاين وغيرهم . وحصالة ذلك كله أنه لم يصل أحد الى الحقيقة المطلقة بالنسبة للكون ونشأته ، وظلت آراؤهم ضرباً من الظنون والتخمين .

ومن أحدث الكتب التي صدرت كتاب «**نهاية التاريخ والرجل الواحد** » لفرانسيس فوكوياما . يعتبر فوكوياما أن التاريخ سينتهي عند الديمقراطية الحرّة التي تسود العالم .

ووصل إلى هذه النتيجة بأُسلوب غير علمي ولا منطقـي ، مستعرضاً عدداً من الفلسفات التي عرفتها البشرية استعراضاً مضطرباً ، بأسلوب غير أمين ، ملغياً التصور الإيماني كله عن دراسته ، عازلاً الدنيا عن الآخرة ، وكأنه أخذ بينه وبين نفسه بالنهج المادّي الإلحادي في تفكيره وبحثـه . إن من يقـرأ هذا الكتـاب يشعـر بالظلمات التي يعيشهـا الكـاتب ، الظلمات التي حاول من خـلالها أن يرى الإسلام فألقى الله على بصره غشـاوة ، فاختلطت الأمور لديه .

قبل ذلك ، ظنّ أهل الماديـة الجدليـة والمادية التـاريخيـة أن نهايـة التاريخ في تطـوره ونموه هي الشيوعيـة التي تمثل خاتمة مطاف الاشتراكية عند فردريك إنجلـز وعند ماركس وغيرهما . ثم مضت سنة الله لنرى أن النهاية هي نهاية الشيوعية وسقوطها .

إن جميع هذه الفلسفات سـواء أكانت «**مادية أم مثالية**» نزلت بالإنسان إلى أدنى مستوى وهبطـت به إلى مستـوى حيوانيّ ، وحاولـت أن تبرز إنسانيّتـه بشعارات مجزوءة ، وبقطع متناثـرة مفصولـة بعضها عن بعض ، فعجـزت بذلك عن أن تـرسم صورة قـريبة للإنسان ، ولا هي ارتبطت بالإيمان بالله وتوحيده وعبودية الإنسان لربه وخالقه ، لتقدم ، لو فعلت ذلك ، الصـورة الأسمى والأصدق . وبـذلك أضاعت هذه الفلسفـات حقيقة مسؤوليـة الإنسان في هذه الحيـاة الدنيا ، وخلطت بعض حقوقـه المادية خلطاً أفسـدها ، وعزلت الحقوق عن المسؤوليات .

فإذا كان أفلاطون جعل «الشهامة» كما يفهمها هو ، هي محرك الإنسان والتاريخ ، واعتبر ميكيافيلي الرغبـة في المجد هي التي تفعل ذلك ، واعتقد «هوبـز» أن أقوى انفعال إنسانيّ «هو الخوف من الموت البشع» ، وأقوى الأمـور الأخلاقية هو الحفاظ على النفس ، ورأى الكسندر هاميلتون أن حبّ الشهرة هو الأقوى ، وجيمس ماديسون رأى الطموح ، وهيجل تمسّك برغبـة الإنسان بعرفـانه واعتراف النـاس به ، ونيتشه احتقـر الإنسان حتى جعلـه وحشـاً بخـدود حمراء ورديـة ، فإن هـؤلاء جميعهم ، وآخــرين كثيرين مثلهم من الفلاسفـة ، أضاعوا الإنسـان في وحل الرغبات الماديـة ، من خلال شعارات متقـاربة في

ماديَّتها وألفاظ متدنيّة في شهواتها ، ثمّ رموا البشريّة كلها في خضم بحار من مجازر الظلم والعدوان ، امتدت في التاريخ البشري حتى يومنا هذا ، وستمتد على حكمة الله بالغة ، وقدر غالب ، ليُمحّص الله الإنسان ويميز الخبيث من الطيب ، ولتقوم الحجة على الإنسان يوم القيامة أو تقوم له .

عندما يعرض «فوكوياما» في كتابه المذكور أعلاه «نظرية التحديث» التي ترى الإنسان بصفته الأساسية حيواناً اقتصادياً تحرّكه رغبته وعقله ، وتكون العملية الجدلية للتطور التاريخي مشابهة للمجتمعات الإنسانية المختلفة [١] ، فإنه يكون قد هبط بالإنسان إلى « أَسفل سافلين » .

وكذلك يفعل هيجل عندما يعبر أن المحرّك الأول للتاريخ الإنسانيّ ليس الدافع الاقتصادي ولكن الصراع من أجل العرفان والتقدير في الحياة الدنيا [٢] .

ولكن الإسلام جاء ليكرّم الإنسان ، ويرفعه إلى الدرجة الكريمة التي خلقه الله لها ، ليحتلّها بالأمانة التي يحملها ، والعبادة التي خُلِق لها ، والخلافة التي جُعِلتْ له ، والعمارة التي أُمر بها ، لتتحدَّد مسؤوليات الإنسان فرداً وجماعة وأمّة على أساسها ، ولتتحدَّد أيضاً حقوقه ، ولتناسق الحقوق والمسؤليات من خلال المنهاج الرّباني نوراً وهدى للبشرية كلها . فحين يتخلّى الإنسان عن ذلك فإنه يهبط إلى أسفل سافلين .

﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذّبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ [التين : ٤-٨]

وكذلك :

﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [الإسراء : ٧٠]

---

(١) فرانسيس فوكو ياما : نهاية التاريخ والرجل الواحد - ترجمة د. حسين الشيخ (ص : ١٥٤) .
(٢) نفس المرجع السابق : (ص : ١٥٥) .

لقد هبطت بعض الفلسفات بالإنسان حتى جعلته حيواناً ، وغالت بعضها ورفعته حتى جعلتـه إلهاً ، وجاء الحق من عنـد الله يكـرم الإنسان بمسـؤولياتـه في الحيـاة الدنيـا وحقـوقه فيهـا ، ويجعل أمر الإنســان لاينتهي في هذه الحيـاة الدنيـا ، وإنما يوفى أجـره في الآخرة فإما إلى جنّة وهذه غاية التكريم ، وإما إلى نار وهذه جزاء الظالمين المفسدين .

﴿ أم حسب الـذين اجترحـوا السيئـات أن نجعلهم كالـذين آمنـوا وعملـوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء مايحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحقِّ ولتُجزَى كلُّ نفس بِما كسبت وهم لايُظلمون ﴾ [الجاثية : ٢١، ٢٢]

لقد كـرّم الله الإنسان بخلقـه ، وكرّمه بـالأمانـة التي حملها ، وكرمـه بالنهـاية التي يبلغها إن هو أوفى بعهده وأمانته ومسؤولياته ، وكان من الشاكرين .

هـذه هي نهاية التـاريخ كما يبيّنها لنـا منهاج الله الحق الـذي لايأتيه البـاطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا كما يدعي «فوكوياما» من خلال أهواء وعلم مضطرب متناقض .

من هذا العـرض للمسؤولية الفرديـة نستطيع أن ندرك أهمية النظـرية العامة للـدعوة الإسلاميـة وهي تبرز أهم حقوق الإنسان وأهم واجباتـه ، والموازنة الدقيقة التي يعـرضها منهاج الله بين الـواجبات والحقوق . ورأينـا كيف أن التصور الـذي نعرضه هنـا نابع من القاعدة الصلبـة للنظرية العامة - قضيـة الإيمان والتوحيد والدعـوة إلى الله ورسوله . ومن الركنين الأساسيين : المنهاج الرباني والواقع . كما نـرى أن اضطراب المسؤولية الفردية ناتج عن المشكـلات الأربع الرئيسـة في الـواقع ، وأن المعالجة تحتـاج إلى نهج وتخطيط نـابع من الأسس الأربعة التي تمثل العنصر الأول من عناصر التنفيذ .

ونرى من هذا العرض أهميـة المسؤولية الفردية في بناء مسـؤولية الجماعة والأمة . فهي قضية هامـة على طريق بناء الأمة المسلمـة الواحدة في الأرض ، الأمة التـي يحكمها منهاج الله ، وتكون فيها كلمة الله هي العليا في جميع أمورها وقضاياها .

ونرى هذه القضية اليوم لتكون قاعدة من قـواعد التصوّر الإسلامي في ميدان الدعوة والتربية والتـدريب ، وإعداد الجيـل المؤمن الذي يتماسك بـروابطه الإيمانيّـة حين يصدق أبناؤه الوفاء بالأمـانة والعهد الأول مع الله والولاء الأول مع الله ، وكل عهد وولاء ينبع منهما ويرتبط بهما في الحياة الدنيا ، وبكل مايترتب على ذلك من مسؤوليات وواجبات .



الباب الخامس

النظريّة العامة للدعوة الإسلامية

الفصل الأول
أهميّة النظرية العامة للدعوة الإسلامية ودورها وضرورتها

١ - من أين تنطلق النظرية العامة للدعوة الإسلامية ؟!:

تنطلق النظرية العامة للدعوة الإسلامية من قواعد الإيمان والتوحيد ومن منهاج الله ، وفي الوقت نفسه من حاجة واقع المسلمين اليوم ، الواقع الذي تموج فيه الخلافات ويحتدُّ الصراع والشقاق بصورة مريرة مؤلمة ، وعلى مدى طويل ، لم توقفه الفواجع والنكبات ، ولا الهزائم ولا المجازر .

٢ - إلى ماذا تهدف النظرية العامة ؟! :

وتهدف النظريّة العامة في جملة ماتهدف إليه إلى إبراز الأُسس الربّانيّة الضرورية لإرساء قواعد لقاء المؤمنين على طريق بناء الأُمّة المسلمة الواحدة .

٣ - ماهو دور النظرية العامة وما أهمية هذا الدور ؟!:

وهي تجمع في الوقت نفسه وبصورة موجزة مركّزة القواعد الرئيسة التي تحتاجها الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي كله في مختلف ميادين نشاطه ، وينبع ذلك كله من منهاج الله ومن حاجة واقعنا الذي ندرسهُ من خلال منهاج الله . ويمضي العمل بعد ذلك منهجّياً تحدّدت دربه وأهدافه ووسائله .

والنظريّة العامة تكشف كذلك شدة الترابط بين مسؤولية الفرد ومسؤولية الأُمة والموازنة بينهما ، حتى لايقع تصادم واضطراب ، ويمضي المسلمون جميعاً أفراداً وجماعات وشعوباً على درب واحد هو الصراط المستقيم ، ليكوّنوا أمة مسلمة واحدة في الأرض ، استجابة لأمر الله تعالى .

إنها توجه عمل المسلم ونشاط الأُمة إلى القواعد الربانيّة ، ليكون التفكير منهجّياً ، وليكون العمل منهجيّاً ، وليصبَّ كله في مجرى واحد ، يجمع الجهود المؤمنة الصادقة المتجهة إلى الله سبحانه وتعالى .

وهي تبرز في الوقت نفسه قضايا كثيرة أهملها المسلمون في واقع حياتهم ، لتدخل هذه القضايا في النظرية أولاً ، ثم في النهج والتخطيط والدراسات المفصّلة ، ثم في الممارسة والتطبيق ، والإعداد والتدريب .

فمن بين هذه القضايا أهمية وضع منهج محدّد يساعد المسلم على تدبّر منهاج الله – قرآنا وسنة ولغة عربية – . وتبرز في الوقت نفسه أهمية دراسة اللغة العربيّة لتكون جزءاً من دراسة منهاج الله في حياة المؤمن .

وتبرز النظريّة قضية الإيمان والتوحيد ودورها وأهميتها في مسيرة الدعوة الإسلامية ، وأهم مظاهر الخلل في واقع المسلمين بالنسبة لها ، ووسائل معالجة ذلك .

وتثير قضيّة الواقع وضرورة دراسته من خلال منهاج الله ، دراسة ترتبط بقضية الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ، لِيُرَدّ الواقع إليها ، ولتنضبط دراسته على أساسهما ، فلا يغالَى بدور الواقع وأهميّته حتى يبرز على غيره من العوامل أو ينفصل عنها ، فيقع الانحراف ، ولا يُهْمَلُ حتى يضطرب النهج والتخطيط ، والموازنة والموقف .

وتبرز النظرية العامة أهميّة تحديد المشكلات في الواقع من خلال النظرة الإيمانيّة ، حتى يوضع العلاج الناجح بإذن الله .

وتُبرزُ النظريّة العامة كذلك أهمَّ الخصائص الضرورية للداعية حتى يستطيع النزول إلى الميدان وهو مزوَّدٌ بالزاد الضروري .

ثم تبرز النظريّةُ أهم العناصر الضرورية للتنفيذ والمعالجة في الميدان . إنها تبرز أهمية النهج والتخطيط العام ، والنهج والتخطيط لكل ميدان ونشاط ، وتبرز دور الدعوة إلى

الله ورسوله ، ودور التربية والبناء ، ودور التدريب والإعداد ، التدريب المنهجي بأنواعه المختلفة .

إنها تبرز كذلك دور ميدان الأدب ، ليأخذ الأدب صورته ومنهجه الإيماني ، بدلاً من أن يتفلّت ويتيه بين مذاهب الغرب والشرق ، فيفقد تميّزه ولايظهر أهميته في الدعوة الإسلامية ، ولا تظهر إنسانيته وعالميته ، ولا خصائصه الجمالية المتفرّدة .

إنها تبرز كذلك دور الإدارة والتنظيم وأهميتها في حياة الإنسان عامة والمسلمين خاصة .

كما تبرز النظريّة العامة : ميزان المؤمن ، والمؤسسات الإيمانية ، وأهميّة التقويم على أن يكون منهجيّاً دورياً .

إنها تبرز كذلك أهمية التفكير المنهجّي المنضبط بضوابط الإيمان والتوحيد ومنهاج الله .

وإنها تبرز كذلك أهمية المضيّ على الصراط المستقيم ، حتى ينمو الزاد والتجربة والخبرة ، فينمو العمل ويزكو ، وينمو الإتقان والإحسان في العمل كله .

وتمضي المسيرة بذلك على صراط مستقيم ، على الصراط المستقيم الذي بيّنه الله لنا في المنهاج الرباني .

إنها تثير قضية الموازنة في نشاط المسلم وحياة الأمة ، الموازنة التي يضع قواعدها منهاج الله .

إنها تنزل الشعارات الإسلامية التي ظلّت زمناً طويلاً دون رصيد حقيقي في الواقع ، إنها تُنزِلُها إلى ميدان الدراسة والنهج والتخطيط ، ثم الممارسة والتطبيق .

إنها ترتبط بمدرسة النبوّة الخاتمة وتقتفي آثارها ، لتكون امتداداً عملياً لها . وتستفيد من تجربة الدعوة الإسلامية في مختلف عصورها ، ومن جهود الأئمة الأعلام على مدى

التاريخ ، حين يُرَدّ ذلك كله إلى منهاج الله ليظل هو المرجع للمسلمين على مدى العصور والأجيال ، والمصدر الذي نصدر عنه في كل قضايانا .

والنظرية العامة لاتقف عند حدود المصطلحات وتعريفها ، ولكنها تمتد إلى ميادين الدراسات المنهجية التفصيلية لكل قضيّة تعرضها أو ميدان تدخله . وتمتدّ كذلك إلى المناهج التطبيقية سواءً أكان ذلك في ميدان الدعوة والبلاغ ، أم التربية والبناء ، أم الإعداد والتدريب . وتقدّم النظريّة العامة مع هذا كلّه النماذج العمليّة في ممارسة بعض القواعد ، لتعين هذه النماذج على فهم أدقّ للقواعد والنظرية . إنها تقدم النماذج للمنهاج الفردي ، ولمنهج لقاء المؤمنين ، ولميزان المؤمن ، وللتقويم الدوري بجميع أنواعه . وتقدم نماذج من الشعر والأدب ، ومن الملاحم .

والنظرية العامة ، حين تجعل مرجعها الأول الإيمان والتوحيد ومنهاج الله ، وتردّ كلّ قضاياها إليهما ، فإنها تستفيد من تجربة الإنسان في ميدان الواقع في أمور جعلوها معزولة بضلالهم عن دائرة التصوّر للكون والإنسان والحياة والموت ، والدار الآخرة والغيب والمشهد . نحن المسلمين نملك التصوّر الحق لهذه القضايا كلها ، ونحن المكلّفون بتبليغ هذا التصور الحق للناس كافة ، مع أصدق صورة لممارسته وتطبيقه في الواقع البشريّ . إننا نستفيد من تجربة الإنسان خارج هذه الدائرة ، وخارجماينتج عنها من فكر أو أدب . إن أهم مايمكن أن نستفيد منه هو الصناعة والعلوم التطبيقية التي أساء أصحابها استخدامها ، فجعلوها أداة عدوان وظلم ، وشهوات وجرائم .

إننا نريد أن نستفيد من تجربة الشعوب في هذين الميدانين : الصناعة والعلوم التطبيقية التابعة لها ، حتى نضع هذا كله في خدمة الإنسان وبناء حياته الطاهرة النظيفة في أجواء الأمن والسلام والحرّيّة الحقيقية المتوازنة العادلة .

إن المسلمين أولى الناس لأن يسبقوا إلى البحث والدراسة في آفاق الكون والحياة لنرى آيات الله البيّنات ، وليقيموا من البحث والدراسة علوماً تهبهم القوة ، وصناعة يضعونها

في طاعة الله وخير الإنسان ، ودرء المظالم والعدوان والفساد والإفساد .

ومن المؤسف حقّاً أن نرى الكثيرين قد أقبلوا على حضارة الغرب ليأخذوا عنها شرّها وفسادها ، وفتنة فكرها وفلسفتها ، وعلمانيتها ، وحرّية الجنس والفاحشة ، والحداثة ، وكل ذلك في النظرية والتطبيق ، ولم يأخذوا الصناعة والعلوم التطبيقية إلا في مجال محدود ضيّق !

ومن المؤسف أن تُهدَرَ الطاقات والمواهب في الدفاع عما يسمونه الشعر الحرّ أو الشعر المنثور أو النثر المشعور ، ولاتجد إلا القليل ممن يسرع لتعلّم صناعة تطبيقية مثمرة بدلاً من صناعة شعر منثور ! فلم يعط الشعر الحرُّ ولا المنثور للأمة قوة وتقدُّماً ، ولم تعطِ العَلمانيّة الأُمةَ صناعة وقوة ومدداً ، وظل المسلمون بالرغم من الشعر المنثور والنثر المشعور يُعتبرون من العالم الثالث المتخلّف . شغلوا الأُمة بالسفاسف ، حتى أُلهِيتْ عن معالي الأمور ، وشغلت عنها !

ربما يقول قائل ليس في الكتاب والسنّة هذا المصطلح ، **مصطلح النظريّة العامة للدعوة الإسلامية** ، ولم يستخدمه الصحابة رضي الله عنهم ، فما حاجتنا إليه ؟

فنجيب على ذلك بأن الكتاب والسنة كما جاءا باللغة العربية هما الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهما تنزيلٌ من عند الله العزيز الحميد . ومهمة الإنسان أن يطبّق هذا المنهاج الرّباني في واقع الحياة البشرية المتجدّدة في أحداثها ومشكلاتها ، الثابتة في سننها الرّبانية .

ومن خلال هذه الممارسة الإيمانية لمنهاج الله في الواقع البشري لابدّ من الدراسات والأبحاث ليقوم النهج والتخطيط عليها . لابدَّ من دراسة الواقع وأحداثه من خلال منهاج الله كما يفرض الإسلام ويتطلب الإيمان ، ولابدَّ من التجول في الكون والتعرّف على آيات الله فيه ، ولا بدَّ من «**السير في الأرض**» لننظر كيف كان مصير الأمم الغابرة ، ولا بدَّ من دراسة مشكلات كل واقع والاجتهاد في وضع الحلول والعلاج .

لذلك نجد أن علماءنـا الأعلام في تاريخنا الطويل أثرَوْا الفكر الإنسـاني بما قدموه من دراسات ومصطلحات في : الفقه والتفسير ، ومصطلح الحديث ، وما نشأ عن ذلك من علوم كانت ثمرة جهد بشري ، لاتجد ماقدّمه هذا الجهـد البشري المبارك من مصطلحات في الكتـاب والسنـة ، ولكـن تجد أنهم اتبعـوا القـرآن والسنّـة فيما قـدّمـوه من دراسـات ومصطلحات اجتهدوا فيها غاية اجتهادهم .

و «**النظرية العامة للدعوة الإسلامية**» ، والممارسة الإيمانية ، والنهج والتخطيط ، والتدريب وأنواعه ، والتقويم ونماذجه ، والمؤسسـات الإيمانية ، والوسع الصادق والوسع الكاذب ، والمنهج الإيمانيّ للتفكير ، وسائر مـاقدمناه من دراسات ومصطلحـات جديدة هي من هذا البـاب الذي يجعلـه الإسلام مفتوحـاً أمام الجهـد البشري المؤمن ، وعلى هذا الدرب الذي يجعله الإسلام ممتداً .

٤ - ماذا تقدّم النظرية العامة ؟! :

كما تقدِّم النظرية العامة التصـوّر المتكامل المترابط للفقه في الإسلام وامتداده في جميع شؤون الحياة وميـادينها ، وامتداده في قطاعـات الأُمة كلها ومستويـاتها ، ابتداءً من الفرد والأُسرة والبيت ، إلى الوظيفة والعمل ، إلى التجارة والاقتصـاد ، إلى شؤون الحكم والدولة وسائر ميادين الأمة ومستوياتها .

كما تقدّم لنا النظريـة العامة والدراسات المتعلقة بها أهميـة النظرية والتطبيق ، وتوفير الـوسائل النـاميـة للتدريب ، وأهميـة الإشراف والمتابعـة والتـوجيه ، والإدارة والنظـام ، والشورى والتعاون والتنسيق ، ليكون ذلك كلـه من خلال منهج واضح مفصّل ، نامٍ مع الممارسة .

من خلال توافر هـذه القضايا والقواعد كلها ، يغمرها النـور من منهاج الله ، نرجو أن نوفـر الفرصـة الغنيّة **لتقـريب وجهات النظر في السـاحـة الإسلامية ، وتقـريب المسـافـات ، وتضييق شقـة الخلاف ، ولجمع النفـوس والقلـوب ، وتـوحيـد العزائم**

والجهود ، على طريق طويل ممتد على صراط مستقيم إلى الجنة والدار الآخرة ورضوان الله ، لنشقَّ الدرب إلى لقاء المؤمنين الصادقين وبناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض .

ومهما تكن الخطة صادقة والنهج سلياً والنظرية متكاملة والأهداف جليّة ، فإن النجاح لايتوقف عليها فحسب ، وإنما على الطاقة البشرية التي تحملها ، وعلى القضايا التالية :

- مدى وعي الطاقة البشرية لذلك كله .

- ومدى إيمانها به وإدراك مسؤوليتها على ذلك في الدنيا وحسابها في الآخرة ، ومدى التزامها وتطبيقها له في واقعها وحياتها .

- ومدى قوة نهوضها به والدعوة إليه بوضوح وجلاء ، مع نور الحجّة من الكتاب والسنة ، وتلبية حاجة الواقع .

وأخيراً فإن الأمر كله لله يفعل مايشاء ، يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشيء . إننا نبذل جهدنا ووسعنا على هدي من منهاج الله ونور الإيمان طاعة لله ولرسوله !

من هذا العرض السريع ندرك أهمية النظرية العامة للدعوة الإسلامية وأهمية دورها وضرورتها ، في حياة المسلم الفرد والبيت والأُسرة ، والجماعة والأمة .

ويَزداد وضوح أهميّتها وضرورتها ، حين ندرك أن هذه النظريّة العامة للدعوة الإسلامية لاتتمثّل في هذا الموجز ، وإنما في الدراسات المفصلة التي تناولت كل بند فيها وكل جزء وعنصر .

ومن خلال هذا الموجز ، ومن خلال الدراسات التفصيلية ، فإن النظرية العامة للدعوة الإسلامية تذكّر بما أَمر الله به من تكاليف وقواعد ، وتصور ونيّة وفكر . إنها تذكّر بهذا كله ، ثمّ تضع النهج الذي يربط هذه التكاليف والمسؤوليات في واقع المسلمين اليوم ،

ربطاً يسهّل على المسلم ممارستها .

والنظريّة العامة هذه تعين على معرفة الخطأ وتحديده وتحديد أسبابه ووسائل معالجته ، حتى يصبح الخطأ مدرسة يتعلّم فيها المسلم أو ترسخ في ذهنه القواعد الإيمانية .

٥ - ممّ تتألف النظرية العامة للدعوة الإسلامية؟!:

تتألف النظريّة العامّة من ستة بنود رئيسة ، كلُّ بند له مسمّاه ومصطلحه ، وله تعريفه ، وله دوره ووظيفته .

وتتألف كذلك من خمس مراحل تضم البنود الستة .

٦ - ماهي البنود الستة ؟! :

أولاً : القاعدة الصلبة .

ثانياً : الركنان الرئيسان .

ثالثاً : القضايا والمشكلات الأربع الكبرى الرئيسة في الميدان .

رابعاً : عناصر التنفيذ

خامساً : المضيّ على الصراط المستقيم

سادساً : الهدف الأكبر والأسمى .

٧- ماهي المراحل الخمس للنظرية العامة للدعوة الإسلامية ؟!:

المرحلة الأولى : التزوّد بالزاد الرئيس الضروري للداعية .

المرحلة الثانية : دراسة الميدان .

المرحلة الثالثة : التنفيذ والعمل .

المرحلة الرابعة : المضيّ على الصراط المستقيم والمداومة دون توقّفٍ أو انحراف .

المرحلة الخامسة : إلى الهدف الأكبر والأسمى .

الفصل الثاني
البنـــد الأول
القاعدة الصلبـة
قضية الإيمان والتوحيـد

إن القاعدة الصلبة هي القاعدة التي تقوم عليها النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، والتي تحمل سائر البنـود ، والتي تمتد في كل بند وكل عنصر وكل جـزء ، وتسري فيها كما يسري الماء في الساق والأغصان ، أو الدم في العروق .

إنها قضيـة الإيمان والتـوحيـد . إنها القضيـة التي بعث الله من أجلهـا جميع الـرسل والأنبياء لتكـون أساس دعـوتهم وأساس بـلاغهم ، ولتكون كذلـك في مسيرتها بعد النبيّ الخاتم محمد ﷺ ، حين تتولّى الأمّة المسلمة مسؤولية الدعوة الإسلامية في الأرض .

إنها جوهـر الدعـوة الإسلاميـة وروحها وحقيقتهـا . إنها الحقيقة الكبرى في الكـون والحياة . إنها الحق الذي تقوم عليه السموات والأرض والحيـاة الدنيا والآخرة . إنها الحقيقة الكبرى في حيـاة كل إنسـان والقضيّـة الأخطر من أيّ قضيّـة أُخـرى ، والقضيّـة الكبرى والأخطـر في حيـاة كل أمّـة ، والقضيّة الكبرى والأخطـر في حيـاة البشريـة كلهـا في جميع العصور وجميع بقاع الأرض .

إنها القضيّة التي تقوم على أساس شهادتي التوحيد :

أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً ﷺ رسول الله .

إنها الهدف الثابت الأول من الأهـداف الربّانيّـة الثابتـة الستة ، كما فصّلها وحـدّدها المنهـاج الربـاني . فهي القضيّـة الأولى التي تحتـاج إلى دراسة وتـدبّـر على ضوء الـواقع ، لتَدْرُس الـدعوة الإسلاميـة أفضل سبل البلاغ والبيان على أسـاس من منهاج الله ، ولتضع النهج والتخطيط ، ولتَدْرُسَ مظاهر الخلل في الـواقع ، وتضع وسائل العلاج . إنها تحتاج إلى جهود مركّزة وعمل دائب .

وقضية الإيمان والتوحيد ، ليست مجرّد قاعدةٍ صلبة تحمل كلّ بنود النظريّة العامة للدعوة الإسلامية فحسب ، ولكنها قضيّة تظلُّ تمتدّ ويمتَدُّ أثرها في كل بند من بنود النظرية العامة وفي كل جزء منها ومن بنودها .

إنها العامل الضابط الأوّل الذي يضبط عمل كلِّ بند وجزء ، وكل نشاط للإنسان المسلم في أيِّ ميدان من ميادين الحياة ، وتنضم إليه العوامل الأخرى التي تضبط الفكر والعمل في جميع مراحله .

إنها العامل الذي يُنقّي ويوجّه ويغذّي في وقت واحد . إن الإيمان والتوحيد ينقل الإنسان نقلة عظيمة هائلة ، نقلة نقاء وتوجُّهٍ وقوة وغذاء دائم مستمّر . إن الانتساب لأي عقيدة أُخرى لا يتطلب تغييراً جوهريّاً متكاملاً في الإنسان ، ولكنّ الانتساب إلى الإسلام والتزام الإيمان والتوحيد يغيّر في المسلم الصادق فكره ونفسيته وطعامه ولباسه ، وسعيه ونهجه ، وأهدافه ووسائله وأساليبه .

إن واقع الناس في الأرض يشير إلى أن الناس لم يُنزِلوا هذه القضيّة منزلتها العادلة ، ولم يعطوها حقَّها من البذل والعطاء ، سواءاً أكان ذلك في حياة الفرد أم الجماعة أم الأمة أم البشرية كلها .

إن قضيّة الإيمان والتوحيد ليست قضية تصوُّر فحسب . إنها قضية يقوم عليها كل جهد الإنسان المؤمن . فهي قضية مفاصلة وحسم ، ولاتلتقي مع الكفر بأي صورة من الصور . وهي قضية تكاليف والتزام ، حتى تنعكس هذه القضية على واقع الإنسان في الأرض . فلا يعقل أن تكون هي القضيّة الكبرى والأخطر في الكون والحياة ، وتكون السبب الذي يحدّد مصير الإنسان في الآخرة ، ثمَّ لايكون لها أثر في الحياة الدنيا . لذلك ينشأ عنها تكاليف ربّانيّة على المؤمن أن يتلزمها وينهض إليها ليوفيها بذلاً صادقاً . وهي قضيّة مسؤولية وحساب ، من خلال ابتلاء وتمحيص كتبه الله على بني آدم في هذه الحياة الدنيا ، حتى تقوم الحجة له أو عليه يوم القيامة في موقف مشهود . فكم من رجل يدّعي

أنـه يعمل لله ، والناس لاتعلم منـه إلا مظهـره ، والله وحده يعلم مـايخفي ومـايعلن من صدق أو كذب أو نفاق .

الإيمان والتوحيـد قضيّة الفطـرة التي فطـر الله الناس عليهـا . إنها نعمة الله الكبرى على الإنسان حين أودعها في فطرته وكيانه ، وخلقه وأَسْره ، كما أودع سائر الميول والغرائز والقوى لتؤدي كل واحدة منها دورها الـذي خُلِقتْ له ، ولتعمل مع سائر الميول والغرائز والقوى لتدفع الإنسـان إلى الخير والحق ، مادامت هذه القوى والغـرائز متوازنة تعمل على النهج الذي أراده الله لها .

وحتى يتحقّق هـذا التـوازن في الفطــرة السليمـة في ابن آدم لابـد أن يستقـرّ الإيمان والتوحيد في الفطرة والقلب .

ولنـوضح ذلك نشبـه الفطرة بـالبستـان ، والغرائز والقـوى بـالغراس والأشجـار ، والإيمان والتـوحيـد بالنبع النقـيّ الغنيّ ، والنيّة الخالصـة لله هي المفتـاح الـذي يفتح نبع الإيمان والتـوحيد ليروى جميع الغـراس والأشجار ريّـاً عادلاً متـوازناً ، فتنمـو كلها نمـوّاً طاهراً متوازناً ، وتزكو الثمار التي هي عمل الإنسان لتكون تقوى وصلاحاً .

فإذا فسدت النيّة انقطع الريّ من نبع الإيمان والتـوحيد وانفتح نبعٌ آخر من أي شهوة أو قوة أخرى نمت نمواً زائداً ، حتى أخذ تأثيرها يمتدّ إلى غيرها ، حتى تصبح كأنها النبع الفاسد الذي أخذ يروي الغرائز والميول والقوى ، فيفسد الريّ ويضطرب ولايعود متوازنا ، ولاتنمو الغراس متوازنة ، ولاتزكو الثمار التي هي عمل الإنسان ، فتصبح فجوراً وفساداً .

من هنـا نرى أهميـة النيّة في كل عمـل الإنسان . إنها مسـؤولية الإنسـان الأولى التي تقرر بعد ذلك سائر أعماله ومدى ارتباطها بالإيمان والتوحيد ومنهاج الله :

ولنتدبرْ هذه الآيات الكريمة التي تصور لنـا بأسلوب ربّانيّ معجز ماعرضناه أعلاه :

﴿ونفس وماسواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها﴾

[الشمس : ٧-١٠]

ومن هذا التصوّر نرى امتداد الإيمان والتوحيد في كل جزء من أجزاء النظرية العامة ، وأثر النيّة وخطورتها في حياة الإنسان وفكره وسعيه وعمله ، وأثر الفطرة واستقامتها .

وسيبرز لنا هذا الأثر العظيم ونحن ندرس سائر بنود النظرية العامة ، بعد قليل . ولكننا هنا لابد أن نشير إلى أهمية الفطرة حتى تظل سليمة ، وحتى تظل القوى العاملة فيها تؤدي دورها العادل الأمين في حياة الإنسان ، في فكره وتصوره ، ونهجه وأهدافه ، وسعيه وعمله .

من هنا نقول إن الحق الأول للإنسان هو حماية فطرته التي فطره الله عليها . إن حماية الفطرة هو الحق الأول للإنسان ، وواجب مختلف وسائل الدعوة والتربية والإعلام وضع الخطط والمناهج التي تساعد على توفير هذه الحماية .

إن الحريّة الفردية المطلقة في ميدان الجنس والشهوات ، والحرّية بعد ذلك في وسائل الإعلام الغربي العَلماني ، محطِّم للفطرة السليمة ، مفسد لها ، ومفسد بعد ذلك للفكر والنهج والسعي والعمل ، ومفسد للميزان الذي يزن الناس به الأمور والقضايا (١)

(١) تراجع الكتب التالية للمؤلف ، الكتب التي تبحث في الفطرة وأهميتها وحق حمايتها حقاً أول للإنسان : «التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الإنتماء الصادق إلى الإسلام» : الباب الثالث - الفصل الرابع «المسلمون بين العلمانية وحقوق الإنسان الوضعيّة» الباب الخامس - الفصل الثالث . «الأدب الإسلامي انسانيّته وعالميته» : الباب الثاني - الفصل الأول .

الفصل الثالث

البند الثاني

الركنــــان الرئيســـان

المنهاج الرباني والواقع الذي يُدرَس من خلاله

إن قضية الإيمان والتوحيد تطلق طاقة الإنسان وتفتح بصيرته إذا صفا إيمانه وصدق. فيدفع الإيمان الإنسان دفعاً إلى منهاج الله ، ومنهاج الله يغذّي إيمانه ويُنَقّيه . ويمضي التأثير متبادلاً بين منهاج الله وبين الإيمان .

والإيمان الصادق عامل أَساسيّ في تدبُّر منهاج الله ، الإيمان واللغة العربية هما المفتاحان الأساسيَّان لِتَدبُّر منهاج الله - قرآنا وسنَّة ولغة عربيّة .

ومنهاج الله يدعو إلى دراسة الواقع وفهمه من خلال منهاج الله ، على أن تكون دراسة منهاج الله دراسة منهجيّة صحبة عمر وحياة ، وأَن تكون **دراسة الواقع** كذلك دراسة منهجيّة . فالركنان الرئيسيان اللذان يقومان على القاعدة الصلبةهما :

المنهاج الرباني - قرآناً وسنَّةً ولغةً عربيّة -.

الواقع من خلال المنهاج الرباني .

١ - المنهاج الرباني ودراسته دراسة منهجية - الركن الرئيس الأول :

لابد من وضع نهج وخطة لتدبُّر منهاج الله تدبّراً حقيقيا . ونرى أن يتم ذلك من خلال نظرية المنهاج الفرديّ من ناحية ، ونظرية منهج لقاء المؤمنين من ناحية أخرى . فالمنهاج الفرديّ يُقصَد منه الدراسة والعلم ، ومنهج لقاء المؤمنين يُقصد منه الإعداد والتدريب على خطوات أساسية وقواعد إيمانية ، كل ذلك من خلال منهج متكامل مترابط .

وتهدف من ذلك إلى أن يعود المنهاج الرباني ليؤدّي الدور الذي كان يؤديه في مدرسة النبوّة الخاتمة ، ليصوغ فكر المؤمن ونفسيّته وشخصيّته . وأساس دراسة المنهاج الرباني هو أن تكون دراسة متكاملة مترابطة : دراسة القرآن والسنة واللغة العربية . وتقوم دراسة القرآن الكريم على التلاوة بأحكامها على أن يكون التدبّر هو هدف كل أحكامها ، ثم الدراسة مع التدبّر ، والحفظ مع التدبّر والمراجعة وتمضي التلاوة والدراسة والحفظ والمراجعة معاً وفق خطة متناسقة . ودراسة السنة تبتدىء حسب مستوى المسلم : فأولها الأربعون النووية ، ثم رياض الصالحين ، ثم كتاب جامع من كتب السنة ، أو أحد كتب الصحاح أو السنن المسانيد . وكذلك منهج محدّد لدراسة اللغة العربيّة . وموضوعات أخرى يشملها المنهاج الفردي لتقدّم كلها نظريّة متكاملة ، تمرّ بمراحل حسب وسع الإنسان ، ولتوفّر المرونة اللازمة لملائمة كل واقع ووسع .

٢ - دراسة الواقع دراسة منهجية من خلال المنهاج الرباني - الركن الرئيس الثاني :

ويكون هذا الركن الرئيس الثاني . ذلك لأن المنهاج الرباني . أنزله الله ليمارس في واقع الحياة ، ولأن الواقع يجب أن يردّ إلى منهاج الله ، ويفهم من خلاله .

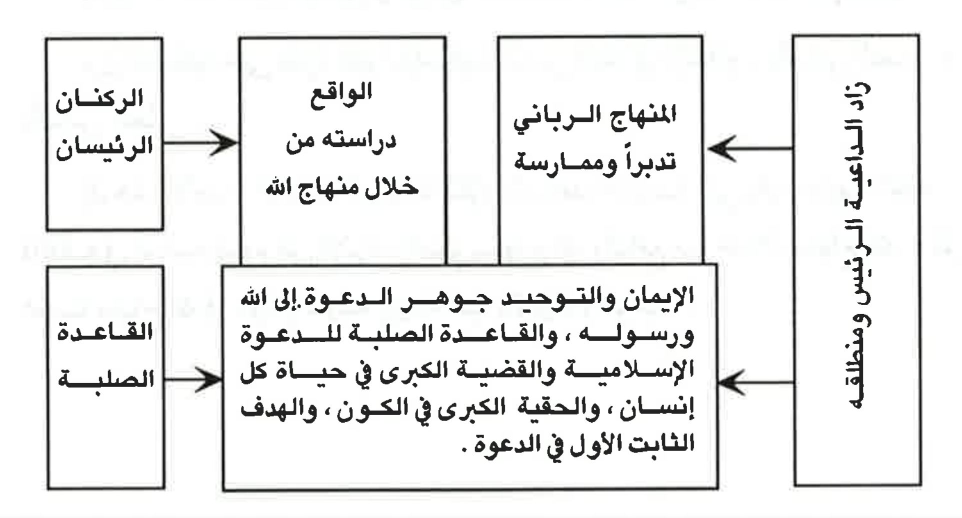
ودراسة الواقع مشمولة بنظرية المنهاج الفردي ونظرية منهج لقاء المؤمنين . ونقسم الواقع إلى ثلاثة أقسام : الواقع الشخصي الذي يدرس في اللقاء الجانبي ، والواقع الآنيّ ، والواقع المنهجي . ومن خلال دراسة الواقع الآني يؤخذ موضوع من موضعات الساعة ليدرس من خلال منهاج الله في دراسة مكتوبة ، لتمثل هذه الدراسة صورة من صور التدريب على رد الأمور إلى منهاج الله .

إن نظرية المنهاج الفردي ونظرية منهج لقاء المؤمنين ، ودور المنهاج الرباني وأهمية الواقع ودراسته نجدها مفصلة في الكتب التالية : دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية ، منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ، منهج لقاء المؤمنين . ونجد التدريب وخطته بأنواعه كلها في كتاب «**النظريّة العامة للدعوة الإسلامية – نهج الدعوة وخطة التربية والبناء** » .

إننا نجد امتداد قضيّة الإيمان والتوحيد إلى هذين الركنين الرئيسين : المنهاج الرباني والواقع الذي يُدرَسُ من خلال المنهاج الرباني . ونرى التأثير المتبادل فالإيمان يدعو المسلم ليقبل على دراسة منهاج الله وتدبره ، ومنهاج الله يعود فيغذّي الإيمان والتوحيد ، وهكذا في تأثير متبادل ماضٍ مادام المسلم يصاحب منهاج الله صحبة منهجيّة ، صحبة عمر وحياة .

ويعود المنهاج الرباني والإيمان والتوحيد يؤثران معاً في فهم الواقع ووعيه حين يُرَدُّ إليهما ، ليرسما معاً نهج دراسة الواقع وفهمه .

ويمكن أن نمثل هذه القضايا الثلاث : الإيمان والتوحيد ، المنهاج الرباني ، الواقع من خلال منهاج الله ، الأمور التي هي منطلق الدعاة وزادهم الأول ، والتي هي أساس (المنهاج الفردي) وأساس (منهج لقاء المؤمنين) ، بالنموذج التالي :



هذا هو أساس النظرية العامة للدعوة الإسلامية . يحدِّد هذا الأساسُ منطلق الدعاة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، وزادهم الأول الرئيس الذي يمضون به زاداً نامياً مع الممارسة والتطبيق .

هذا هو المنطلق وهذا هو الزاد ، ولا غناء للمسلم عنه ، ولا غناء للمسلمين بعامة ، ولا غنـاء للدعـوة الإسلاميـة عن هـذا التصوّر ، لا ليكـون شعاراً ، ولكن ليصبح نهجـاً وتخطيطـاً ، وممـارسةً وتطبيقـاً ، عمـلاً مـاضيـاً ليرتبط مع غيره من الأعمال الأُخـرى التي تكشفها لنا البنود الأُخرى من النظرية العامة .

ونرى كذلك أهميـة هذا التصور بالنسبة للفـرد المسلم ومسؤولياته ، وبالنسبـة للأمة المسلمة كلها ، في جميع العصور والأقطار .

هذا هو المنطلق وهـذا هو الزاد الأول الضروري للداعية ، الـزاد الأول الرئيس الذي يُبنَى عليـه كل زاد جديـد من خـلال المسيرة : خبرةً وتجربةً ، علماً يحتـاجه المسلمـون من العلوم التطبيقية والصناعية ، إتقاناً وإحساناً ، ونموّ ذلك كله .

ونرى تماسك هذين البندين وأجزائهما الثلاثة وترابطها حتى يتعذّر الفصل بينهما .

نرى تماسكها حتى تكون كلها بتماسكهـا أساس الفقه في الإسلام ، وأساس التصور ، وأساس العمل .

إن هذه الأجـزاء الثلاثـة المتماسكة تكوّن القـاعدة الرئيسـة التي يقوم عليهـا الفقه . فالفقـه في أساسه يقـوم على الإيمان والعلم بمنهاج الله والواقع من خـلال منهاج الله ، ثمّ ممارسة منهاج الله في الواقع ممارسة إيمانيّة غنيّة بالإيمان والتوحيد .

الفصل الرابع
البند الثالث
القضايا والمشكلات الأربع الكبرى في الميدان

فإذا نزل الدعاة إلى الميدان وجدوا أن أمامهم مشكلات كثيرة ، وخللاً واسعاً يحتاج إلى علاج . ولو بدؤوا بكل مشكلة جزئية يعالجونها بصورة منفردة لطال الأمد ، وما بلغوا الغاية . ولكن جميع هذه المشكلات يمكن أن ترتبط بواحدة أو أكثر من مشكلات أربع رئيسة ، يجب البدء بعلاجها وفق نهج محدّد وخطة مدروسة .

وهذه المشكلات الأربع الرئيسة يشير إليها ويبرزها أمام الدعاة الواقع نفسه حين يدرسونه من خلال منهاج الله . ويشير إليها ويبرزها ويبرز أهميتها ودورها منهاج الله كذلك .

إنهم يجدون أن أول هذه القضايا والمشكلات هو الخلل في التصور لقضية الإيمان والتوحيد ، والخلل في دراسة هذه القضية والتخطيط لها ، والخلل في النشاط المبذول لها والتقصير به . إنهم يجدون ضرورة البدء بهذه القضية قبل أي قضية أخرى ، وضرورة وضع النهج والخطة المفصلة للعمل من أجلها في الواقع البشري .

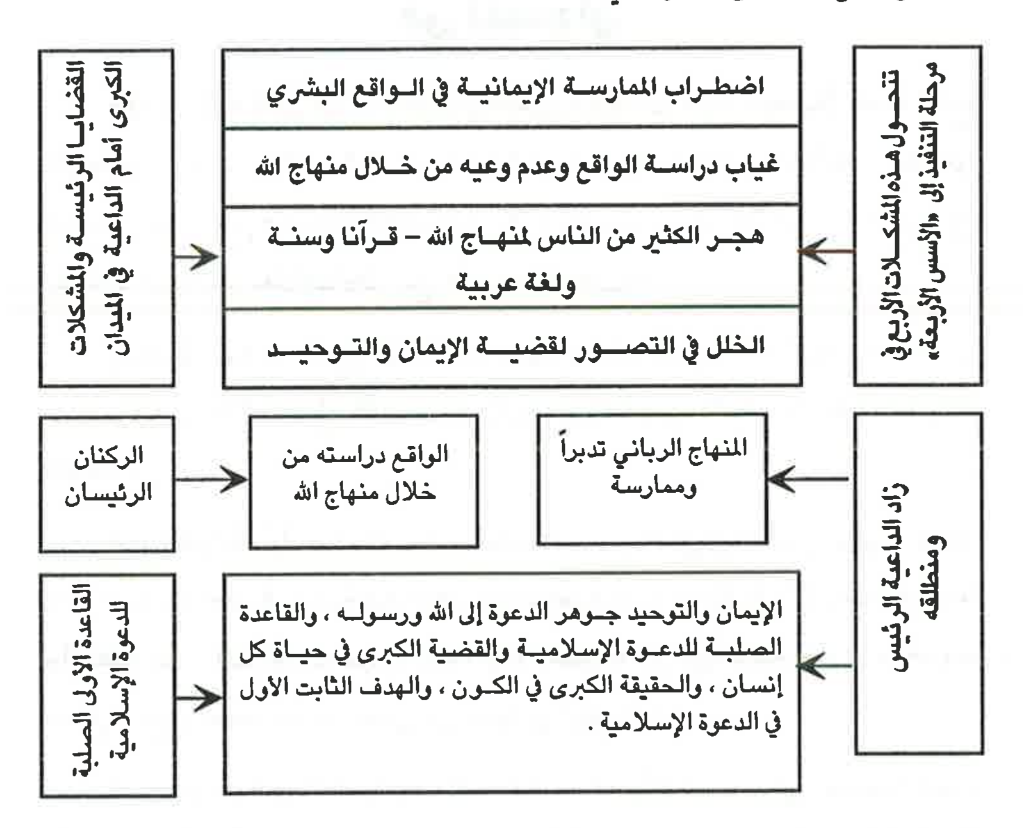
ثم يجدون أن هجر الناس لمنهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية - هي المشكلة الخطيرة التي تلي ، والتي تحتاج إلى علاج ونهج وخطة كذلك ، إنها قضية خطيرة هامة تلي قضية الإيمان والتوحيد وترافقها .

ثم تبرز القضية الثالثة ، وهي جهل الناس بالواقع وبما يدور حولهم ، وعدم محاولة فهمه من خلال منهاج الله على نهج وخطة كذلك .

ثم تبرز المشكلة الرابعة التي هي نتيجة طبيعية لوجود المشكلات السابق ذكرها ،

إنها مشكلة الخلل والاضطراب في الممارسة الإيمانية في واقع الحياة وميادينها المختلفة .

ومن هنا تنضم هذه المشكلات الأربع التي برزت أهميتها في الميدان والواقع ، أو القضايا الأربع إلى القاعدة والركنين ، لتنمو بها النظرية العامة للدعوة الإسلامية . ويمكن تمثيل ذلك على النحو التالي :



إذن قبل أن ينطلق الداعية يجب أن يكون له زاده العادل الحق ومنطلقه ، فإذا نزل إلى الميدان وجد أمامه القضايا الرئيسة والمشكلات الكبرى في ميدان الواقع ، القضايا والمشكلات التي تحتاج إلى علاج وبذل وجهد من الدعاة ، وإلى دراسته وخطة ونهج .

هذه هي المشكلات الأربع الكبرى الرئيسة . وكما ذكرنا فأي مشكلة أُخرى في

الواقع يمكن أن يـرتبط حلها بحل واحـدة من هذه المشكـلات الأربع الكبرى ، أو بأكثر من واحدة .

ولكن أخطـر هـذه القضـايـا الأربع هي قضيـة الإيمان والتـوحيـد . إن كل حلّ أو تخطيط لايبدأ بهذه القضية ومعالجتها في الواقع هو حلّ فاشل لن يصل إلى نتيجة .

وكيف يمكن الوصـول إلى حلول في واقع المسلمين إذا كـانت هذه القضيّـة لم تعالج ولم تنل من الدراسة والبذل والجهد ماتستحقه .

إن أول الـدراسـات هو محاولـة تحديـد مظـاهر الخلل والاضطـراب في التصـوّر لهذه القضيّـة الخطيرة وفي الجهـود المبـذولـة لها ، حتى يمكن بعـدئذ وضع العـلاج وأسـاليب الإصلاح ، إذن لابد من تحديد المرض قبل وضع العلاج والدواء .

نحـاول أن نوجـز هنـا أهم مظاهـر الخلل البـارزة في واقع المسلمين اليوم في قضيـة الإيمان والتوحيد :

١ - لم يُنزِلِ الكثيرون هـذه القضيّة منـزلتها العـادلة الأمينـة ، ورفعوا فـوقها قضـايا جزئية في ميدان الإسلام ، قضايا جزئية إذا قيست بهذه القضية .

٢ - اضطرب التصـور لدى كثير من المسلمين ، حتى ظن بعضهم أنـه يجب إثبات وجود الله كما تثبت وجـود أي شيء مادّي ، . وغاب عن بالهم أن قضيّـة الإيمان والتوحيد هي أولاً قضيّة الفطـرة السليمة التي لم تنحرف . فـالفطرة التي فطر الله النـاس عليها هي العـامل الرئيس الـوحيـد المشترك بين جميع خلق الله ، الفطـرة التي غرس الله فيهـا الإيمان والتوحيد ، ثم زوّدها حتى تستطيع استقبال آيات الله المبثـوثة في الكون ، واستقبال رسالة الأنبياء .

٣ - اضطـراب التصور لمعنى الألـوهية والـربـوبية ومعنى عبـودية الإنسـان لله رب العالمين ، اضطراب التصور عن التصور الحق الذي يعرضه منهاج الله .

٤ – اضطراب الـولاء والعهد الأول والحب الأكبر ، حتى لم يعـد يبدو أن ذلـك كله هـو لله رب العالمين ، لينبع منهـا بعد ذلك كل ولاء وعهـد وحب في الدنيـا . فاضطـرب معنى الخشوع والخشية ، ومعنى الرجاء والدعاء واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى .

٥ – لم تعد قضيّة الإيمان والتوحيد لـدى الكثيرين قضية مفاصلة وحسم ، ولاقضية تكـاليف والتـزام ، ولا قضيّـة مسـؤوليـة وحسـاب . فظن بعضهم أنـه حسبـه التلفظ بالشهادتين ثم ينكر الشعائر كلها وينكـر سائر التكاليف ، وربما أقام الشعائر ووقف مع أعـداء الله ضـد المسلمين بنماذج شتى مـن الانحـراف دفعت كلهـا أفـواجاً هـائلـة من المسلمين ليكونـوا في أجواء الخدر والشلل ، تعطلت قواهم ، فما عـادوا يقدّمون لـلإسلام ودعـوته شيئـاً ، هذا إذا لم يـؤذوا المسلمين . نماذج شتى من الانحراف والعجـز والتراجع برزت في واقع المسلمين .

٦ – وكان من نتيجة ذلك أن انحسرت قوى الملايين من المسلمين عن ميدان الدعوة إلى الله ورسـوله ، حتى أخـذ الميدان يبـدو خاليـاً إلا من العدد القليل بـالنسبة للمـلايين المتعطلة ، ونزل أعداء الله يلجون الميدان بقوة وبذل .

٧ – وأدى هذا الخلل نفسه إلى الخلل في القضايا الثلاث الأُخرى : هجر منهاج الله ، عدم وعي الواقع . الخلل في الممارسة الإيمانيّة .

فالقضيـة الثانية الكبيرة هي هجـر الملايين من المسلمين لمنهاج الله ، وأعـداد أخرى تتلـوه ولاتعي منه شيئـا ، وأعداد تتلـوه وتعيه ثم تخالفـه في الممارسة والتطبيق . كل هـذه الحالات ناتجة عن الخلل في الإيمان والتوحيد .

ولا عجب بعد ذلك أن يجهل الملايين من المسلمين اللغة العربيّـة ، ولا يدركوا أهمية تعلمها وإتقـانها من أجل تدبُّر كتـاب الله وسنّة رسوله ﷺ . فـزاد الخلل وزادت العقبات أمام تدبُّر منهاج الله وأمام معالجة قضية الإيمان والتوحيد .

ولاعجب بعد ذلك أن يجهل هؤلاء الذين أصاب الخلل إيمانهم ، وهجروا منهاج الله ،

وجهلوا اللغة العربية ، لاعجب أن لايعي هؤلاء الواقع من خلال منهاج الله ومن خلال التصوّر الإيمانيّ للتوحيد . لاعجب في ذلك ولكنْ هنالك حسرة وألم .

ولاعجب بعد هذا كله أن يُساء فهم الواقع ويُساء الاجتهاد ، حتى يجيز بعضهم موالاة الكافرين أو العلمانيين ، أو يدعو بدعوتهم ويقف معهم ينصرهم . ساء العلم فساء الاجتهاد .

لاعجب في ذلك كله ، ولكنّ الألم أن هؤلاء جميعهم ، أن هذه النماذج التي أصاب الخلل إيمانها ، فجهلت منهاج الله وهجرته ، وجهلت الواقع من خلال منهاج الله ، وفهمته من خلال المصالح المادية والشهوات الدنيوية ، ساءت ممارستها الإيمانيّة كنتيجة طبيعية لخلل في الإيمان وخلل في العلم .

لذلك نرى كيف أن الخلل في الإيمان والتوحيد أدّى إلى الخلل في القضايا الثلاث الأُخرى ، حتى تكوّنت المشكلات الأربع الكبرى الرئيسة في الميدان .

وكان من أخطر نتائج هذا الخلل أن تفرّق المسلمون شيعاً وأحزاباً ، وشعوباً وأقطاراً ، وتنافرت الاجتهادات وتناقضت المواقف ، وظهرت العصبيات الجاهلية ، وغلبت عاداتُها وأعرافُها ، ووجد أعداء الله منافذ واسعة يلجون منها إلى العالم الإسلامي ، إلى دياره وإلى قلوب بعض أبنائه ، يوقدون نار الفتنة بعد الفتنة ، ولهيب الصراع والشقاق والتدابر .

والألم والأسى ، والحسرة الحقيقية ، حين ترى الكثيرين من المسلمين يسقطون في وادٍ سحيق وهم يستجيبون لنداء زخارف أعداء الله من فاحشة ولهو ، ويغرقون في جحيمها ، حين داهمتهم وهم غير محصنين من قبل بصفاء الإيمان والتوحيد ، وقوة العلم بمنهاج الله ، ووعي الواقع من خلال منهاج الله .

داهمت الفتنة المسلمين وكثير منهم غير محصَّن ضدّها ، فهوى في لهيبها ووحولها ، وفي واد سحيق من الفتنة والفجور .

ومن المؤسف حقّاً أن يظل هؤلاء الذين أصاب الخلل إيمانهم بنماذجهم المختلفة ، مع جهلهم لمنهاج الله ، وفهمهم الواقع من خلال أهوائهم لا من خلال منهاج الله ، أو جهلوا الواقع ولم يبالوا به ، وساءت ممارستهم الإيمانيّة نتيجة لذلك ، من المؤسف حقّاً أن يظل هؤلاء محسوبين على الإسلام والمسلمين ، وهم لاينصرون الإسلام ، وربما خذلوه ونصروا أعداءه .

هذا كله أدى إلى انحراف الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، فاضطرب عمل الغرائز والقوى ، واضطرب السلوك والفكر والميزان ، واختلطت الأمور .

منطلق العلاج والعمل حماية الفطرة ما أمكن ، والبدء بعمل منهجيّ ينطلق من قضية الإيمان والتوحيد .

الفصل الخامس

البند الرابع

عناصر التنفيذ الثمانية

١ - تمهيد :

حين يتقدّم الدّعاة إلى الميدان ، فإنهم مندوبون إلى تحقيق أمرين رئيسين في وقت واحد : إبلاغ رسالة الله كما أنزلت على محمد ﷺ إلى الناس كافّة ، ومعالجة الخلل الذي يجدونه في واقع المنتسبين إلى الإسلام .

يتقدّم الدّعاة وهم مزوّدون بالزاد الحق من صفاء الإيمان والتوحيد ، وصدق العلم بمنهاج الله والواقع من خلاله . وهذا الزاد يُفترض أن يعينهم على سلامة الممارسة الإيمانيّة .

بذلك يكون قد تكوّن لدى الدعاة أسس أربعة متماسكة ، تكوّن لديهم الزاد الرئيس ، والمنطلق السليم ، والقوة في الزاد والمنطلق . هذه الأسس الأربعة نوجزها بما يلي :

١ - صفاء الإيمان والتوحيد ، وصدق النية وإخلاصها لله سبحانه وتعالى ، والتجرد من الأهواء والشهوات مِمّا يفسد النيّة والإيمان والعلمَ والعمل .

٢ - صدق العلم بمنهاج الله - قرآناً وسنّة ولغة عربيّة - ، علماً عن يقين وإيمان ، علماً مرتبطاً بالأساس الأول : صفاء الإيمان والتوحيد وإخلاص النيّة لله سبحانه وتعالى .

٣ - صدق الوعي للواقع ودراسته من خلال منهاج الله ومن خلال الإيمان والتوحيد ، ومن خلال ردّ الواقع إلى منهاج الله والإيمان والتوحيد .

٤ - سلامة الممارسة الإيمانية التي تعني ممارسة منهاج الله في الواقع البشريّ على أساس صفاء الإيمان والتوحيد وصدق العلم بمنهاج الله وصدق وعي الواقع من خلالها .

هذه الأسس الأربعة بتماسكها يجب أن تتوافر في الداعية المسلم الذي تقدّم إلى

الناس على أساس أنه داعية لله ورسوله ، وليس داعية إلى حزب سياسي ولا إلى ديمقراطية أو عَلمانيّة أو ماارتبط بهما من أدب وفكر وفلسفة . إنه يتقدّم إلى الناس على أنه داعية لله ولرسوله ، لإبلاغ رسالة الله كما أنزلت على رسول الله محمد ﷺ ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الأوثان والأهواء والعباد إلى عبادة الله وحده لاشريك له . ومن خلال ذلك ترد السياسة والاقتصاد والاجتماع والأدب ، لاعكس ذلك ، لا أن تأتي الدعوة إلى الله ورسوله من خلال السياسة وحدها ، أو من خلال الأدب وحده ، أو غير ذلك . إن جميع هذه الميادين تخضع لدين الله ورسالته ودعوته وليس بالعكس .

يتقدّم الداعية إلى ميدان الدعوة الإسلامية وهو مزود بهذه الأسس الأربعة . فيكون أول عمله دراسة الميدان وتحديد مشكلاته كما ذكرنا قبل الآن . لأن هذه الخطوة هي من صميم النظرية العامة التي تفرض دراسة الواقع من خلال منهاج الله .

فإذا درس الداعية الميدان من خلال منهاج الله ، تحدّدت أمامه هذه المشكلات الأربع : الخلل في تصور الإيمان والتوحيد ، هجر منهاج الله ، وعدم وعي الواقع من خلال منهاج الله ، الخلل في الممارسة الإيمانية على ضوء ذلك .

فإذا تحدّدت المشكلات الأربع الكبرى ، انطلق الداعية ليقوم بمسؤولياته والتكاليف الربانيّة التي عليه ، بحافزٍ إيمانيّ عبادة لله وطاعة ، واستجابة لأمر الله وأمر رسوله ، موقناً أن هذه التكاليف ربّانيّة ، وأنه يقوم بها طاعة لله ، وأنه محاسَب على ذلك يوم القيامة .

إنه لاينهض لهذه التكاليف الربانيّة بحافز دنيوي أو حافز حزبيّ ، ولا يلتقي الدعاة على هذا الدرب بحافز دنيوي مادي أو حزبي . يلتقي الدعاة على هذا الدرب وولاؤهم الأول لله ، وعهدهم الأول مع الله ، وحبهم الأكبر هو لله ولرسوله ، ومن هذا الولاء الأول والعهد الأول والحب الأكبر ينشأ كل ولاء أو عهد أو حب في الحياة الدنيا .

لابدّ أن تستقرّ هذه الصورة في قلوب الدعاة ، حتى تصدق نيّتهم خالصة لوجه الله

سبحانه وتعالى ، وحتى يتبيّن لهم الـدرب كله على صراط مستقيم ، وحتى تتحدّد التكاليف الربانيّة والأهداف الربانيّة ، لينطلق إليها وهو موقن أنه محاسب عليها بين يدي الله .

إن الدعـوة الإسلامية تـربط الدنيا بـالآخرة ، حتى تتـولّد الحوافز الإيمانيّـة لايعطلها غياب الحوافز المادّية ، ولاتطغى عليها إذا وجدت .

في هذه المرحلة يجب على الداعية أن ينطلق ليعمل وينفذ ، بعد أن توافر لديه شرطان :

١ - توافر الأسس الأربعة في قلبه وفكره .

٢ - أتمّ دراسة الميدان وتحدّدت لديه المشكلات الأربع الكبرى .

نلاحظ هنـا أن المشكلات الأربع الكبرى لايجوز أن تكـون مشكلات لدى الـداعية أيضاً . يجب أن تكون هذا المشكلات قد عولجت في نفس الداعية والدعاة ، حتى تحوّلت هذه المشكلات الأربع نفسها إلى الأسس الأربعة التي عرضناها قبل قليل .

ونلاحظ هنـا كذلك امتداد قضيّـة الإيمان والتوحيـد التي كانت القاعـدة الصلبة ، امتـدت هنا لتكـون أحد الأسس الأربعـة محتفظة بقـوتها كقاعـدة صلبة لتكـون القاعـدة الصلبة للأسس الثـلاثة الأخرى . وستظل قضية الإيمان والتوحيد هي القـاعدة الصلبة في أي مرحلة جديدة للبنود والعناصر التي ترتبط بها .

ونلاحظ كذلك امتـداد دور المنهاج الربانيّ الذي كان أحـد الركنين الرئيسين ، ليظل ركنـاً كذلك قـائماً على الإيمان والتوحيـد ، وليكون الأسـاس الثاني من الأسس الأربعـة ، وليكون الواقع الذي يُدْرَس من خلال المنهاج الرباني ركناً كذلك لم يفقد دوره ولا أهميته ، ولكننـا نسميه هنـا الأساس الثـالث ، لتكـوّن هذه الأسس الثـلاثـة معاً سـلامة الممارسـة الإيمانيّة التي تُصبحُ الأساس الرابع .

ترتبط هذه الأسس الأربعة دون أن يفقد أي منها دوره ومنـزلته التي أخذها في مرحلة سابقة ، تـرتبط وتتناسق معاً في هذه المرحلة الجديدة ، لتكـون كلها مجتمعة العنصر الأول من عناصر التنفيذ .

ذلك أن الداعيـة الآن ينطلق إلى مرحلة التنفيذ والعمل وهـو يحمل الشرطين السابق ذكـرهما . هنـا يحتـاج إلى أدوات وآلات للتنفيذ ، أي يحتـاج إلى مـانصطلح على تسميتـه «**بعناصر التنفيذ** » . إنه يحتاج إلى عناصر التنفيـذ التي لا يمكن أن يتمّ تنفيذ التكاليف الربّانيّـة دونها . إنه يحتاج إلى عناصر التنفيذ كما يحتـاج الزارع في البستان إلى أدوات يعمل بها في التربـة وينثـر فيها البـذور أو يغـرس الغـراس ، ويصب الماء ليروي ويضع السماد ليُغـذي ، إلى غير ذلك ممـا يحتـاجه في ميـدانـه . ولكل ميـدان أدوات وآلات للتنفيـذ ، ولميدان الدعوة أدوات كـذلك لاغناء عنها نسميها اصطلاحاً عنـاصر التنفيذ . فلا بدّ أن نستعرض عناصر التنفيذ عنصراً عنصراً :

٢ - العنصر الأول : الأُسس الأربعة :

صفـاء الإيمان . والتوحيـد ، وصدق العلم بمنهـاج الله ، ووعي الواقع من خـلال منهاج الله ، وسلامـة الممارسة الإيمانية . ومن هذا العنصر بترابطـه وتماسكه تخرج العناصر الأُخرى كلها وترتبط به وترتوي منه . ويظل كلُّ أساس محتفظاً بدوره الحقيقيّ لايُنقِصُ منه ولا يغيّره تبدُّل الموقع وتغيُّر المصطلح . وسيظل كل أسـاس من هذه الأُسس الأربعـة ممتداً في تأثيره ودوره في جميع المراحل مدة المسيرة كلها .

إن هذا العنصر الأول - الأسس الأربعة - هي التي تطلق سـائر العناصر من ناحية ، وهي التي تهبهـا خصائصهـا وتبني طبيعتها وتغـذيها وتوجّههـا ، لتظل العناصر كلهـا ، وليظل الدعاة كلهم ، وليظل العمل كلـه ، ماضياً على «**الصراط المستقيم** » ، ماضياً في سبيل الله ، ذاكراً الله في كل خطوة وحركة

إن كل أساس من هذه الأسس ممتدُّ الدور والتأثير . هـذه طبيعته وهذه خصائصه . إنه دور رئيس أساس لاغناء عنه .

لابد أن يحرص العمل الإسلاميّ على توافـر هذه الأسس الأربعة ، العنصر الأول من عناصر التنفيذ ، لأنه لن يصلح العمل لافي الدنيا ولا في الآخرة بغير هذه العناصر .

لذلك لابدَّ للدعـوة الإسلامية أن تقوم بالدراسـات اللازمة ووضع النهج والتخطيط وبذل كل الجهود ، لتوفير هذه الأسـس الأربعة في الدعاة ، لأنها هي العنصر الأول الذي لاغناء عنه .

ونجد هذا النهج والتخطيط في الكتب الأخرى التي تناولت كل موضوع بالتفصيل ، تعرض نظريته ونهجـه ومناهجه التطبيقية والنماذج العملية ، مما يمكـن الرجوع لها . ولابد أن نؤكـد ثانية أن كل أساس من هـذه الأسس الأربعة لايفقد دوره ولاينقص أثره بـامتداده من مرحلة إلى مرحلة .

٣ - العنصر الثاني : النهج (المنهج) الإيمانيّ للتفكير : (١)

إن أول واجب على الـداعية في مـرحلة التنفيـذ وفي المرحلتين السابقتين هـو أن يفكر تفكيراً إيمانياً على نهج إيمانيّ . وهذا التفكير الإيماني تكليف من عنـد الله للإنسان : **﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفـرادى ثمّ تتفكّروا مابصاحبكم من جنّة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾** [سبأ : ٤٦]

و إننا لنجد في كتاب الله دعوة ملحّـة بالتفكير بأساليب متعدّدة تعطي لهذه القضيّة أهميتها ، وترسـم لها نهجها . والأساليب المتعددة نستطيع أن نضعهـا في نوعين : اسلوب مباشر : «تتفكروا » ، «يتفكرون» ، «يتدبّـرون » ، «يتذكر » وغير ذلك . أو بأسلوب غير مباشر : أفلا ينظـرون إلى الإبل كيف خلقت » ، قل سيروا في الأرض ثمّ انظروا كيف كان عاقبة المكذّبين » .

والآيات التي تدعو إلى التفكير بأسلـوب مباشر أو غير مباشر آيات كثيرة جداً تجعل قضية التفكير في حياة الإنسان المؤمن قضية رئيسة هامة في الحياة .

على الداعية أن يفكـر أولاً ، وأن لايعطّل هذه الطاقة الكـريمة التي أنعم الله بها على الإنسان .

(١) يراجع كتاب « النظـرية العامة للـدعوة الإسلامية – نهج الـدعوة وخطة التربية والبنـاء » للمؤلف – الباب : التاسع – الفصل الأول .

والأسس الأربعة التي هي العنصر الأَول للتنفيـذ ، هي التي تطلق التفكير وتحدّد له نهجه واتجاهه وأهدافه ، وتهبه الطاقة والقوة .

وللنهج الإيماني للتفكير خصائصه الإيمانيّـة التي تميّزه عن النهج المادي العلماني ونهج الكـافرين الملحـدين والمشركين والوثنيين . ومنهـاج الله يبيّن بالتفصيل خصـائص النهج الإيماني للتفكير . ولا بأس أن نشير هنا إلى بعض أهم خصائص هذا النهج :

١ – إنه نهج يحمل المسؤولية في الدنيا والآخرة .

٢ – إنه مرتبط بالنيّة ثمّ بالأسس الأربعة السابق ذكرها ، وبالفطرة وماأودع الله فيها .

٣ – إنه نهج متوازن ، عادل ، دقيق ، أمين ، بعيد عن الغلوّ أو التقصير .

٤ – إنـه نهج يتحوّل إلى سعي وعمل وتطبيق في الـواقع ، ولايظلّ في نطـاق النظريـة والأماني فحسب .

٥ – إنه بهذه الخصائص ينال أعمق بعد إنساني .

٦ – إنه نهج يعرف مداه وحدوده التي فتحهـا الله له في الكون والحياة والواقع ، حتى لاتتبعثر طاقته سدى .

٧ – إنـه يعـود إلى التوبـة والاستغفـار إن أخطأ أو زلّ ، ليظل على الصراط المستقيم الصراط الذي يمثل الصفة الأولى العامة له .

٨ – إنه يسعى دائماً إلى نموّ الإتقان والإحسان .

٩ – إنه مـرتبط بذكر الله حتـى ينال الأمل والاطمئنان ، والخشيـة ، واللجوء إلى الله والاستعانة به .

١٠– إنه يبتدىء مع ذكر الله بالنهج والتخطيط ، ويمضي مع الدراسة والمراجعة وينتهي بـالتقـويم الـدوري ، ليتابع المسيرة على استقـامـة ووضـوح . وبإيجاز فإن النهج الإيمانيّ للتفكير يعرف نهجه وأهدافه ، فيمضي على نور وعلى قواعد ربّانية .

فإذا صحّ هذا النهج الإيماني للتفكير عنـد الداعية ، فإن أول مايقـوده إليه هو النهج والتخطيط للقضيـة التي هـو مقبل عليهـا . ومـن هنـا يأتي العنصر الثـالث من عنـاصر التنفيذ .

٤ - العنصر الثالث : النهج والتخطيط العام للدعوة الإسلامية :[١]

إن القضية التـي يعالجهـا التفكير الإيماني هنا هي قضيـة الدعـوة الإسلاميـة . فهو يبتـــدىء بـــالنهـج والتخطيط العــــام لها ، حتى يبتعــد عـن الارتجال وردود الفعل ، والاضطراب والتناقض .

وينطلق النهج والتخطيط العام من النهج الإيماني للتفكير ومن الأسس الأربعة التي سبق ذكرها .

ويمكن في هـــذا الموجـــز أن نعــرض بشكل سريع أسس النهــج والتخطيط وأهم عناصره على النحو التالي :

١ - النية وإخلاصها لله سبحانه وتعالى .

٢ - تحديد الدرب ومعالمه ، الدرب الذي يؤدّي حقيقة إلى الأهداف الحقيقية .

٣ - تحديد الأهداف الواضحة الجلية :

أ - الهدف الأكبر والأسمى .

ب - الأهداف الربانيّة الستة الثابتة :

ب-١ : الدعوة إلى الله ورسوله .

ب-٢ : التربية والبناء ، والإعداد والتدريب .

ب-٣ : بناء الجيل المؤمن .

---

(١) يراجع المصدر السابق للمؤلف : الباب الثالث - الفصل الثاني .

ب-٤ : الجهاد في سبيل الله بمعناه الحقيقي الرباني المنهجي .

ب-٥ : بناء الأمة المسلمة الواحدة .

ب-٦ : عمارة الأرض بحضارة الإيمان .

جـ- الأهداف المرحلية .

٤ - تحديد الوسائل والأساليب : مصاحبة منهاج الله مصاحبة منهجية مصاحبة عمر وحياة ، المنهاج الفردي ، منهج لقاء المؤمنين ، الخطة اليومية والأسبوعية ، والسنوية ، التدريب على الممارسة الإيمانيّة ، التقويم الدوري ، الكتاب المنهجي ، الأدب الإسلامي ، المؤسسات الإيمانيّة ، الإعلام الإيماني ، النظام الإداري ، إمكانات المجتمع ومؤسساته ، معالجة الأخطاء ، الاستفادة من السنن الربانية في الحياة والكون ، وسائر مايعرضه منهاج الله من وسائل وأساليب .

٥ - تكامل ميادين الدعوة الإسلامية وتساندها .

٦ - التقويم الدوري .

٧ - الطاقة البشرية المؤمنة .

٨ - جمع المعلومات والإحصائيات وترتيبها :

وهذه الخطوة ضرورية من أجل الدراسات والأبحاث التي يقوم عليها النهج والتخطيط . فكل خطوة من خطوات النهج والتخطيط يجب أن تقوم على دراسات وأبحاث ، والدراسات والأبحاث تحتاج أحياناً إلى معلومات وإلى إحصائيات حتى تتجنّب الظنّ وتقترب من اليقين .

وإن كل خطوة تكشف لنا أيضاً أهمية الطاقة البشرية ودورها الخطير في رسم النهج والتخطيط . فعلى الطاقة البشريّة المؤمنة يقوم عبء هذه المسؤوليّة الخطيرة .

فالنهج والتخطيط بهذا التصور يحدّد الرؤية ويعين على تحديد الرأي والموقف مع الأحداث .

والطاقة البشريّة المؤمنة يجب أن تكون طاقة مدرّبة أفضل التدريب على مايعهد إليها من دور في هذه المرحلة أو تلك .

إن جمع المعلومات وتبويبها والإحصائيات وترتيبها ، عمل هام يحتاج إلى كفاءة وقدرة . والتدريب يُنَمّي هذه الكفاءة والقدرة ، حتى يُتقَن العمل .

ثمّ تأتي مرحلة أخرى بعد الجمع والترتيب والتبويب . هذه المرحلة هي الإستفادة من المعلومات والإحصائيات من أجل وضع الخُطّة ورسم النهج .

لذلك كان التدريب عنصراً هاماً من عناصر النظريّة العامة للدعوة الإسلامية ، سواءً أكان ذلك في التربية والبناء والإعداد ، أم في الإدارة والتنظيم ، أم في النهج والتخطيط .

ذلك لأن النهج والتخطيط نفسه يحتاج إلى إعداد الطاقة البشرية المؤمنة القادرة في كل ميدان من ميادين الدعوة .

إن الخطة اليوميةو الأسبوعية ، والشهرية والسنوية ، والمنهاج الفردي ومنهج لقاء المؤمنين ، ونماذج التقويم وميزان المؤمن ، كل ذلك وسيلة من وسائل التدريب على النهج والتخطيط .

والنهج والتخطيط يوجّه العمل ويضبط مسيرته ، ويوحد الجهود ، ويكشف العيوب والأخطاء والانحرافات لمعالجتها .

والنهج والتخطيط يُوجد لغة مشتركة بين العاملين في الميدان ليسهل التفاهم والتقارب والتعاون ، ويُوجد بذلك أساساً للقاء المؤمنين .

والنهج والتخطيط عمل ينمو مع الممارسة والتطبيق ، وتنمو قواعده وتتسع آفاقه ، حتى يصبح لدى المسلمين علماً نابعاً من الأسس الأربعة متميزاً عن النهج والتخطيط المادي العلماني بنهجه ومسيرته وأهدافه وأساليبه ووسائله .

والنهج والتخطيط ضرورة لإعداد القوة الإيمانية وبناء الصف الواحد كالبنيان المرصوص .

النهج والتخطيط الإيماني عمل طاهر واع بعيد عن الغدر والخيانة والغش . وتظل الأخلاق الإيمانيّة جزءاً منه .

والنهج والتخطيط يحوّل الشعارات من هتافات وحناجر إلى عمل واع وعقل مُفكِّر في الواقع البشري ، عمل يبلغ به المؤمنون الأهداف الربانيّة .

والنهج والتخطيط يقوم على دراسات مفصّلة واعية . والدراسات تقوم على جمع معلومات وترتيبها وتيسير الاستفادة منها ، ليعتمد النهج والتخطيط على حقائق لا على وهم تائه وخيال مريض .

والنهج والتخطيط يحتاج إلى تدريب عمليّ عليه ، إلى تدريب الطاقة المؤمنة عليه . والتدريب يحتاج نفسه إلى خطة ومناهج .

ولقد قدَّمنا مناهج متعدّدة للتدريب على النهج والتخطيط في مدرسة الدعوة الإسلامية ، مثل : التخطيط للمنهاج الفردي ، والتخطيط لمنهج لقاء المؤمنين ، والتخطيط للخطة : اليومية والأسبوعية والسنوية ، والتخطيط للتقويم الأسبوعي والشهري والسنوي ، والتخطيط للتدريب ، وغير ذلك . ولا بد أن يستمر التدريب وينمو وتنمو مناهجه وأساليبه على نفس الأسس الإيمانية .

ونرى هنا كيف أن القاعدة الصلبة والركنين الرئيسين تمتدُّ في جميع الخطوات والمراحل ، لا يُنقص من ذلك تغيّر المرحلة والمصطلح التابع لها .

٥ - العنصر الرابع : النهج والتخطيط لكل ميدان تخوضه الدعوة الإسلامية :

ينطلق النهج والتخطيط لكل ميدان من : النهج والتخطيط العام ، ومن النهج الإيماني للتفكير ، ومن الأسس الأربعة . وتظل هذه تمتدّ مع كل عنصر جديد .

والميادين ممتدّة واسعة في الحياة ، وهي متعددة كذلك . وقد تنمو وتتسع مع الحياة وتزداد تنوّعاً وعدداً .

ونورد بعض الأمثلة على هذه الميادين التي لايجوز للدعوة أن تخوضها دون وجود نهج خاص لكل ميدان وخطة متصلة به :

ميدان الدعوة والبلاغ .

ميدان التربية والبناء .

ميدان التدريب على الممارسة الإيمانيّة .

ميدان الأدب الملتزم بالإسلام ودوره في الدعوة الإسلامية .

ميدان الجهاد في سبيل الله .

وتمتد الميادين إلى السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك من الميادين التي تظل تتفتّح مع الممارسة الإيمانية في الواقع البشري .

ولاينجح التخطيط لكل ميدان إذا لم يكن امتداداً للعناصر الثلاثة السابقة وامتداداً للبنود السابقة كلها .

وذكرنا هنا ميدان التدريب على الممارسة الإيمانية كأنه ميدان مستقل ، مع أنه جزء لايتجزأ من ميدان التربية والبناء نظرياً وتطبيقاً . لقد أفردنا له باباً مستقلاً ودراسة خاصة به لأهميته وشدة إهماله في واقع المسلمين وواقع الدعوة الإسلامية ، وفي نشاطهم التربوي وميادين البناء والإعداد ، حتى كأن كلمة التدريب أصبحت تنحصر في أذهان الكثيرين بالتدريب العسكري ، وما هي كذلك . ولقد فصّلنا فيها نقصده من التدريب في هذا الكتاب في أبواب مقبلة ، لنرى هناك نظرية التدريب ونماذجه التطبيقية :

التدريب الفوري ، والتدريب الدوري ، والتدريب المرحلي ، والتدريب المستمر ، على الممارسة الإيمانية .

وكـان من الممكن أن نجعل ميـدان الإدارة والنظـام أحد الميـادين التي تحتـاج إلى نهج وتخطيط خاص به . ولقد آثرنا أن نجعلـه عنصراً لإبراز أهميته ودوره . ولكنه يظل يحتاج إلى نهج وتخطيط ، ودراسات وأبحـاث منهجيّة إيمانيّة خـاصة بـه . وكذلك سيظل كل عنصر آخر مقبل في هـذه النظرية العامـة يحتاج إلى نهج وتخطيط خاص ، وكذلك كل بنـد فيها ، وكذلك كل عمل يقوم به المؤمن . ونضع من أجل توضيح ذلك القاعدة التالية :

لايبـدأ المؤمن عملـه إلا بشرطين هما : النيّة وإخـلاصهـا والنهج والتخطيط لعملـه . ويمضي فيه بشرطين : الإشراف والإدارة ، ولاينتهي منه إلا بشرطين : المراجعة والتقويم .

٦ - العنصر الخامس : الإدارة والنظام :

كنا نعتبر هـذا العنصر جزءاً من العنصر الثالث الذي هـو النهج والتخطيط العام ، أو ميدانـاً من ميادين العنصر الرابع . ولكن رأينـا أن للإدارة والنظـام وضوابطهما ضرورة كبيرة في العمل الإسلامي ، فرأينا أن نبرزها لتكون عنصراً من عناصر التنفيذ .

إنه العنصر الذي يحدِّد المسـؤوليات والصلاحيات بين جميع المستـويات وينسّق بينها لتصبُّ الجهود كلها في مجرى واحد .

والإدارة بمعناها الإيماني تساعد على إنجـاز أكبر قدر من العطاء ، بأعلى مستوى من الإتقان ، وبأقل وقت ممكن ، مع استيفاء شروط الممارسة الإيمانية والعمل الصالح .

وهي تـوفّر المراقبة والإشراف ، والمتـابعة والتـوجيه ، والتنسيق والتعـاون بين مختلف الأفراد ومختلف المستـويات . وهي توفـر التناصح وبيـان الرأي وممارسـة الشورى . وهي بخصائصهـا الإيمانية كلها تمثل صـورة من صور (الممارسـة الإيمانية) ، فتوفـر بذلك سبل النمو والتطور وغير ذلك من الخصائص الإيمانيـة التي تتميز بها الإدارة الإيمانية ، وتصبح أساساً من أسس الشورى في الإسلام . (١)

(١) يـراجع كتاب : (الشـورى وممارستهـا الإيمانية) للمـؤلف - (ط : ٣) الباب الحادي عشر - الفصل الثـاني - (ص : ٥٨١-٥٩٤) لـدراسة الإدارة كأسـاس من أسس الشورى في الإسـلام . ويراجع كتـاب : (التوحيـد وواقعنا المعاصر) للمؤلف -ط : ٣) - البـاب الثـالث - الفصل الرابع - (ص : ٢٤٣-٢٧٦) لدراسة الممارسة الإيمانية وخصائصها . ويراجع كتاب : «فقه الإدارة الإيمانيّة في الدعوة الإسلامية» للمؤلف .

ومن أهم قضـايا الإدارة الإيمانيّـة هـو تنظيم الوقت ، والاستفـادة منـه في طاعـة الله لإغناء الإنتاج في واقع الأمة .

ولو نظـرنا إلى واقع المسلمين اليوم لـوجدنـا أن وقتاً كثيراً يهدر بين سوء التـدبير وسوء التقديـر . وقلَّ احترام الوقـت وتقديـره وتدبيره بين المسلمين ، كنتيجة طبيعيـة للخلل في القضايا الأَربع الكبرى ، حتى أصبح من الجمل الشـائعة بين بعض الناس : «تعالَ نقتل الوقت» ! (١)

الوقت في نظر الإسلام عبادة وطـاعة . فكل عمل المسلم ، إذا أخلص فيه نيّته لله ، هو عبـادةوطاعـة . وفي نظر الغرب العَلماني الـرأسمالي أو الشيوعي الـدكتاتـوري ، يكون الوقت مالاً كما يجرى المثل السائر بينهم "Time is Money"

والإدارة لاتختصُّ بميدان دون ميدان ، ولكنهـا تمتد إلى كافة ميـادين الحياة ، فالإدارة تبتدىء في حياة المسلم نفسه ونشاطه ، وفي البيت والأسرة .

والروابـط بين العاملين يجب أن تكـون روابط إيمانية ، وتمتـد النظرة إلى العـالم الآخر والغيب والإيمان والتـوحيد ، ولاتنحصر في التصـوّر المادّي ، وتظل النيّـة وإخلاصهـا لله عاملاً رئيساً في توجيه العمل .

ويجب أن تعمل هـذه الخصـائص كلهـا على احترام النظـام ، وعـدم التفلّت تحت أعذار تُبنى على تصور خاطىء للروابط الإيمانيّة .

ويجب أن تتوافر في الإدارة الإيمانيّـة الحوافز الإيمانية دون أن تتعطل بـالحوافز المادية . ولكن هذه تغذي تلك ، وتلك تغذّي هذه ، ويظل التأثير متبادلاً .

والإدارة الإيمانيـة تحتـاج إلى الـرجـال المدرّبين من خلال مـرحلـة التربيّـة والبنـاء ، والإعداد والتدريب .

---

(١) منهج المؤمن بين العلم والتطبيق للباب الثـالث - الفصل الخامس . واقع المسلمين أمراض وعـلاج : الباب الأول : الفصل السادس . النظرية العامة للدعوة الاسلامية : الباب الأول - الفصل الأول .

مهما تكن القوانين والنهج والخطة ، فإن ذلك كله يحتاج إلى الطاقة البشرية التي تتوافر فيها ثلاث خصائص رئيسة :

١ - صفاء الإيمان والتوحيد وقوة العلم .

٢ - الكفاءة والموهبة .

٣ - التدريب العملي .

ومن أهم مظاهر نجاح الإدارة الإيمانيَّة إنزال كل عامل منزلته العادلة ، وكل كفاءة في مكانها ، وكل موهبة في مستواها .

الإدارة الإيمانيّة ترعى المواهب المؤمنة وتغذيهاوتطور قدراتها وكفاءتها .

ومن أهم حاجات الإدارة الإيمانيّة الناجحة أن يعرف كل عامل مسؤولياته وحقوقه ، وكذلك حدوده حتى لايتجاوزها ، وحتى يسهل التنسيق بين مختلف المستويات والعاملين .

وفي الإدارة الإيمانيّة تتساند الأقسام المختلفة وتتعاون بروح طيبة وتعاون كريم وخلق جميل ، حتى تحقق الإدارة أهدافها الإيمانيّة .

ويظل الإشراف والمراقبة ، والتوجيه والإرشاد ، والإعداد والتدريب ، يظل هذا كله ماضياً في الإدارة الإيمانية ، سمة من سماتها البارزة .

٧ - العنصر السادس : ميزان المؤمن :[١]

جميع الشعوب والمؤسسات في جميع العصور تلجأ إلى اختيار هذا أو ذاك لمركز من مراكز المسؤولية أو لوظيفة أو لمهنة . وكلّ جهة تضع قواعد تتبناها للاختيار ، حسب معتقدها وتصوّرها . هذه القواعد تمثل ميزاناً يوزن به الناس ليُختار أفضلهم من خلال

(١) يراجع كتاب : «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق » للمؤلف : الباب الخامس .

الاجتهاد البشريّ الذي لاغناء عنه ولابُدّ منه .

جميع هذه الموازين يمكن أَن نقسمها إلى نوعين : موازين تقوم على أساس المصالح المادية الدنيوية ، والروابط الدنيوية ، تصهر في داخلها المواهب والطاقات ، والوسع والكفاءة . وميزان إيمانيّ يقوم على أَساس الإيمان والتقوى ومنهاج الله والواقع الذي يُدْرَس من خلال منهاج الله .

لقد اعتادت الديمقراطية الرأسمالية ، والديكتاتورية الاشتراكية وغيرهما من الفلسفات المادّية ومصطلحاتها ، لقد اعتادت هذه أن تضع موازينها على أساس المصلحة الدنيوية والنظرة المادية ، لتزن بها الناس والقضايا . ثم تتخذ هذه الموازين المادية كافة الوسائل والأساليب والإمكانات لتحقّق من خلال ذلك كلّه ومن خلال الموازين مصلحتها المادية الدنيوية معزولة عن الآخرة .

وهذه القوى الطاغية التي جعلت مصالحها المادّية أساساً للفكر والسياسة والاقتصاد وخلاف ذلك ، تطبّق موازينها المادّية بعد أن تجرّد معظم الناس من سلامة الفطرة وصفاء الإيمان والتوحيد ، وتعزلهم عن منهاج الله وحقائق الواقع الذي يدرس من خلال منهاج الله ، وتخدّرهم بالجنس والشهوات والحرّية الفردية المتفلّتة في ميدان الفواحش ، وتلهيهم بالتنافس على الدنيا والصراع على لهوها وشهواتها ، وإثارة العصبيات الجاهلية في أكبر مساحة من الأرض يمكنهم إفسادها .

إن هذه الموازين المادية مفسدة لحياة الإنسان على الأرض ، قاتلة لمصالحه الحقيقية في الدنيا والآخرة ، ملهبة للفتنة بين الناس ، مثيرة لكل نوازع الشر من حسد وحقد وكراهية وضغائن ، تثير « **الحروب والدمار** » تحت شعار «**السلام** » وتنزل «**الظلم والعدوان** » في الأرض تحت شعار «**الحرّية والعدالة** » ، وتنهب الشعوب وتذلُّها تحت شعار **حقوق الإنسان** .

والنـاس مخدّرون يُلقى إليهم شيءٌ يُلهَوْن بـه ، وغافـون في وهم وأحلام تُـزَيَّن لهم ، لايفيقون إلا على دويّ السـلاح المدمّر ، وتـدفّق الدماء وتطـاير الأشـلاء ، ثمّ يعودون إلى غفوتهم .

لذلك كان لابدّ من طرح «**ميزان الايمان**» كجزء من رسالة الإسلام نظريّةً وممارسة . إنه «**ميزان منهاج الله** » ، حتى يزن المؤمن بـه نفسه والناس والقضايا مـن خلال اجتهاد بشريّ في الممارسـة والتطبيـق ، يحتمل الصـواب والخطأ ، ولكـن لايحتمل الخطأ في الأسس التي يقـوم عليها ، ولا في تصـورها وارتبـاطها بمنهـاج الله وبالإيمان والتـوحيد . إنها أمـانة تتحقّق بصدق النيّة وصدق العلم ، ومداومة الممارسة لتنمو التجربة ولتزكو إتقاناً وإحساناً .

إنَّ المنزلة التي يأخذها المسلم من خلال تطبيق هذا الميزان الإيماني ، لاتعني أنها هي المنزلة التي يأخـذها في الآخرة عند الله . ففي الدنيا جهـد بشري واجتهاد بشري في ممارسة قواعد إيمانيّة ربانيّة ، وفي الآخرة تقوم الموازين القسط التي لاتخطىء أبداً ولا تظلم أحداً :

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلَم نفس شيئاً و إن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء : ٤٧]

ولكننا في الـوقت نفسه مكلَّفـون أن نجتهد في هذه الحيـاة الدنيا في ممـارسة القـواعد الإيمانيـة في واقع الحياة ، كلٌّ على قـدر وسعـه الصادق ومسـؤوليتـه وميدان عملـه . فإذا صدقت النيّـة وصدق العلم بمنهـاج الله وجب السعي لدراسـة الواقع وفهمـه من خلال منهـاج الله ، كلٌّ قدر وسعـه وطـاقته ومسـؤوليتـه . ولكن لا يُعْـذَر من يقصّر في الوفـاء بمسؤوليته أو يتراخى عنها أو يهرب منها .

و إنزال الناس منازلهم أمر من عند رسول الله ﷺ ، فهو من عند الله سبحانه وتعالى :

فعن عائشـة رضي الله عنها قالت : « أمرنـا رسول الله ﷺ «**أن ننزل النـاس منازلهم** » [رواه مسلم والحاكم][(١)]

(١) مسلم : في مقدمة صحيحه . الحاكم : في كتابه «معرفة علوم الحديث» وقال هو حديث صحيح » .

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ .. وأوفوا الكيل والميزان ولاتبخسوا النـاس أشياءهم ولاتفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [الأعراف : ٨٥]

إنه أمر من عند الله لعبـاده أن يلتزموا هذا الوفاء بـالكيل والميزان وعدم بخس الناس أشياءهم وعـدم الإفساد في الأرض . والتزام ذلك هـو خير للناس جميعاً في حياتهم الـدنيا وصلاحهم في الدنيا والآخرة .

فلا بدّ إذن أن يكون بين النـاس ميزان يزِنُون به ، أو أن يكون بين أيـديهم قواعد هذا الميـزان حتى يسهل ممـارستهـا على ضـوء الـواقع البشري المتجـدد ، وحتى يضعـوا النهج والخُطة والنموذج لذلك .

ولقد كان أمر الله لعباده المؤمنين أكبر من ذلك . لم يكن التكليف الربّاني محصوراً في إنزال النـاس منازلهم وعـدم بخسهم أشياءهم وعـدم الإفساد في الأرض بـالبخس وبعدم الإيفاء بالكيل والميزان ، وإنما كان ممتداً إلى جميـع شؤون الحياة وميادينها ، ليردّ الناسُ جميع قضاياهم التي يختلفون فيها إلى منهاج الله ، وجعل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر شرطاً من شروط الإيمان لايخرج عنه إلا منافق أو كافر :

﴿ يـاأيها الذين آمنـوا أطيعوا الله وأطيعـوا الـرسول وأولي الأمـر منكم فإن تنازعتم في شيء فـردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تـؤمنون بـالله واليـوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ [النساء : ٥٩]

وكذلك :

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [الشورى : ١٠]

وتتوالى الآيات والأحاديث لنؤكد هذه القضيّة الهامّة في دين الله ، ليكون منهاج الله هو الميزان الحق بين أيدي المؤمنين يردّون إليه ما يختلفون فيه من قضايا .

وعند ممارسة هذه القواعد يحتاج الإنسان إلى اجتهاد . فوضع الله أُسساً للاجتهاد عند تطبيق هذه القواعد . ومن أهم هذه الأسس : صدق الإيمان وصفاء التوحيد وإخلاص النيّة لله ، والعلم بمنهاج الله علماً يسمح بردّ القضايا إليه ، وعلماً بالقضيّة والواقع يسمح كذلك بردّه إلى منهاج الله . ووضع الله سبحانه وتعالى ضوابط تلجم الهوى وتحجز الإنسان عن الميل عن الحق ، وتلزمه اتباع الحق مع جميع الناس على أساس من منهاج الله . ومن هذه الضوابط والأسس نذكر الآيات الكريمة التالية :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ [النساء : ٥٨]

وكذلك :

﴿ فلا وربّك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء : ٦٥]

وكذلك :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا و إن تلووا أو تُعرِضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ [النساء : ١٣٥]

ماأحوج البشريّة اليوم إلى هذا الميزان الإيماني . ماأحوج الشعوب كلها والدول الكبرى والصغرى وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن وسائر المؤسسات الدوليّة التي ترفع الشعارات المزخرفة ثمّ تسحقها في ميدان التطبيق ، حتى عمّ الفساد الأرض وامتدت

الجريمة وانتشر الفجور ، حتى صار هذا كله في عرف بعضهم أساس الميزان والمفاضلة .

وما أحوج المسلمين اليوم إلى هـذا الميزان ليتعاملوا به في قضايـاهم كلها ، وما أحوج الدعاة المسلمين في الأرض إلى أن يمسكوا بهذا الميزان ليمارسوه في واقعهم .

ومـا كان الله سبحـانـه وتعـالى ليأمـر الناس أن يُنـزِلـوا النـاس منازلهم ، وأن يـردوا الأمانات إلى أهلها ، وأن يحكمـوا بين الناس بالعدل ، وأن يكونوا قـوّامين بالقسط شهداء لله دون أن يـوفر لهم تفصيل ذلك حتى ييسر على النـاس ممارسـة ذلك من خلال اجتهـاد بشري مستوفٍ لشروطه الإيمانيّة التي سبق ذكرها .

إن الذي يُمارَسُ اليـوم في معظم بقاع الأرض ميـزانُ الهوى والمصالح ، مهما حـاولت الشعاراتُ والزخارف إخفاء ذلك .

ولو نظرنـا إلى واقع الانتخابات التي تعتزّ الديمقراطيـة بها ، الانتخابات التي تُمارَس في أنحاء واسعـة من الأرض ، كي يختار الشعب ممثليه . لهذا المجلس أو ذاك ، لو نظـرنا إلى ذلك لهالنا الأمر ، ولعجبنا وتساءلنا ماهو المسوّغ للديمقراطية لأن تعتزّ بذلك .

إنها صورة مفزعـة أو محيّرة . إنها انتخابات تُنشر فيها أسـوأ الفضائح عن المتقدّمين إليها . ويتقـدم الناس إلى الانتخابات ، وقـد دفعتهم قوى كثيرة إلى صناديق الانتخـابات تحدّد لهم من ينتخبـون . إنها إما قـوى حـزبيّة أو دعـائية وإعـلام هـادر ، أو أموال تُفـرَد تُشتَـرى بها الضمائر والنفوس ، أو مصـالح مادّية دنيويـة تربط هذا وذاك وتحدّد الاتجاه . وكأنما هذه القوى ، بصورة أو بأخرى ، تجرّد الناس من ضمائرهم وتعطل فكرهم ، وتشلُّ عقولهم ، فقـد كَفَتْهُمْ هذه القوى الخفيّة والظـاهرة مؤونة التفكير واتخاذ القـرار . إن هذه القوى كانت تشغل الناس الزمن كله حتـى تلهيهم بالسفاسف وتخدرهم بالخمور والنساء وسـائر الشهـوات ، ثمّ تتـابع هـذه السيـاسـة قبل الانتخـابـات وبعـدهـا . ويُسمُّـون الانتخابات حينا « معركة » وحيناً آخر «لعبة » .

وبعـد انتهاء اللعبـة أو « المعـركة » تـدور لعبة جـديـدة ومعركـة جـديدة ، وتتـوالى التصريحات حول نـزاهة الانتخـابات أو عـدم نزاهتهـا . ثم لو سألت نفسك عـن الميزان الذي سارت عليه اللعبة الأولى والثانية ، فلا تجد إلا تنافس المصالح المادية الدنيوية مجرّدة من الإيمان معـزولة عن التصـوّر للدار الآخـرة ، ولا تجد إلا موازين مضطـربة بـالأهواء . ويدور النزاع حول نزاهة الانتخابـات أو الاتهام بالتزوير . والأغرب من ذلك كله أنك قد تجد من يستعين بخبراء أجـانب ليشرفـوا على الانتخـابـات حتى تكـون نـزيهة ، وليكـون قرارهم هو القرار النهائي بالنزاهة أو عدمها .

وعجبـاً كلّ العجب! فما حاجـة من لايطمئنّ هـو إلى نزاهتـه ونـزاهة مـؤسساتـه ، ولايطْمأَنَّ إليها ، فما حـاجته إلى أن يدعو غيره ظـاناً به النزاهـة التي يفتقدها هو وتفتقـدها مؤسســاته . ومهما تكن نتائج الانتخابـات فكيف يُطْمَأَنُّ إلى المسيرة بعدها والثقـة مفقودة والقلوب مشحـونة ، والأنظار كلها معلقـة في الدنيا منصرفـة عن الأخرة ، حين أصبحت الدنيا هي موضوع التنافس !

هذا نهج رأينـاه في واقع البشرية المعـاصِر يمارَس بأشكال مختلفـة بين ديكتاتـورية أو ديمقـراطيــة أو عَلمانيـة أو غير ذلـك من المسمّيـات . ولنُسَمِّ هــذا النهج : نهج الهوى والمصالح .

أما النهـج الآخر ، وهو النهـج الحقّ ، فإننـا نسمّيه «**النهج الربّاني** » ، إنه النهج الـذي يضع القـواعد والأسـس والتفصيلات من أجل الاختيـار . ولكنـه قبل ذلك يُعِـدُّ المجتمع المؤمن الذي يحكمـه الإيمان ومنهاج الله ، ويعدُّ الرجل الذي يَخْتـار ويعرف كيف يَخْتَار ، والرجُلَ الذي إذا اختير رعى الأمانة وحفظ العهد وأوفى .

إنها مسـؤولية الأمـة المسلمة ، ومسـؤولية الـدعوة الإسـلامية أن تبني الأجيـال التي تعرف هذا النهج الربّاني وتدرّبه عليه حتى يمتدّ وينتشر ويصبح طبعاً وسجية .

ونُسَمِّي الميزان الذي يقوم على هذا النهج الرباني ليوزَن الناسُ به «**ميزان المؤمن**» .

ويهدف هذا «**النهج الربّاني**» «**وميزان المؤمن**» الذي يقوم عليه ، إلى أن تظلّ الأُمة المسلمة كلها صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص ، تجمعهم الثقة المتبادلة ، والعلم الممتد والإيمان المغروس ، والمواهب المتفتحة العاملة .

ويهدف هذا «**النهج الرباني**» «**وميزان المؤمن**» إلى أن يأخذ المسلم مكانه الحق ، فلا أحد يأخذ مكاناً أعلى من قدره ، ولايتجاوز أحد حدوده ، ولايحمل أحد أكثر من وسعه .

ومن أجل سَلامَة الممارسة في الواقع يمكن أن نذكّر بالقواعد العامة التي وصفها الإسلام لسلامة هذه الممارسة .(١)

١ - معالجة النفس البشرية وإصلاحها بوسائل متنوعة : الإيمان ، العلم ، قواعد خلقية مباشرة ، كالنهي عن الحسد والظلم وغير ذلك ، محاسبة النفس ، التناصح ، الشورى .

٢ - تكامل القواعد وتناسقها وترابطها لتنطلق كلها من الإيمان والتوحيد ومنهاج الله .

٣ - قواعد الإمارة وحدودها ، متابعة الأُمور وإبداء الرأي عن علم لا عن جهل ، وعن جهد وبذل لا عن كسل ، معرفة المسلم لحدوده ، حق الاجتهاد في حدود المسؤوليات .

وكل قاعدة لها قواعد جزئية تفصّلها . والقواعد الجزئية أيضاً ليست وهماً بشرياً ولكنها جزء من المنهاج الربّاني .

فميزان المؤمن هو الأُسلوب الوحيد البديل عن أسلوب الهوى والمصالح . وهو قواعد ربانية لابد من تعلُّمها والتدرُّب علَى ممارستها ، والإدبار عنها إقبال على الهوى والتصورات البشرية دون حجّة من قرآن أو سنة .

وممارسة ميزان المؤمن في الواقع هو اجتهاد يقوم به المؤمن ، كأيِّ اجتهاد يقوم به عند

(١) يراجع كتاب : «منهج المؤمن بين العلم والتطبيق» للمؤلف : الباب الخامس - الفصل الأول .

ممارسة سائر القواعد . فإذا صدقت النيّة وبذل المسلم جهده ، فله أجر على اجتهاده إذا أخطأ وأجران إذا أصاب ، إذا صدقت النيّة والعزيمة والبذل ، وإذا كان اجتهاده في حدود مسؤولياته وعلمه .

وممارسة ميزان المؤمن في الواقع لاتُعتبر شهادة يؤديها المؤمن بحقّ من طُبّق عليه الميزان ، فيعاقب عليها إذا أخطأ ، يعاقب عليها بين يدي الله ، أوفي الدنيا . كلاّ ! إنه اجتهاد بشريّ لابدّ للناس أن يقوموا به ليختاروا أهل المسؤولية هنا أو هناك . لابد للناس أن يختاروا ، والاختيار اجتهاد في جميع حالاته ، والاجتهاد أقرب للتقوى اذا قام على أساس من نهج ربّاني وقواعد ربانية . ولكن الحساب قائم إذا فسدت النية وهبطت العزيمة وفسد العمل .

ولميزان المؤمن الذي نقدمه في الصورة المرفقة فوائد ومميزات نوجزها فيما يلي :

أولاً : أُسلوب غير مباشر لمحاسبة النفس ، نفس الذي يُطبّق الميزان . فمع كل نقطة يجتهد بها في حق أخيه ، كأنه يسأل نفسه كم هو ملتزم بها . فهو باب من محاسبة النفس والتذكير .

وثانياً : هو باب لمحاسبة النفس فيما جهل من نقاط الميزان . فهو يسأل نفسه لماذا لايعرف هذه النقطة عن أخيه ، والإسلام يأمرنا بالتعارف والاختلاط . فهل الخلل فيه ؟ هل هو مقصّر أم غير مقصّر ؟!

وثالثاً : هو امتداد « للدراسة النامية » ، مرتبط بها ، يظل يُذكّر المسلم بواجباته ومسؤوليّاته في هذه الحياة الدنيا ، قبل أن يطويه الأجل .

ورابعاً : هو باب حماية للدعوة الإسلامية ، ينضم إلى سائر أسباب الحماية ليوفّر الأمن والطمأنينة . وهو سبب من أسباب بناء الثقة وجمع الكلمة حين يعلم كل فرد الأسس التي يتمّ بها الاختيار والترشيح على أساس الاجتهاد الذي لا غناء عنه .

٤ – معرفة المسلمين بعضهم بعضاً : الاختلاط بالناس ، الروابط الإيمانيّة وحقوقها وواجباتها ، الشعائر ، الآداب الاجتماعية ، الأخلاق الإيمانية وحقوق المسلم الفرد وواجباته .

٥ – إقامة ميزان عادل أمين يوزن به الناس لتعرف منازلهم .

هـذه ، كما نعتقد ، هي القـواعـد الرئيسـة التي تجمع سـائر النقاط الأُخـرى من أجل تيسير ممارسة النهج الربـاني . فهذه القواعد الرئيسة ومايتبعها كلهـا نسميها النهج الربّاني . وإحدى قواعد هذا النهج الرباني هو وجود ميزان عادل أمين يوزن به الناس لتُعرف منازلهم . ونسمي هذا الميزان العادل الأمين **«ميزان المؤمن»** !.

ونوجز هنا هذه القواعد لميزان المؤمن دون تفصيلات :

١ – الإيمان والتقوى ومظاهرهما والأمارات عليهما .

٢ – العلم : بمنهاج الله – قـرآناً وسنـة ولغة عربيـة – ، وبعد هـذا العلم الأساسي تأتي علوم تخصصية .

٣ – الفطرة والمعدن .

٤ – الموهبة والوسع .

٥ – الخبرة والمران ، والعمل والممارسة .

٦ – الحكمة والحُجّة .

٧ – السنّ والشيبة وارتباطهما بالعمل المقصود .

٨ – الأسرة والبيت .

٩ – البذل في سبيل الله وقتاً وجهداً ومالاً ، وامتداد البذل واستمراره .

١٠ – النهوض إلى الدعـوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيـد ، وسائر التكاليف الربّانيّة ، نهوضاً واعياً على صراط مستقيم لدراستها وتدبّرها .

ولكن ممارسة هـذا الميزان تحتاج إلى تدريب في مـدرسة الدعوة الإسـلامية ، تدريب

نظري وعمليّ ، حتى يتقن المسلم ممارسته في واقع الحياة وفي مختلف المجالات ، على أساس من نموذج محدّد لهذا الميزان .

إنها مسؤوليّة الدعاة الذين يتقدّمون إلى الميدان أن يُعدُّوا أنفسهم ويتزوّدوا بالزاد الضروري الذي أمر الله به ورسوله من أجل الدعوة الإسلامية ، وأن يقوموا بالتدريب الأمين على هذا الميزان وعلى غيره من قضايا التدريب الفوري والدوري والمرحلي والمستمر.

وفي جميع الحالات تظل الممارسة لميزان المؤمن صورة من صور التدريب المستمر الذي تنمو معه الممارسة وتزكو.

ولا يُطلب من المسلم أن يملأ المعلومات المطلوبة في النموذج كلها دفعة واحدة ، وإنما يملأ مايعلم أو مايقدر على الاجتهاد فيه ، ويترك مايجهله وما يعجز عن الاجتهاد فيه . وتظل المعلومات تنمو مع نموّ جهد المؤمن وممارسته .

ومهما تكن المعلومات التي تقدّم قليلة أو كثيرة فإنها مفيدة تعين على تحقيق المطلوب ، إذا صدقت النيّة والعزيمة والجِد في ممارسته للميزان لينال المسلم أجره ، وإذا استمّر المؤمن مُضِيّاً على الصراط المستقيم ليساهم في تحقيق الأهداف الربّانيّة الثابتة على درب ممتدٍ إلى الهدف الأكبر والأسمى - الدار الآخرة ورضوان الله والجنّة - .

إن ممارسة «**ميزان المؤمن**» تدريب في حدّ ذاتها ، تدريب مستمرّ يوفّر فرص النموّ والتطوّر ، والإتقان والإحسان . إنه تدريب على الميزان نفسه ، وعلى محاسبة النفس . وهذه الممارسة تدريب على النهج والتخطيط والتقويم والتذكير بقضايا هامة وقواعد رئيسة .

ومن أهم هذه القضايا التدريب على مغالبة العصبيات الجاهليّة سواء أكان ذلك في الروابط العائلية أو الصداقات الشخصية أو العلاقات الإقليمية والقومية ، أو الحزبية .

والإسلام حريص على صياغة جميع الروابط الطبيعية في الحياة ، والروابط الإيمانيّة صياغة إيمانيّة طاهرة طيّبة .

لقد كان هـذا الميزان غائباً عن واقـع المسلمين زمناً طويلاً . ولكنّـه كان مطبّقا أروع تطبيق وأدقّه في حياة الرسول ﷺ ، وهو يدرّب أصحابه رضي الله عنهم على ممارسته .

ونوجز في نهاية هذه الكلمة أهم فوائد ممارسة ميزان المؤمن ممّا ذكرناه سابقاً .

١ - أن يأخذ كل مسلم مكانه المناسب بصورة أقرب للتقوى .

٢ - محاسبة النفس وتذكيرها بقضايا أساسيّة في الإسلام .

٣ - توفير الفرصة العمليّة للتدريب على قضايا إيمانيّة رئيسة مثل النصيحة ، الرأي ، الاجتهـاد في حدود المسـؤوليـة والوسع ، محاسبـة النفس ، النهج والتخطيط ، التقـويم ، حسن الإدارة الإيمانيّة وصفاؤها .

٤ - اطمئنان النفـوس عامة على أن الاختيار يتمّ على أسـاس قواعد ربّانيـة معلنةٍ في نهج معلنٍ ، عرفه الجميع ، خالٍ من المناورات والمفاجآت .

٥ - توافر أساس لمحاسبة من يخطىء متعمداً في تطبيق الميزان ، ومحاسبة من يتمّ اختياره .

٦ - إقرار مبـدأ الوضـوح في الحياة الإسلاميـة ، الوضوح الصـادق والطاهـر وإبعاد حركات ما « وراء الكواليس » و « اللعبة » ، و «المعركة » .

٧ - توفير فرصة ليتنافس المسلمون على تحقيق أسس ربّانيّة ، بدلاً من التنافس على كسب القلوب بالـدعايات الانتخابية التي يأباهـا الإسلام شكلاً وموضوعاً ، ومـا تحتاجه من بذل جهود وأمـوال ، أحرى أن تنفق في غير هذا السبيل الذي قـد يُوقع المسلم في آثام هو بغنى عنها .

٨ - إعطـاء فرصـة أوسع لتطييب القلـوب المؤمنـة ، ولتظلّ رضيّةَ مـادامت الأمـور تجرى على أسس إيمانيـة واضحـة ، حتى تتكـاتف الجهود على طـاعـة الله ، بـدلاً من أن تتناحر وتتمزّق في أجواء قد يدخلها شياطين الإنس والجن .

ميزان المؤمن

طريقة تعبئة الميزان : تم تقسيم موضوعات الميزان إلى ثلاثة مستويات :

البند : (يأخذ الدرجة الكبرى) ، مثال (أولا – الإيمان والتقوى) .

الفقرة : (تأخذ جزءاً من الدرجة) ، مثال (أ – مظاهر الإيمان والتقوى في حياته الخاصة) .

الفرع : (يأخذ الجزء المتبقي من الدرجة) ، مثال (أ- ١ – مظاهر الولاء وارتباطه بالولاء لله) .

فعند وضع درجة التقدير يتم وضع كل درجة في المستوى المحدد لها ، ثم يوضع مجموع البند في الخانة المخصصة له .

البند والفقرة والفرع	الدرجة			التقدير		
	البند	الفقرة	الفرع	البند	الفقرة	الفرع
أولاً - الإيمان والتقوى : **أ- مظاهر الإيمان والتقوى في حياته الخاصة :**						
أ – ١ – مظاهر الولاء وارتباطه بالولاء لله .						
بر الوالدين : وعدم تحولها إلى عصبية جاهلية						
صلة الرحم : وعدم تحولها إلى عصبية جاهلية						
موالاة المؤمنين : وعدم تحولها إلى عصبية جاهلية						
موالاة الأصدقاء : وعدم تحولها إلى عصبية جاهلية						
وغير ذلك من الموالاة : وعدم تحولها إلى عصبية جاهلية						
وسائر الروابط الإيمانية : وعدم تحولها إلى عصبية جاهلية						
أ-٢ – مظاهر الصدق في العهد وارتباطه بالعهد مع الله						
أ – ٣- الشعائر : الفرائض						

تابع ميزان المؤمن

البند والفقرة والفرع	الدرجة			التقدير		
	البند	الفقرة	الفرع	البند	الفقرة	الفرع
النوافل						
أ - ٤ - مظاهر مغالبة هوى النفس والاستجابة لأمر الله عن فهم وعلم						
أ-٥ - مظاهر الإيمان في العمل والوظيفة						
ب - مظاهر الإيمان والتقوى في الحياة العامة :						
ب - ١ - النشاط العام على أساس الإيمان والتوحيد						
ومنهاج الله ونهج الدعوة						
ب - ٢ - مظاهر الإيمان في النشاط والعلاقات الاجتماعية .						
ب -٣- الاهتمام بقضايا أمة الإسلام وربطها بمنهاج الله						
ب-٤- مظاهر أخرى						
مجموع درجات البند						
ثانياً : العلم :						
١ - القرآن الكريم						
تلاوته						
دراسته						
حفظه						
٢ - السنة						
٣ - اللغة العربية						
٤ - الواقع						
٥ - فقه الدعوة						

تابـع ميزان المـؤمـن

البنـد والفقـرة والفـرع	الدرجـة			التقديـر		
	البند	الفقرة	الفرع	البند	الفقرة	الفرع
٦ - العلوم المساعدة						
٧ - العلوم التخصصية ومدى ارتباطها بموضوع الميزان						
مجموع درجات البند						
ثالثاً - المعدن والفطرة						
١ - فطرة الإيمان والتوحيد : مدى وضوحها وعدم انحرافها						
٢ - الكرم						
٣ - الوفاء						
٤ - الشجاعة						
٥ - الصدق						
٦ - التواضع						
٧ - الصبر						
٨ - الروية وعدم التسرع						
٩ - الجد وعدم المزاح						
١٠ - احترام المواعيد						
١١ - تجنب الغيبة والنميمة						
١٢ - العمل بالتيقن لا بالظن						
١٣ - الميل إلى الحركة وعدم السكون						
١٤ - القدرة على كظم الغيظ وضبط النفس						
مجموع درجات البند						

تابع ميزان المؤمن

البند والفقرة والفرع	الدرجة			التقدير		
	البند	الفقرة	الفرع	البند	الفقرة	الفرع
رابعا - المواهب والقدرات :						
أ - المواهب البارزة والإبداع والأمارات الدالة عليها مثلا (أديب مبدع ، مؤرخ مبدع ، . .)						
أ- ١ - مواهب أخرى : موهبة مناسبة للعمل المطلوب						
أ- ٢ - موهبة أخرى .						
أ-٣ موهبة أخرى :						
أ-٤ - موهبة أخرى .						
ب - القدرة على التنظيم والإدارة						
ج - القدرة على التخطيط						
د - القدرة على التعبير و إبداء الرأي وعرض الفكرة						
هـ - القدرة على متابعة المسؤوليات						
و - مظاهر وأمارات تدل على قوة الذكاء والتفكير الإيماني :						
و - ١ - الشهادة والمعدل .						
و - ٢- المبادرة الذاتية بصورة إيمانية						
و - ٣- التميز بإتقان العمل						
و - ٤ - مظاهر أخرى						
مجموع درجات البند						
خامساً : السن والشيبة وعلاقتهما بموضوع الميزان والخبرة المكتسبة بهما						
سادساً - التزام المؤمن وعطاؤه في الدعوة الإسلامية :						

تابـع ميزان المـؤمـن

البنـد والفقـرة والفـرع	الدرجـة			التقديـر		
	البند	الفقرة	الفرع	البند	الفقرة	الفرع
أ - التزامه في المنهاج الفردي						
ب - التزامه في منهج اللقاء						
ج - التزامه في الأسرة والبيت :						
١ - اللقاء العائلي الأسبوعي						
٢ - التزام الزوجة بالدعوة الإسلامية عهداً ونهجاً وحركة						
٣- التزام الأولاد بالدعوة الإسلامية عهداً ونهجاً وحركة						
د - الالتزام في البلاغ والبيان وتنمية الدعوة الإسلامية						
هـ الالتزام في تحقيق الأهداف الربانية للدعوة الإسلامية						
و - الالتزام بنشاط إداري ، وتحمل المسؤولية ، وإعطاؤها الوقت اللازم						
ر - الالتزام بعهده النابع من عهده مع الله						
ح - استمرار الالتزام والعطاء ونمّوه						
مجموع درجات البند						
سابعاً - البيت :						
أ - الزوجة والتزامها بالإسلام (الشعائر والعبادات)						
ب - الأولاد والتزامهم بالإسلام (الشعائر والعبادات)						
ج- وعيهم لحقيقة الإيمان والتوحيد						
د - ارتباطهم بمنهاج الله تلاوة ودراسة وتدبراً						
هـ مستوى تربيتهم وأخلاقهم						
و - ارتباطهم بدين الله ودعوته						
مجموع درجات البند						

تابـع ميزان المـؤمـن

البنـد والفقـرة والفـرع	الدرجـة			التقديـر		
	البند	الفقرة	الفرع	البند	الفقرة	الفرع
ثامناً - مظاهر وأمارات تدل على نقاط ضعف مميزة :						
١ - الإدانة						
٢ - شبهات						
٣ - الجدل والمماراة						
٤ - المراوغة وعدم الدقة والوضوح						
٥ - الإعجاب وتزكية النفس						
٦ - عدم وجود عطاء في البلاغ والبيان والتنمية						
٧ - عدم المساهمة في تحقيق الأهداف الربانية للدعوة						
٨ - مظاهر أخرى						
مجموع درجات البند						
مجموع درجات القوة						
مجموع درجات الضعف						

عاشراً - التقويم العام :

أ - المجموع الكلي والدرجة النهائية (   )

ب - المستوى العـام لشخصيته كلها : (ضعيف ، متوسط ، جيد ، جيـد جداً ، ممتاز) : (   )

ج - مدى قوة تأثره بالآخرين أو تأثيره على الآخرين وميزان ذلك :

....

....

ج - مدى صلاحيته لهذا العمل أو ذاك (إذا كان مكلفاً بعمل أو مرشحاً له) :

....

....

٨ - العنصر السابع : المؤسسات الإيمانيّة :

المؤسسات الإيمانيّة هي كل مؤسسة تقوم منذ بداية تكوينها على أساس الإيمان والتوحيد ، وعلى أساس منهاج الله ، ثمّ تمضي في ممارسة إيمانيّة تطبق المنهاج الربّاني في واقعها بنيّة صادقة لتكون جزءاً من بناء الأمة المسلمة ، وصورة عمليّة تطبيقيّة لمنهاج الله .

إن هذه المؤسسات الإيمانيّة ضرورة للدعوة الإسلامية ، حتى يرى الناس الإسلام وهو يمارس عملياً في واقع الحياة ، فيقبل الناس عليه حين يرونه عملياً أمام أبصارهم وأسماعهم ، يحمل إليهم الصدق واليقين ، ومطابقة الشعار للممارسة .

لقد أساء الكثيرون للإسلام حين رفعوه شعاراً ولم يطبقوه ممارسة ، حتى غلب سوء ظن الناس ببعض الدعاة لتناقض الأقوال والأعمال .

لانعني بذلك الخطأ ، فكل بني آدم خطاؤون ، وخير الخطائين التوابون . ولكننا نعني حين يكون النهج المطبّق مخالفاً للإسلام ، وحين تكون النظرة مرتبطة بالدنيا ، غير مشرقة بنور الإيمان بالله واليوم الآخر .

لقد نجح العلمانيون وأهل الدنيا بتحقيق زينتهم وزخارفهم في واقع الحياة ، يخدّرون بها الناس ، ويصدّون بها عن سبيل الله . وقدّموا للناس علماً وصناعة يدعم نجاح عَلمانيّتهم في الدنيا ، ويُدَعِّمُ طغيانهم وظلمهم وإفسادهم في الأرض ، ولم يوفّق الكثيرون إلى تقديم الإسلام نهجاً عمليّاً في واقع الحياة ، ليرى أهل الأرض كلهم كيف أن شعاراتهم تطبّق في الإسلام خيراً من تطبيقهم وأشمل وأعدل ، سواء أكان ذلك في حقوق الإنسان ، أم ميدان القضايا ، أم في الاقتصاد والسياسة أم البيت والأسرة ، أم سائر نواحي الحياة .

إن الناس يريدون أن يـروا الإسلام بامتداده وشموله ، وعـدله ورحمته مطبقاً في واقع الحياة البشرية ، لتكون الممارسة حجّة تنضم إلى سائر الحجج .

إنها مسـؤولية كل مسلم وكل داعيـة ، مسؤوليـة كل دعـوة إسلاميـة وكل مؤسسـة تنتمي إلى الإسلام .

٩ - العنصر الثامن : التقويم الدوري : (١)

التقويم الـدوريّ هو آخـر خطوة في مسيرة التنفيـذ . إنه يمثل عمليـة ضرورية لكل نشـاط ولكل خطوة ومسيرة . وكما ذكـرنا قبل فإن المؤمن لايبـدأ عمله إلا بـالنيّة الخالصـة والنهج والتخطيط ، ثم يمضي في عملـه مع إشراف ومراجعـة وتـوجيه ، فإذا انتهى فإنـه يقوم بمراجعة المسيرة كلها وتقويمها .

والتقويم يعني تحديـد الأخطاء حتى تُجْتَنَب ، وتحديد الصـواب حتى يُتّبع ، وتحديد مستوى الإتقان فيما هو صواب ودرجة الإحسان فيها ، ووسائل تنميته وتحسينه .

التقويـم غائب عن حياة قطـاع كبير من المسلمين . وكأن الكثيرين لا يـريدون أن يَرَوا أخطـاءهم ولا أن يجابهوها ، ولا أن يحاولـوا علاجهـا . وفي مثل هذه النفسيّـة تتعطّل الدراسات والأبحـاث ، ولا تُبْلَغُ درجةُ الإتقان والإحسان ، ويمـوت التناصح ، ويغيب النهج والتخطيط ، وينتقل الناس من فشل إلى فشل ، ومن هزيمة إلى هزيمة .

يبدأ التقـويم بردّ الأُمـور إلى قواعـد الإيمان والتوحيـد وإلى منهاج الله ، ويمضي مع محاسبة النفس ، من خلال مراجعة دقيقة أمينة تجمع المعلومات وترتبها .

ويحتـاج التقـويم إلى نظـام إداري ، وإلى شـورى وتنـاصح وتعـاون ، كلُّ ذلك على أسـاس من عمل منهجـيّ مـدروس ومخطط لـه ، يقـوم على نظـام محدّد يبيّن الـوسـائل والأساليب ، والمسؤوليات والصلاحيات .

(١) يراجع كتـاب : النظريـة العامة للـدعوة الإسـلامية - نهج الـدعوة وخطة التربيـة والبناء : البـاب الثامن - الفصل الرابع .

لذلك لابدّ أن يكون التقويم دورياً على ضوء العمل الذي يراد تقويمه فقد يكون التقويم يومياً ، أو أسبوعياً ، أو شهرياً أو سنوياً . لابد أن يكون التقويم دورياً منهجياً إدارياً . فهو جزء من النظريّة العامة كما نرى ، وهو جزء من النظام الإداري ، وهو جزء من خطة التدريب والتربية والبناء .

إن إغفال التقويم إغفال لعدد غير قليل من قواعد الإيمان وقواعد منهاج الله ، ولكن يجب أن نلتفت إلى أن لايتحوّل التقويم الدوريُّ إلى عمل آليّ لاحياة فيه .

إنها مسؤولية الطاقة البشرية المؤمنة المدرّبة ، أن تظل تبعث فيه الحياة والقوة بمقدار ماتصدق النيّة والعلم والخبرة .

إن التقويم الدوري المنهجي يمثل استجابة لأمر الله وأمر رسوله ، استجابة للآيات والأحاديث حول ذلك :

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدّمت لغدٍ واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون ﴾ [الحشر : ١٨]

وهو تدريب على الممارسة الإيمانية ، وحماية للمؤمنين من أن تتجمع الأَخطاء وتتراكم حتى تحجب الرؤية وتمنع الإصلاح . وهو إغلاق للمنافذ التي يمكن أن يلج منها شياطين الإنس والجنّ وأعداء الله ليفسدوا على المؤمنين أمرهم .

و «**ميزان المؤمن**» ، الذي هو العنصر السابع من العناصر التنفيذية ، مثل على التقويم ونموذج من نماذجه . ويأخذ التقويم نماذج مختلفة حسب القضيّة والنشاط والعمل .

ولقد قدمنا بعض النماذج على بعض الأنشطة الإيمانية . مثل التقويم الأسبوعي لمنهج لقاء المؤمنين وإدارته ، والتقويم الأسبوعي لأداء المسلم ، وكذلك التقويم الشهري ، ثم التقويم السنوي للدعوة الإسلامية إنَّ هذه النماذج تهدف إلى التدريب في ميدان التربية والبناء ، وإلى التقويم ذاته .

والتقويم ، كما ذكرنا ، يحتاج إلى التدريب عليه ، وإعداد الكفاءات القادرة على اتقانه . وهو يحتاج إلى قدرة على الموازنة الدقيقة .

* * * *

إذا كان التقويم يمثل الخطوة الأخيرة من عناصر التنفيذ ، فلا يعني هذا أن التنفيذ انتهى وتوقف . إن عناصر التنفيذ تمثل العناصر التنفيذيّة الضروريّة في كلّ مرحلة من مراحل التنفيذ . والتنفيذ في حياة المؤمنين ، وفي الدعوة الإسلامية ، ممتدٌ حتى يلقى العبد ربّه بالنسبة للفرد المسلم ، وممتدّ حتى قيام الساعة بالنسبة للأمة المسلمة . وكيف يتوقّف التقويم والأمة المسلمة مكلفة بمسؤوليات ممتدَّة مع الزمن كلِّه حتى قيام الساعة .

يوم القيامة يحاسَبُ الفرد ، وتحاسب كلُّ أمة :

﴿ وترى كلَّ أمّة جاثيَةً كلُّ أُمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ماكنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون ﴾
[الجاثية : ٢٨، ٢٩]

الفصل السادس
البند الخامس
المضيُّ على الصراط المستقيم
دون توقّفٍ أو انحراف
مع الإتقان والإحسان

إن مسيرة الدعوة الإسلامية في الأرض يجب أن تمضي على صراط مستقيم ، الصراط الذي بيّنه الله لنا وفصّله في المنهاج الرباني ، الصراط الذي أمرنا الله باتباعه وحده ، وعدم اتباع سواه :

﴿ وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : ١٥٣]

فعن عبدالله بن مسعود قال : خط لنا رسول الله ﷺ خطاً بيده وقال : « هذا سبيل الله مستقيماً » وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ الآية الكريمة (١)

ومن أين لنا أن نعرف هذا الصراط المستقيم ؟! إن منهاج الله هو المصدر الحق الذي يفصّل ذلك . فهل يعقل أن يأمرنا الله باتباع صراطه المستقيم دون أن يبيّنه لنا ؟!

﴿ اتّبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴾ [الأعراف : ٣]

وجاء كتاب الله ليُبيّن ويفصّل :

﴿ الر كتاب أحْكِمَتْ آياته ثمّ فُصّلَت من لدن حكيم خبير ﴾ [هود : ١]

إذن من منهاج الله نعرف هذا الصراط المستقيم لنتبعه وحده ، ولا نتبع سواه .

(١) تفسير ابن كثير للآية .

وكان لابدّ أن نبرز هـذا البند في النظرية العامـة للدعوة الإسلاميّة ، لشـدّة ماحدث من انحـراف واضح عن الصراط المستقيم ، ولشـدّة التنـاقض والاضطراب الـذي نجـده اليوم في واقع المسلمين في الأرض .

فمن الناس من يقـول إن الديمقراطيّـة من الإسلام ، وإن محمداً ﷺ كان يـدعو إلى الديمقراطيـة . وقيل مثل ذلك عن الاشتراكية ، ثم انطلق دعاة مسلمـون يطوفون الأرض ويدعون إلى الديمقراطية ، ولكن أين ؟ في البلاد التي تدعي أنها تقيم الديمقراطية . نسي هؤلاء أنهم دعاة مكلفون بدعوة الناس إلى الإسلام ، إلى دين الله ، إلى رسالة الله إلى خلقه .

وجاء آخـرون يقولـون إنه لا اختـلاف بين العَلمانيّة ومقصـود الشريعة الإسـلامية . وآخـرون ينـادون : لاتحاربوا العَلمانيّـة إنها تحمي المسلمين وتعطيهم حقـوقهم . وآخـرون يرون الحداثة من الإسلام .

وتمتـد الـدعوات بـاسم الإسـلام لتجعل الإسـلام في دعـواهم حـداثياًوديمقـراطيـاً واشتراكيا وعَلمانياً .

لقـد أصبحت الجرأة على دين الله كبيرة ، وأصبح الكثيرون ممن ينتسبون إلى الإسـلام يريدون أن يسوّغوا انحرافاتهم بتأويلات فاسدة ، وأهواء مريضة .

ولقـد رددنـا على معظـم هـؤلاء في دراسـات منهجيّـة صـدرت في حينهـا . ولكن الانحراف يمتد ويزيد .

كان لابد إذن من إبراز هذه القضية ، قضيّة أمر الله لنا باتباع صراطه المستقيم .

ولابـد من البيان والتأكيـد أن الله سبحـانـه فصّل هذا الصراط المستقيم تفصيـلا في المنهاج الرّباني .

ولابـد من البيـان والتأكيـد أن الصراط المستقيـم هـو وحـده سبيل الله ، وأن السبل الأُخرى سبل شياطين الإنس والجن ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه .

وحتى لاتضطرب الصورة وتختلط ، أو يدور جدال وخلاف ، جاءت النظرية العامة للدعوة الإسلامية لتذكّر بما بيّنه الله وفصله في المنهاج الرباني ، فابتدأت بما أمر الله به ورسوله : بالإيمان والتوحيد ، ثم بالركنين الرئيسين ، وهكذا ، حتى نصل إلى قضية المضيّ والمثابرة والمداومة على الصراط المستقيم فليس الصراط المستقيم قطعاً متفرّقة ، غير مترابطة . ولا هو قطعة متفلتة تكفي وحدها لنسميها «**الصراط المستقيم** » .

كلا ! إن « الصراط المستقيم » نهج ممتدّ مع الحياة كلها ، حياة الفرد وحياة الشعوب . إنه نهج ممتدّ مترابط متماسك لايصحّ تقطيعه ولا تمزيقه .

إنه نهج ممتد ، ودرب ممتد ، وسبيل يبتدىء بالإيمان والتوحيد ، ثم بالشهادتين ، ثم بباقي التكاليف الربانية حتى يلقى المسلم ربه ، أو حتى تقوم الساعة على الناس .

إن أهمية هذا الامتداد تتضح لنا من طبيعة هذا الدين الذي يطلب الإحسان والإتقان في عمل الفرد المسلم وعمل الأمة كلها . فمع الامتداد تمتد العبادة الصادقة ، ذلك أن العبادة في ميزان الإسلام هي حياة المسلم كلها ، حياة المسلم الذي صدقت نيّته وعزيمته وإيمانه وعلمه ، ومضى على نور يعبد الله في كل أمره ، حتى إذا أخطأ أو زلّ ، تاب وأناب واستغفر ، وتابع المضيّ على الصراط المستقيم .

إن المضيّ على الصّراط المستقيم يزيد المسلم الصادق إيماناً ، ويزيده علماً ، ويزيده خبرة وتجربة من خلال الممارسة المنهجيّة المنضبطة بقواعد الإيمان والتوحيد وقواعد منهاج الله .

وعمل المؤمن يجب أن يكون متقناً ، أو أن يبذل المسلم جهده ليكون عمله متقناً ممتداً على صراط مستقيم :

فعن عائشة رضي الله عنها عن الرسول ﷺ :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » [رواه البيهقي في سننه] (١)

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : [رقم : ١٨٨٠]

وكذلك يحبّ الله من عبده المؤمن أن يبذل الجهد حتى يبلغ درجة الإحسان في عمله كله :

فعن شداد بن أوس عن النبيّ ﷺ :

« **إن الله تعالى كتب الإحسان على كل شيء . فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليُحِدَّ أحدكم شفرته ، وليُرِحْ ذبيحته** » [رواه أحمد ومسلم][1]

ويأتي حديث رسول الله ﷺ الذي ترويه عائشة رضي الله عنها ، ليؤكد معنى المداومة والمضيّ على الصراط المستقيم :

« **أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ** » [رواه الشيخان][2]

فالعمل بميزان الإسلام لايُوزَن بكثرته أو قلته أولاً ، ولكن بالإتقان والإحسان والمداومة ، ثم يأتي بعد ذلك الكثرة أو القلة .

والمضيّ على الصراط المستقيم يحتاج إلى صبر ومجاهدة . ويحتاج إلى كل البنود التي سبقته من إيمان وتوحيد ، والركنين الرئيسين ، ودراسة الواقع والميدان باستمرار وتحديد مشكلاته ، وعناصر التنفيذ كلها .

وتتوالى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تأمر بالصبر وتحضُّ عليه وترغّب فيه مع المداومة والعمل والمجاهدة والمضيّ على الصراط المستقيم .

وبهذه المداومة والصبّر والمضيّ ينمو الإتقان والإحسان والعمل كله مع نمو الإيمان والعمل والخبرة .

واستمع إلى قبسات من الآيات والأحاديث :

﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين** ﴾ [البقرة : ١٥٥]

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (رقم : ١٧٩٥) .
(٢) المصدر السابق : رقم : (١٦٣) .

﴿ قل ياعبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر : ١٠]

وعن أبي يحي صهيب بن سنان قال قال رسول ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير - وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن - إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له . » [رواه احمد ومسلم](١)

وفي حديث شريف يرويه أبو سعيد سعد بن سنان يجيء قوله ﷺ : « .. وما أُعطي أحدٌ عطاء أوسع من الصبر » [رواه أحمد والشيخان](٢)

* * * *

إن المضيّ على الصراط المستقيم هو السبيل الوحيد أمام المسلمين للخروج إلى العزّة والمنعة والقوّة بإذن الله . لقد جعله الله سبيلاً واحداً حتى يجمع المؤمنين أمة واحدة ، وحتى تجتمع لهم أسباب القوة التي ينزل الله معها النصر على الذين أوفوا بعهدهم مع الله .

إن زينة الحضارة الغربيّة وما تحمله من علوم وصناعة وسلاح وغير ذلك ، يجب أن لايخطف أبصارنا ويصرفنا عن سبيل الله ، عن الصراط المستقيم .

فقد اتبع الكثيرون الغرب ، وقالوا إن نهجهم هو سبيل التقدّم ، ومضت قرون وبعض المسلمين يقتفون أثر الحضارة الغربية . فماذا جنوا ؟ أخذوا المظاهر ، أخذوا الرقص والغناء والأفكار العلمانيّة ، وصرخوا وثاروا ، وقَتَلوا وقتلوا ، وبعد الجهد «والنضال » ، والشعارات المدوّية والحناجر المبحوحة ، ماذا أخذوا ؟!

لقد أخذوا المظاهر ، وما أخذوا العلوم والصناعة ، فأضعفوا أمتّهم ومزّقوا صفوفها ، وما قدّموا سبباً من أسباب القوة الحقيقية . ولو حدث أن أخذوا بعض العلوم والصناعة على غير تقوى من الله ، لما بارك الله لهم فيها ولأعاد الله الوبال عليهم ، وظلت الأمة بعد نضال قرون ، أمّة تعتبر من العالم الثالث المتخلّف .

(١) المصدر السابق : رقم : (٣٩٥٧) .
(٢) المصدر السابق : رقم : (٥٨١٩) .

إن المظاهر الماديـة في أي حضارة جعلها الله مفتوحة للشعوب كلهـا ، للأمم كلها ، لمن ينهض ويعمل ويبذل .

لقد كشف لنا واقـع الحياة وسنن الله فيها أن مختلف الأمم بلغت درجة عـالية فيها ، كلّ أمة كان لها عقيدة خاصة بها من إيمان أو كفر .

لقد بلغ المسلمون بإسـلامهم الدرجة العليا حتى كانوا سـادة العالم . وبلغت أوروبا وكذلك أمريكا في ظل العلمانيّة درجة عاليـة اليوم ، وبلغ الاتحاد السوفياتي درجة عالية في ظل المادية والإلحاد ، وبلغت اليابان درجة عاليـة كذلك في ظل عقيدة عبادة الامبراطور . وإذا سرنا في الأرض ونظرنا في مصائر الشعوب الغابرة وجدنا آيات الله بيّنات .

إن العقيدة هـذه أو تلك لايتعطل بها بلوغ القوة الماديـة من علوم وصناعـة وسلاح ، وعمائر شـامخات ، إن الله سبحـانه وتعـالى جعل ذلك ميـدانـاً مفتـوحـاً لكل من ينهض ويبذل ويعمل :

﴿ ولولا أن يكـون الناس أُمـة واحدة لجعلنـا لمن يكفر بـالرحمن لبيـوتهم سقفاً من فضّة ومعارج عليها يظهـرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون . وزخرفاً وإن كلُّ ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين﴾

[الزخرف : ٣٣-٣٥]

وكذلك :

﴿ كُـلاً نُمِدُّ هـؤلاء وهـؤلاء من عطاء ربك ومـا كـان عطاء ربك محظـوراً ﴾

[الإسراء : ٢٠]

نعم ! إن الله يُمِدُّ من عطائه مختلف الشعـوب والناس ، المؤمن والكافر ، على سُنَن لله ماضية وحكمة بالغة وقدر غالب . إن الله سبحـانه وتعالى يُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء : من كان يريد العاجلة ، ومن أراد الآخـرة ، ليَبْتَلِيَ هؤلاء وهؤلاء ، وليُمَحِّصهم ويقيم الحجة لهم أو

عليهم . فلا يعني بريق الدنيا وزخرفها أن من أوتي شيئا منها كان أقرب عند الله ، أو أنه صاحب النهج الأصوب .

إن زخرف الحياة الدنيا لا يُعتبر مقياساً لصحة عقيدة أو مذهب أو فلسفة في الحياة . الكون في مادته مفتوح لمن ينشط ويعمل ، وتمضي سنن الله !

ولكن شأن المسلمين شأنٌ آخر . إنهم الأمة التي يجب أن تكون «خير أمة أُخرجت للناس» ، ويجب أن تكون خير البريّة . والذين كفروا هم شرُّ البرية . إن المسلمين ، أو المنتسبين إلى الإسلام ، يكونون خير أُمَّة أُخْرِجتْ للنَّاس ، حين يُؤمنون ويحملون رسالة الله إلى الناس كافة ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله . فإذا تخلّى المتنسبون إلى الإسلام عن هذه الرسالة والأمانة ، فهم أُمة من الأمم تمضي عليها سنن الله كما تمضي على غيرها .

فالمسلمون ليس أمامهم إلا الإيمان والتوحيد ، وحمل رسالة الله إلى الناس على نهج واضح مفصّل في منهاج الله ، وجاءت هذه النظريّة العامة للدعوة الإسلامية لتذكّر بما أمر الله به ، ولتضعه في صورة منهج يصدر عن منهاج الله ويلبي حاجة الواقع .

المضيّ على الصراط المستقيم ، يعني المضيّ على بنود هذه النظرية العامة ابتداءً من الإيمان والتوحيد حتى التقويم .

إن هذا المضيّ هو السبيل الوحيد أمام المسلمين ، والحقيقة أنه السبيل الوحيد أمام جميع خلق الله إذا أرادوا أن يكون هدفهم الأكبر والأسمى هو الجنة والدار الآخرة ورضوان الله .

ونؤكد هنا أن هنالك قضيّتين تمضيان معاً لا تفترقان أبداً أبداً :

الأولى : مصير الإنسان إلى الجنة أو إلى النار . إنه مصير كل فرد وكل أُمّة .

الثانية : التمكين في الحياة الدنيا .

والمضيّ على الصراط المستقيم هو الذي يجمع هاتين القضيّتين معاً ليمضيا معاً بإذن الله .

الفصل السابع
البند السادس
إلى الهدف الأكبر والأسمى[1]

إن النظرية العامة للدعوة الإسلامية لاتمثل مجرّد نظرية فكرية ، إنها بالإضافة إلى أنها نظرية نابعة من منهاج الله لتلبّي حاجة الواقع ، فإنها في الوقت نفسه تمثل مسيرة متكاملة ، تحدّدت نقطة انطلاقها وتحددت نهايتها .

إن نقطة الانطلاق هي الإيمان والتوحيد وإخلاص النيّة لله سبحانه وتعالى ، إخلاصاً نابعاً من الإيمان والتوحيد ، خاضعاً لمنهاج الله وأحكامه .

فالنيّة مع هذه المسيرة المشرقة تصبح وعياً وإفاقة ويقظة . إنها ليست غفلة أو خدراً . إنها قوة وبصيرة تمتد امتداد المسيرة كلها .

والنيّة على هذا النحو تظل عاملة مع المؤمن طوال المسيرة كلها ، تذكره وتوقظه إذا نسي أو غفا . إنها تظل تذكّره بالهدف الأكبر والأسمى ، فما هو الهدف الأكبر والأسمى؟!

إنه **الهدف الأكبر والأسمى** الذي حدّده الله ربّ العالمين ، وسماه أسماء مختلفة لتشير إلى حقيقة واحدة .

إنه الجنة :

وإنها جزاء المؤمنين :

﴿ ... جزاؤهم عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه ﴾ [البيّنة : ٨]

﴿ ... أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنّة والمغفرة بإذنه ويبيّن آياته للناس لعلهم يتذكّرون ﴾ [البقرة : ٢٢١]

---

(١) يراجع كتاب لقاء المؤمنين – الجزء الثاني – الأهداف .

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السموات والأرض أُعدت للمتقين ﴾ [آل عمران : ١٣٣]

هذه قبسات من كتاب الله نكتفي بها هنا . ولكنّ الآيات تتوالى في القرآن الكريم لتؤكد هذا الهدف الأكبر والأسمى وهذه التسمية .

وتأتي أحاديث رسول الله ﷺ لتؤكد هذا الهدف العظيم للإنسان في الحياة الدنيا ، وليظل قلب المؤمن معلقاً بالجنّة . ولنأخذ قبسات من أحاديث النبوة ، ومن مواقف الصحابة رضي الله عنهم :

ياسر وزوجه سميّة وعمار رضي الله عنهم ، يعذّبهم المشركون في لهيب الشمس عذاباً شديداً . فيمرّ بهم رسول الله ﷺ فيقول :

« صبراً آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة »

ويعذّبون بلالاً رضي الله عنه ، يطوفون به والحبل في عنقه بين أخشبي مكة ، أو يلصقون ظهره بالرمضاء لكي يشرك ، فيقول : أحدٌ ! أَحَدٌ ! أحد !

وعمرو بن الجموح رضي الله عنه ، حين أراد أولاده منعه من الخروج إلى الجهاد ، يقول : «فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنّة » .

وعن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله الجنة إلا إن سلعة الله الجنة » [1] .

وإنه الدار الآخرة :

﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ [الإسراء : ١٩]

﴿ وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب و إن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ [العنكبوت : ٦٤]

---

(١) الترمذي : ٣٨/ ٤٨/ ٢٤٥٠ .

وإنه كذلك رضوان الله :

﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ [التوبة : ٧٢]

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً .. ﴾ [الفتح : ٢٩]

الجنة ، الدار الآخرة ، رضوان الله ! كلها تعبيرات قرآنيّة لحقيقة واحدة ، هي الهدف الأكبر والأسمى للإنسان المؤمن في هذه الحياة الدنيا .

ويعرض منهاج الله هذا الهدف الأكبر بأساليب مباشرة وغير مباشرة متنوعة ، تخاطب العقل والعاطفة ، وتخاطب فطرة الإنسان وما أودع الله فيها من قوى ، لتتوجه هذه القوى كلها إلى طاعة الله ، إلى الهدف الأكبر والأسمى . ولنتدبر هذه الآية الكريمة .

﴿ وجيء يومئذ بجهنّم يومئذ يتذكّر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول ياليتني قدّمت لحياتي ﴾ [الفجر : ٢٣-٢٤]

هناك يكتشف الإنسان الحقيقة حين تبدو له بارزة قوية لايستطيع إنكارها . فيأخذه الندم ولات ساعة مندم ، حين يكتشف أن الحياة الحقيقية هناك في الدارة الآخرة .

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ [المطففين : ٢٦]

إننا نرى ، من هذه النظريّة العامة ، نرى من بدايتها وخاتمتها شدة الارتباط بين جميع أجزائها حتى كوّنت درباً ممتدّا وصراطاً مستقيماً ، وكل بند منها متماسك مع البنود الأخرى ، وكل قضيّة متماسكة مع القضايا الأُخرى ، لتكون كلها التصور العام الذي ينبع من منهاج الله .

بهذا الهدف الأكبر والأسمى ترتبط جميع الأهداف الربانيّة الثابتة ، وترتبط جميع الأهداف المرحلية كذلك . وتظل النيّة الصادقة التي تصاحب المؤمن في كل عمله ومسيرته ، أهم عامل يقوم بمهمة الربط ، وكذلك الإيمان والتوحيد والتزام منهاج الله ، وارتباط الواقع الذي يُدرَس من خلال منهاج الله ، ودراسة الميدان وعناصر التنفيذ ، والمضيّ على الصراط المستقيم ، كل هذه الأجزاء والبنود ترتبط فيما بينها ، ويرتبط كل واحد منها بالهدف الأكبر والأسمى .

وإذا فُقِد هذا الترابط بطل العمل كله وفسد التصور ، وتقطعت حباله وعراه . ولنأخذ الأُسس الأربعة مثلاً يبيّن لنا أهمية هذا الترابط بينها أولاً ، بينها وبين الأهداف الربّانيّة الثابتة ثانياً :

فالهدف الرباني الثابت الأول هو الدعوة إلى الإيمان والتوحيد وتثبيت ذلك في القلوب ، الدعوة إلى الله ورسوله ، تبليغ رسالة الله كما أنزلت على محمد ﷺ دون أي تحريف ، إلى الناس كافة . وكيف يصدق هذا الهدف إذا انفصل عن تصور الدار الآخرة والجنّة ورضوان الله ، وعن تصور الغيب والإيمان به ، الإيمان بالغيب الذي جعله الله شرطاً من شروط الإيمان وأساساً له :

﴿ الم * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [البقرة : ١-٣]

فجمعت هذه الآيات الكريمة الأسس الأربعة على ترابطها وتماسكها ، وذكرت كل أساس بأهم موضوع فيه ليشمل باقي موضوعاته :

القاعدة الصلبة : الإيمان والتوحيد بيّنته الآية الكريمة بالإيمان بالغيب .

الركنان الرئيسان : المنهاج الرباني والواقع بيّنهما : **﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين﴾** . إنه هدى للمتقين ليروا الواقع وليمارسوا منهاج الله فيه . هدى للمتقين الذين يعملون ويمارسون منهاج الله كأهم عنصر من عناصر التقوى .

الممارسة الإيمانية : ﴿ .. هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ . فبينت الآية الممارسةَ الإيمانية التي يجب أن تبتدىء بالشهادتين ، ثم بالشعائر وعلى رأسها الصلاة ، ثم في المضيّ بالممارسة الإيمانية إلى الإنفاق وغيره .

فاجتمعت بذلك الأسس الأربعة : سلامة الإيمان والتوحيد ، العلم بمنهاج الله ، العلم بالواقع من خلال منهاج الله ، سلامة الممارسة الإيمانية .

وجاء العرض في هذه الآيات الكريمة وبالآية التي تليها ، لتعرض هذه الأسس الأربعة متشابكة متداخلة يتعذّر فصل بعضها عن بعض ، ومرتبطة بالهدف الثابت الأول - الدعوة إلى الله ورسوله - ، وبالهدف الأكبر والأسمى - الدار الآخرة - .

﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾
[البقرة : ٤]

هذا هو الهدف الرباني الثابت الأول نرى شدة ارتباطه بالقاعدة الصلبة وبالأسس الأربعة وبالهدف الأكبر والأسمى .

وكذلك تمضي سائر الأهداف الربانيّة الثابتة :

الهدف الثاني : التربية والبناء ، والإعداد والتدريب .
الهدف الثالث : بناء الجيل المؤمن .
الهدف الرابع : الجهاد في سبيل الله
الهدف الخامس : الأمة المسلمة الواحدة حتى تكون كلمة الله هي العليا في واقع الممارسة البشرية .
الهدف السادس : عَمارة الأرض بحضارة الإيمان .

إن كل هدف من هذه الأهداف الستة يدعو ويوجّه إلى الهدف الذي يليه . فالدعوة إلى الله ورسوله لاتقف عند البلاغ ، ولكنها تمضي إلى تعهّد من تدعوه وتبلّغه ، حتى لا تُفسد شياطين الإنس والجنّ ما بَنَتْهُ الدعوةُ وعملته . وهذا التعهد ضرورة حتمية ، وهو الذي ندعوه بمرحلة التربية والبناء ، والإعداد والتدريب .

وإذا بلغت الـدعـوة الهدف الثـاني ، انطلـق الهدفـان الأول والثـاني ليعمـلا معـاً ، ويمضيا معاً ، إلى الهدف الثالث .

فإذا نجح الهدف الأول والهدف الثـاني ، ونجحت الـدعوة في تبليغ هـذا وذاك وتعهّدهم ، فإن هذا سيفضي إلى الهدف الثالث وهو بناء الجيل المؤمن .

ويأتي هنا السـؤال : من هو الجيل المؤمن وكيف نتصوره ونعرّفـه بإيجاز ؟ هل الناس كلهم فـرداً فرداً ؟ هل يجب أن ننتظـر حتى يصلح حـال كل إنسان ؟ كـلا ! الجيل المؤمن نعرّفه بإيجاز بنقطتين : الأولى : أن تتوافر فيه الخصائص الـربانيّة التي فصَّلها الله سبحانه وتعالى في كتـابه المبين . والثانية . أن يكـون قد بلغ من شروط الإعداد والعدّة مـايسمح له بمتابعـة المسيرة الى سائر الأهداف الثـابتة ، ويمضي بالـدعوة الإسـلامية حتى يُـحَـقِّـق سائر الأهداف .

فإذا بلغت الدعـوة الهدف الثالث وحققتـه ، تعمل الأهداف الثلاثـة معا وتمضي إلى الهدف الـرابع . ومع أي هـدف ، في أي مرحلـة لايجوز أن يتعطل أو يتـوقف أي هـدف سابـق . فتمضي الدعوة والبـلاغ ، والتربية والإعـداد ، وبناء الجيل المؤمـن ، تمضي هذه كلها إلى الهدف الـرباني الثـابت الرابـع : الجهاد في سبيل الله بـالكلمة والحكمـة والموعظة الحسنة والقتال ، حسب مايفرضه الواقع الذي يفهم من خلال منهاج الله .

وتمضي الأهداف الأربعـة معاً إلى الهدف الرباني الثـابت الخامس . ثم تمضي الخمسة إلى السـادس . ثم تعمل الأهداف الستـة كلهـا في واقع الإنسـان في الأرض لتقدم لـه من خـلال حضـارة الإيمان : الإيمان والتـوحيـد ومنهـاج الله ، والأمن والأمـان ، والعـدل ، والحرّية المنضبطة بضـوابط الإيمان والتوحيد ، ومنهاج الله ، يـدعم ذلك كله البناء المادي المتماسك مع قواعد الإيمان والتوحيد ومنهاج الله .

وتنهض حضارة الإيمان في الأرض ، تجمـع الأهداف الربـانية الثـابتة الستـة كلها ، لتُغذّي حضارة الإيمان وتمتدّ بها في الأرض كلها .

وربما يسأل سائل : ماموقف حضارة الإيمان من العلوم التطبيقية والصناعية ، وسائر مظاهر الرقي المادي ؟ هل ستلغى حضارة الإيمان هذه المظاهر المادية التي تسميها حضارة الإيمان زخرف الحياة الدنيا ؟ .

نقول : كلا ! إن حضارة الإيمان هي أوْلى بهذا التقدّم المادّي ، وهو نتيجة حتمية لحضارة الإيمان . ولا تعود هذه المظاهر المادية مجرّد زخرف وزينة في نظر الإسلام . إنها تصبح قوة لتمكين حضارة الإيمان في الأرض ، ولتحقيق الأمانة التي حملها الإنسان ، والخلافة التي جُعِلتْ له ، والعبادة التي خلق لها ، والعمارة التي أُمر بها . إنها تصبح قوة تعين الإنسان على عبادة الله حقّ عبادته ، لامصدر فتنة تفسد إيمانه وتنسيه رسالته في الحياة ، وتفقده قوّته وعدّته حتى يصبح تبعاً تائها للحضارة المادية . إن المظاهر المادية حين تنفصل عن حقيقة الإيمان والتوحيد ، زخرف باطل ، وفتنة في الأرض وفساد كبير ، وإطلاق للشهوات والمصالح المادية والصراع المهلك عليها .

إن الفرق الرئيس بين حضارة الإيمان وحضارة العَلمانيّة المادية هو أن المظاهر المادية في حضارة الإيمان تصبح خيراً وصلاحاً للإنسان ، وأمناً صادقاً ، وأماناً عادلاً . تصبح الشعارات لامجرّد زخرفة وزينة وإلهاء للناس وتخدير لهم . تصبح الشعارات في حضارة الإيمان حقيقة واقعية ، وعملاً صالحاً طيّباً . ذلك كله لارتباطها بالدار الآخرة ، بالإيمان والتوحيد ، وبرسالة الإسلام على تكاملها .

أما في الحضارة المادية ، في العَلمانيّة ، وفي سائر المصطلحات التابعة لها ، فإنها معزولة عن الدار الآخرة ، عن الإيمان والتوحيد ، عن رسالة الإسلام ، حتى تصبح المظاهر المادية هي جوهر الحضارة تزخرفها الشعارات التي لاتجد لها أي رصيد في واقع الحياة . لقد انعزلت عن الهدف الأكبر والأسمى للإنسان ، وانعزلت عن مسيرته كلها . فتُقتَل الحرّية باسم الحرّية ، وتُقتَل حقوق الإنسان تحت شعار حقوق الإنسان ، ويُسحَق الأمن والأمان تحت شعار الأمن والأمان ، وتمتلىء الأرض حروباً ومجازر ودماء تتدفّق ، وجماجم وأشلاء ، وانتهاكاً للحرمات ، وسحقاً للقيم التي بنتها رسالة الإسلام في الأرض ،

الرسالة التي جاء بها جميع الأنبياء والرسُل منذ أقدم العصور ، حتى خُتمت بِرسالة النبيّ الخاتم ﷺ . وتصبح لهذه الحضارة المادية تحت زينة الشعارات وزخرفها ألف ميزان ومكيال ، كل ميزان يمثل مصلحة مادية لفريق ، ومكيالاً مادياً لفريق آخر ، تعدّدت الموازين والمكاييل ، واحتدم صراع المصالح ، وأصبح هناك أغنياء فاحشو الغنى ، وفقراء مدقعو الفقر ، حتى زاد عدد المهدّدين بالموت جوعاً عن ثمانمائة مليوناً من البشر ، بين أعداد من الذين يموتون من التخمة أو يعيشون على تخمة إجرامية .

الفرق بين الحضارتين بارز في كل ميدان . في الاقتصاد ، يختفي الربا في حضارة الإيمان ، لأن الاقتصاد مرتبط بالهدف الأكبر والأسمى ، مرتبط بالإسلام ، فكان الربا حراماً أشد حرمة من أي شيء . والاقتصاد في الحضارة العلمانية المادّية قائم كله على الربا وأكل أموال الناس بالباطل .

والسياسة في حضارة الإيمان ذكاء تقوى ومهارة صدق ووفاء مواثيق ، وفي الحضارة العلمانية ذكاء خيانة ومهارة غدر يذهب بالمواثيق ، إلا على قدر ما تجرّه من المصالح .

وقس على ذلك سائر الميادين .

فالمسلمون مكلفون ببناء حضارة الإيمان في الأرض ، وعمارتها بخيرها وبركتها ، عهداً موثقاً مع الله ، وأمانة ملزمة . والنهوض إليها هو باب النجاة في الدنيا والآخرة ، وباب التمكين في الأرض .

الفصل الثامن
مراحل
النظرية العامة للدعوة الإسلامية

ذكرنا في صفحات سابقة أن النظرية العامة للدعوة الإسلامية تتألف من ستة بنود، وتتألف كذلك من خمس مراحل. وقسمة النظرية العامة إلى مراحل يساعد على إدراك دور كل بند وكل جزء وكل عنصر.

وهذه المراحل الخمس متماسكة كذلك، لايمكن فصل مرحلة من المراحل أو الاستغناء عنها، لأن المراحل الخمس تمثل مسيرة كاملة في هذه الحياة الدنيا فهي تعين الفرد المسلم والجماعة والأمة، وتعين على ترابط الجهود والبذل عن وعي و إيمان.

١ - المرحلة الأُولى : مرحلة التزوّد :

إنها المرحلة الأولى في حياة المسلم الداعية، والمرحلة الأُولى التي يجب أن تحرص عليها الجماعة والأمة في خطة التربية والبناء.

كثير من أبناء الدعوة الإسلامية ينزل الميدان بانتسابه للدعوة وهو غير مزوّد بالزاد الضروريّ الذي يحتاجه في الميدان، مما يزيد الخلاف والفرقة.

وكثيرون يتضارب زادهم، وتختلف مصادرهم، ويتحمس كلّ فريق لمصدره وزاده، ولايرجعون كلهم إلى مصدر واحد ليكون هو المرجع الحقيقيّ العلميّ إلا من حيث الشعار.

لابأس أن يكون اختلاف الزاد سببه كثرة الزاد هنا وقلته هناك، أو يكون سببه اختلاف الوسع والموهبة، ثمّ يأخذ كلُّ وسع مكانه، ويعطي كلُّ وسعٍ من زاده، ويظل الجميع يسعون إلى تنمية الزاد والخبرة، وينهلون كلهم أوّلاً من مصدر واحد، كما كان صحابة رسول الله ﷺ ينهلون من الكتاب والسنة. لقد كان للصحابة رضي الله عنهم منهل واحد، ولكنهم كانوا يتفاوتون في الوسع والطاقة، والقدرات لتعمل كلها في مجرى واحد.

ولكن عندما تتنوّع المناهل والمصادر ، وتتغيّر المراجع ، يصبح الاختلاف مصدر شقاق وصراع ، وتمزق وافتراق ، فيقع الجميع في حُمَّىٰ فتنة تعود بالخسارة على الجميع .

لذلك جاءت النظرية العامة لتوحّد المصدر الرئيس والزاد الرئيس والمرجع الرئيس . كلّ هذا حدّده الله سبحانه وتعالى وبينه لنا وفصله . لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نردّ أمورنا كلها وماقد نختلف فيه إلى الله ورسوله ، إلى الكتاب والسنة ، ليكون الكتاب والسنة المرجع الرئيس لجميع المستويات في الأمة وجميع العاملين :

﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ [النساء : ٥٩]

وكذلك :

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [الشورى : ١٠]

وكذلك :

﴿ المص * كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين * اتبعوا ماأنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون ﴾ [الاعراف : ١-٣]

وتتوالى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة لتؤكد هذه الحقيقة الهامة ، وهي أن للمؤمنين مصدراً واحداً يصدرون عنه ، ومرجعاً واحداً يرجعون إليه جميعهم . فالنص حاسم واضح : **﴿ياأيها الذين آمنوا ..﴾ ﴿ اتبعوا ... وما اختلفتم فيه من شيء ... ﴾** . ونصوص أخرى كثيرة أوردناها في غير هذا البحث ، تؤكد كلُّها هذه القاعدة الهامة مع قواعد أخرى . ومع هذه القاعدة الهامة هنالك قاعدتان مكملتان لها من أجل ممارستها في الواقع :

أولاً : الوسع الصادق للمسلم .

ثانياً : مسؤولية المسلم وحدوده .

وعن أبي هريرة عن الرسول ﷺ :

« **تركت فيكم شيئين لـن تضلوا بعدهما : كتـاب الله وسنتي ، ولن يتفرّقـا حتى يردا عليّ الحوض** » . [رواه مالك مرسلاً والحاكم] (١)

وكذلك أئمة الإسلام في جميع العصور أكّدوا هذه القـاعدة العظيمة بأن للمسلمين مصدراً واحداً ومرجعاً واحداً ، ونذكر هنا بعضاً من أقوالهم :

الإمام أبو حنيفـة يقول : « **حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكـلامي . فإننا بشر نقول اليوم ونرجع غداً** » .

والإمام مالك بن أنس يقول : « **إنما أنا بشر أخطىء وأصيب . فانظروا في رأيي فكل ماوافق الكتاب والسنة فخذوه وكل مالم يوافقهما فاتركوه** » .

والإمام الشافعي يقـول في جملة ماقال : « **إذا صحّ الحديث فهو مذهبي** » . والإمام أحمد بن حنبل يقول : **لاتقلّدني ولا تقلّـد مالكـا ولا الشافعي ولا الأوزاعـي ولا الثوري ، وخذ من حيث أخذوا** » .

في واقعنا اليوم مصـادر شتى لكثير من المسلمين . ونريد بطرح هذه النظريـة العامة توحيد المصدر وتحديده بصورة تلبي حاجة الـواقع : فالإيمان والتوحيد هو الأساس ، وهو مفتاح لفهم كتـاب الله وسنة رسول ﷺ ، ومنهـاج الله يغَذّي الإيمان والتـوحيد ، ويصبح التأثير بينهما متبـادلاً . وكلُّ منهما يدعـو لدراسـة الـواقع وتدبـره من خلال منهـاج الله ، الواقع الذي يُمارَس فيه منهاج الله ، وتمارس فيه قواعد الإيمان والتوحيد ، والذي تمضي فيه الأحداث على سنن لله ثابتة وحكمة بالغة وقدر غالب .

ومع هذا كلـه ، فمن خلال الـدراسات التفصيليـة نقدّم النهج والخطـة والمناهج ، لتكون القاعدةُ الصلبة والركنان الرئيسان الزادَ الرئيس للمسلم بعامّة وللداعية بخاصة .

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته : (ط : ٣) - (رقم : ٢٩٣٧) .

وعندما نقول إن هذا هو الزاد الرئيس ، فإننا نعني بذلك أن هنالك زاداً آخر يمكن أن يكتسبه المسلم من واقع الحياة ، من المعاهد ومن التجارب والممارسة ، ومن علوم أُخرى تحتاجها الأُمة . ولكن هذا كله لايفيد في ميزان الإسلام إلا إذا قام على أساس الزاد الرئيس .

إذن مرحلة التزّود مرحلة هامة يجب أن تنال بالغ العناية من أجل النهج والتخطيط لها ، حتى تحقّق أهدافها المرجوّة ، مع كل بند من بنديها : القاعدة الصلبة والركنين الرئيسين .

٢ - المرحلة الثانية : مرحلة دراسة الميدان :

هذه هي المرحلة الثانية . وهي تمثل الخطوة الأُولى في عمل الداعية ليبذل جهده في دراسة الواقع ومعرفة مشكلاته وقضاياه ، وليدرس بعد ذلك وسائل العلاج والإصلاح .

لابد أن يتدرّب الداعية المسلم على هذا الخطوة الهامة ، حتى يدرك أهميتها ، ويدرك مطابقتها للقاعدة الهامة التي تضبط عمل المؤمن وهي :

« لايبدأ المؤمن عملَه إلا بتوافر : النية وإخلاصها لله ، النهج والخطة ، الانضباط الإداري والتنسيق . ثم يمضي في عمله مع قاعدة الإتقان والإحسان ، والإدارة والنظام ، وعند نهايته تتمّ دراسة المسيرة ورصد النتائج والأحداث ، ثم التقويم الدوريّ المنهجي ، ثم الانضباط الإداريّ والتنسيق » .

لايستطيع الداعية أن يباشر نشاطه في ميدان لايعرفه ولايعرف مشكلاته وبغير **«الزاد الرئيس »** . ولو باشر نشاطه بغير هذين الشرطين فإن عمله يصبح ارتجالياً ، وردود فعل آنيّة ، وشعاراتٍ تدوّي بها الحناجر ولاتنطلق بها العزائم .

ولو راجعنا مسيرة المسلمين والعمل الإسلامي خلال القرن الحاليّ على الأقل ، وقرون أُخرى سابقة ، لوجدنا الارتجال وردود الفعل والشعارات ، ولوجدنا الهزائم تلو الهزائم .

ربما يبدو لبعضهم أن هذه المرحلة غير ضرورية . فينزل الدعاة إلى الميدان وينطلقون في نشاطهم ، ثم تفاجئهم مشكلات الميدان الجزئية والكبرى ، فيضطرب الجهد ويتناقض ، وتتكاثر الأخطاء والخلافات ، وتتراكم حتى يصبح حلها متعذّراً ، وتصبح

الرؤيـة صعبة أمام أكـوام الأخطاء . فينتقلون من خطأ إلى خطأ ، ومن مشكلـة إلى مشكلة ، وكأن الجهد والنشاط لم يؤدِ إلى حلّ المشكلات في الميدان ، وإنها أدّى إلى زيادتها وتعقّدها .

إن هـذه الصـورة نلمسهـا بـوضـوح في واقـع معظم المسلمين والعمل الإسـلامي ، ونلمسها في النتائج المؤلمة المبكية التي وصل إليها المسلمون .

إن هـذه المرحلة تكـاد تمثّل قلب النظـريـة العامـة لأهميتهـا وخطورتها ولأنها تـرتبط بالمرحلـة الأولى السابقة وتـرتبط بالمرحلة الثـالثة التـالية ، ولأنها ستظلُّ تتكرر مع الـدعوة الإسـلاميّـة في مسيرتها كلها ، وبخـاصـة في المرحلـة الـرابعة مـرحلـة المضيّ على الصراط المستقيم . إنها دراسة الواقع من خلال منهاج الله .

لايمكن أن يتحقّق الهدف من هـذه المرحلـة إلا إذا تحقّقت المرحلـة الأُولى ، مرحلـة التزود ، وإلا إذا ارتبطت المرحلتـان ارتباطاً حركيـاً في تفاعل متبادل ينمو فيـه الزاد وتعمق فيه دراسة الواقع مع نموّ الزاد .

وبغير هذه المرحلـة لانستطيع أن نقفز إلى المرحلـة الثالثـة ، مرحلـة التنفيذ ، إلا أن تكون هذه القفزة تدميراً للعمل وتعطيلا للنظرية العامة أو هدمها .

ربها تتكـون بعض التصـوّرات لدى بعضهم ، ليـس من خلال دراسـات وأبحـاث ووعي لهذه النظـرية العامـة ، بل من الواقـع الخاطىء الذي يضغط على الفكـر والنفوس والقلوب ، حتى تألف القلـوب الواقع الخاطىء ، وتظنه صـواباً ، ثمّ تمارسه ، ثم تـدعو إليـه . وليس من سبيل إلى التحـرّر من ضغط الواقـع الخاطىء إلا إتقان المرحلـة الأولى ، حتى يصفو الإيمان والتـوحيد ويصدق ، ويصـدق العلم بمنهاج الله ، ثمّ يُـردُّ الواقع ردّاً أميناً إلى منهـاج الله . وهذا كلـه يحتـاج إلى إعـداد وتدريب ، إعـداد منهجي وتـدريب منهجي من خلال خطة متكاملـة ونهج متكامل ، نرجو أن توفره هذه النظريـة العامة وما تحمل معها من دراسات وتفصيلات ومناهج ونماذج .

وتمثل هذه المرحلـة نموذجاً عملياً لتطبيق النظريـة العامة . ففيها تتم دراسـة الواقع وردّه إلى منهاج الله ، وتحديـد الأمراض والعلل والخلل . وفيهـا يتمّ النهج والتخطيط لبدء

المعالجة والانطلاق ، ويتم التنسيق الإداري ، وجمع المعلومات ورصد النتائج ، وغير ذلك . ويظل هذا النموذج صالحاً لكلّ واقع .

ففي هذه المرحلة ، حين ينزل الدعاة إلى الميدان في واقع المسلمين ، نجد عدداً من المشكلات يكاد لا يحصر . ونجد أنه لايمكن معالجة كل مشكلة وحدها ، وعند ردّ الواقع إلى منهاج الله نرى أن هنالك أربع مشكلات كبرى رئيسة يجب البدء بها ، والبدء بأول واحدة منها ، فهي المفتاح لسائر المشكلات ، والمشكلات الأربع الكبرى هي المفتاح لجميع المشكلات الأُخرى ، ويبدأ النهج والتخطيط للمعالجة ووضع الحلول .

المشكلات الأربع الكبرى الرئيسة هي : الخلل في تصوّر الإيمان والتوحيد وفي البذل له ، والخلل في العلاقة مع المنهاج الرباني حتى تطوّر الخلل إلى هجره ، والخلل في فهم الواقع من خلال منهاج الله ، ثم الخلل في الممارسة الإيمانية ، الخلل الذي يأتي نتيجة طبيعيّة للخلل في القضايا الثلاث الأولى .

وإن أهم قضية هنا ، أو أهم خلل نجابهه هو الخلل في التصوّر لقضية الإيمان والتوحيد وفي البذل لها ، وفي النهج والتخطيط لها . إن معالجة هذا الخلل هما المفتاح لمعالجة سائر أشكال الخلل في الميدان . لذلك كانت قضيّة الإيمان والتوحيد هي القاعدة الصلبة للنظرية العامة وللدعوة الإسلامية كلها ، وهي الحقيقة الكبرى في الكون والحياة .

إذا صدقت معالجة هذه القضية ونجحت ، فإن لها على الأقل ثلاث نتائج مباشرة هامة :

أولاً : الإقبال على دراسة منهاج الله إقبال شوق ويقين .

ثانياً : معالجة الأخطاء والشوائب .

ثالثاً : النهوض لتبليغ رسالة الله إلى الناس .

وبالإقبال على منهاج الله إقبال شوق ويقين تتحقق نتائج هامة :

أولاً : نمو الإيمان والتوحيد وازدياد صفائهما .

ثانياً : معرفة التكاليف الربانيّة التي يجب أن ينهض لها .

ثالثاً : الإقبال على دراسة الواقع من خلال منهاج الله .

من هـذا نرى أننـا حين نبـدأ المعالجة بقضيّـة الإيمان والتوحيـد في المرحلـة التاليـة ، مرحلة التنفيذ ، فـإن هذه القضية تدفعنا إلى منهاج الله ، ثم تعمل القضيّتـان معاً لتدفعنا إلى دراسـة الـواقع من خـلال منهاج الله ، ثمّ تعمـل القضايـا الثـلاث معـاً لتصحح من الممارسـة الإيمانيّة وتعالج أخطاءها . ويمضي العمل المنهجي ، يمضي به الدعاة المؤمنون المدرّبـون ، حتى تتحول هذه المشكلات الأربع ، بعد أن عولجت في نفوس دعاة جدد ، إلى «أسس أربعة » كما كانت في نفوس الـدعاة الأول ، فينضمّ الدعاة بعضهم إلى بعض ، ليمضوا في مسيرة مباركة ، على نهج وتخطيط وسلامة تفكير .

هذه الأسس الأربعة تصبح إذن العنصر الأول في المرحلة الثالثة مرحلة التنفيذ .

٣ - المرحلة الثالثة : مرحلة التنفيذ :

إنها مرحلة المعالجة ، والدعوة ، والبناء والتربية ، والإدارة والتنظيم ، وغير ذلك على أساس من سلامة التفكير وسلامة النهج والتخطيط .

في هـذه المرحلة يتقـدم الدعـاة ومعهم «الـزاد الرئيس » ، وقـد درسوا الميـدان ، من خلال الـزاد الذي يحملـونه ، وأصبح لديهم أسس أربعـة ينطلقون منهـا ، هي : صفاء الإيمان والتـوحيـد ، صدق العلـم . بمنهاج الله ، وعي الـواقع من خـلال منهـاج الله ، سلامة الممارسة الإيمانيّة .

هـذه الأسس الأربعـة هي أول أدوات التنفيذ . إن العمل في أي ميـدان من ميـادين الحياة يحتاج إلى أدوات للتنفيذ . نُسَمّي هذه الأدوات اصطلاحاً بعناصر التنفيذ .

فـالعنصر الأول هـو هـذه الأسس الأربعـة ، وهـو أهم عنـاصر التنفيذ ، ومنـه تنطلق سـائر العناصر . وبغير هـذا العنصر الأول لن ينجح أي تنفيـذ ، ولن يستطيع أي عنصر آخر أن يعمل ويستقيم .

إن أول مايجب على الدعاة في مرحلة التنفيذ ، وقد ملكوا الأداةالأولى والعنصر الأهم ، هـو أن يتفكّـروا قبل الشروع ، أن يتفكروا ويتبعـوا المنهج الإيماني للتفكير ، النهج الـذي ينطلق من العنصر الأول ، من الأسس الأربعة ، **ليكون العنصر الثاني للتنفيذ : المنهج الإيماني للتفكير .**

والمنهج الإيمانيّ للتفكير له خصائصه الإيمانيّة التي تميّزه عن أي منهج آخر [(١)] . إنه المنهج الذي يضبط كلَّ نوازع الإنسان حتى تعمل في تناسق بينها ، وحتى تؤدي كل غريزة أو قوة المهمّة التي خُلِقَتْ لها . إنه المنهج الذي يضبطه صفاء الايمان والتوحيد ومنهاج الله ووعي الواقع من خلال منهاج الله ، ليصبح التفكير عبادة لله وطاعة ، واستجابة لأمره ، مع إخلاص النيّة له .

إن الله سبحانه وتعالى أنعم على الإنسان بهذه النعمة العظيمة ، نعمة العقل وطاقة التفكير ، ونعم الله على الإنسان لاتحصى . ومن العبادة لله والطاعة له أن نستخدمها كما أمرنا ، لا أن نعطلها . وقد جعل الله لهذه الطاقة ميداناً محدّداً تعمل فيه ، حتى لاتتبَدَّد هذه الطاقة فيما لا طائل تحته ، وفيما يخرج عن قدرتها . [(٢)]

وأول مايدفع إليه المنهج الإيماني للتفكير ، بعد أن انطلق من الأسس الأربعة وارتبط بها ، هو النهج والتخطيط العام للعمل عامة ، وللدعوة الإسلامية خاصة .

فيصبح العنصر الثالث هو النهج والتخطيط العام للدعوة الإسلامية على أن ينهض النهج والتخطيط على أسسه الإيمانيّة التي سبق إيجازها . ثم تأتي سائر عناصر التنفيذ كما سبقت الإشارة إليها ، ونعيد التذكير هنا بمصطلحاتها :

العنصر الرابع : النهج والتخطيط لكل ميدان يشقُّه العمل أو تخوضه الدعوة . وعدَّدنا في صفحات سابقة وكتب أخرى نماذج من هذه الميادين : الدعوة والبلاغ ، التربية والبناء ، التدريب ، الأدب الملتزم بالإسلام ، الجهاد في سبيل الله ، وميادين أخرى اجتماعية وسياسيّة واقتصادية وغير ذلك .

العنصر الخامس : الإدارة والنظام ومايحمل من إشراف ومراقبة ، وتوجيه ومتابعة وغير ذلك مما نجده مبسوطا في كتاب : فقه الإدارة الإيمانيّة .

---

(١) يراجع كتاب : النظرية العامة للدعوة الإسلامية – نهج الدعوة وخطة التربية والبناء للمؤلف : الباب التاسع – الفصل الأول .

(٢) يراجع كتاب التوحيد وواقعنا المعاصر للمؤلف : الباب الثالث كله وبخاصته الفصل الثاني .

العنصر السادس : ميزان المؤمن كما سبق الحديث عنه .

العنصر السابع : المؤسسات الإيمانية .

العنصر الثامن : التقويم الدوري .

ومرحلة التنفيذ لاتنتهي في حياة الإنسان إلا بلقاء ربه ، ولاتنتهي في حياة الأمة المسلمة إلا بقيام الساعة . إن العمل تكليف رباني والدعوة تكليف رباني للأمة المسلمة بعد النبوّة الخاتمة .

ولكننا قسمنا مرحلة التنفيذ إلى قسمين لنبرز بهذا التقسيم قضيّة هامة وخطيرة ، ألا وهي المداومة والمتابعة والاستمرار ، والمضيّ على صراط مستقيم .

فمرحلة التنفيذ التي عرضناها بعناصرها الثمانية تمثل القسم الأول ، ثم يأتي القسم الثاني الذي نعتبره المرحلة الرابعة .

٤ - المرحلة الرابعة : المضيّ على الصراط المستقيم :

لابد من تأكيد أهمية هذه المرحلة بالنسبة لواقع المسلمين اليوم . فأعداد كبيرة جداً تتوقف عن المضيّ راضية بجزء من التكاليف الربانيّة دون أن يكون لها عذر شرعيٌّ بالتوقف . ولكننا لانملك إلا أن ننصح ونذكّر ، وحساب الجميع عند الله .

وأعداد كبيرة جداً تنحرف عن الصراط المستقيم الذي بيّنه الله لنا وفصّله في كتابه المبين .

لابد أن نذكّر أنفسنا ونذكر غيرنا بأهمية المضيّ على الصراط المستقيم حتى يلقى المسلم ربّه ، لايتوقف ولاينحرف . ولقد بحثنا أضرار التوقف وأخطار الانحراف على الفرد والأمة .

إن قوى هائلة في العالم الإسلامي معطّلة لاتمضي على الصراط المستقيم . إنها معطلة تحت تأثير عوامل شتى : الخدر ، الهوى الشهوات ، الجهل . لقد شُلّت طاقات كثيرة في العالم الإسلامي حتى أصبحت مرتعاً لأعداء الله .

إن هذه المرحلة الرابعة ممتدة حتى يبلغ المؤمن بإذن ربه الهدف الأكبر والأسمى – الجنّة– ، ويغادر هذه الحياة الدنيا إلى عالم الغيب ، إلى دار الحق والخلود ، ليرى هناك الحياة الحقيقية .

٥ - المرحلة الخامسة : الهدف الأكبر والأسمى :

وقد سبق الحديث عنه تحت بحث البنود ، بنود النظرية العامة للدعوة الإسلامية ، حيث كانت هذه المرحلة تمثل البند السادس .

هذا هو الهدف الأكبر والأسمى للمؤمن ، تمثّل نهاية المسيرة إلى دار الخلود ، ليرى كل إنسان أن هناك الحياة الحقيقية الخالدة ، إما في الجنّة للمؤمن أو في النار للكافر .

أما المؤمن فيقول :

﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوّأ من الجنّة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ [الزمر : ٧٤]

ويرى الكافر الحقيقة التي لامفّر منها ، فيأخذه الندم :

﴿ وجيء يومئذٍ بجهنّم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنّى له الذكرى * يقول ياليتني قدمت لحياتي ﴾ [الفجر : ٢٣ ، ٢٤]

* * * *

هذه هي المراحل الخمس التي تمثل المسيرة كلها ، منذ نقطة الانطلاق إلى لقاء الله ، تمثلها النظرية العامة للدعوة الإسلاميّة ، تمثيلاً نابعاً من منهاج الله ، مدعّماً بالآيات والأحاديث ، حتى يرى الإنسان هذه المسيرة وتماسكها ، وحتى ينهض لمسؤولياته قبل أن يأخذه الندم ويقول : **﴿ يقول ياليتني قدمت لحياتي ﴾**

﴿ فيومئذٍ لايعذّب عذابه أحد . ولايوثق وثاقه أحد ﴾ [الفجر : ٢٥ , ٢٦]

ويرحم الله المؤمنين :

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضيّة * فادخلي في عبادي * وادخلي جنّتي ﴾ [الفجر : ٢٧-٣٠]

وهذه المراحل لاتعمل منفصلة بعضها عن بعض ، ولكنها تتداخل تداخلاً يحدِّده وسع الدعاة وطاقتهم ، وواقع الميدان ، والظروف العامة المحيطة .

فالداعية الصادق هو داعية في الميدان في جميع حالاته : وهو يتزوّد ، وهو يدرس ، وهو ينطلق ويعمل ، ليظل عمله متواصلاً جهاداً في سبيل الله ، وليظل زاده زاداً نامياً ، في نهج محدد وخطة واعية ، على بصيرة ، وعلى صراط مستقيم .

ويمكن أن نوجز ماعرضناه بنقاط محددة :

١ - إن واقع المسلمين اليوم يفرض سؤالين هامين :

الأول : أين ضاعت جهود قرن أو قرون من البذل في ميدان الدعوة ، ولماذا ضاعت ، ومن هو المسؤول عن النتائج المروّعة التي نشهدها ؟! .

والثاني : يسأله كل مسلم لنفسه : ماذا قدّم لنصرة دين الله ، وكيف قدّم ، وهل صدق ربه وأوفى بعهده مع الله على نهج وخطة ووعي ، وهل ثبت واستمر ، أم ضعف وتراجع ؟! .

٢ - إن واقع المسلمين اليوم يفرض أن تقوم من أجل ذلك دراسات منهجية ، جادة أمينة ، لتحديد الخلل والعلل والأمراض ، ولرسم النهج والخطة للعلاج .

٣ - إن أهم ماكشفته الدراسات التي قدمناها في كتب الدعوة :

أ - حصر الخلل في الميدان بالقضايا والمشكلات الأربع الرئيسية التي ترتبط بواحدة منها أو أكثر بقية المشكلات الجزئية .

ب - إن أهم قضية هي قضية الإيمان والتوحيد ، فهي تمثل نقطة الانطلاق والزاد الأول الرئيس للدعاة ، والقضية الكبرى في حياة كل إنسان والحقيقة الكبرى في الكون ، والهدف الثابت الأول ، والقاعدة الصلبة للدعوة الإسلامية كلها ، وجوهرها .

جـ - تكشف لنا الدراسات كذلك غياب مسؤولية الفرد ، حتى كاد الكثيرون يكونون قطيعاً يُساق ، أو رجالاً إمعة . وتكشف الدراسات خطورة هذا الخلل ، وكيف أن مسؤولية الجماعة والأمة لاتتحقَّق إلا بنجاح مسؤولية الفرد وتحقيقها في واقع الحياة على أساس من منهاج الله .

د - تكشف لنا الدراسات غياب النهج والتخطيط على أسس إيمانية ربَّانية ، وغلبة الارتجال وردود الفعل . وتكشف لنا ضرورة وضع النهج والخطة للدعوة الإسلامية .

٤ - من هنا تنبع النظرية العامة للدعوة الإسلامية بقاعدتها الصلبة ، وركنيها الأساسيين ، وأسسها الأربعة ، وعناصرها النامية الممتدة مع نمو الدعوة .

٥ - إن المصدر الرئيس والأول لفهم قضية الإيمان والتوحيد هو منهاج الله ، فله الدور الرئيس في بناء التصور الإيماني في النفوس ، وله الدور المتميز في كل قضايا الدعوة ومراحلها ، لايعدله أي مصدر آخر ، ولايحل محله . ونريد اليوم أن يؤدي منهاج الله الدور الذي كان يؤديه في عهد النبوة الخاتمة . فلا بد من دراسة هذا الدور ووعيه واتباعه .(١)

٦ - للكتاب البشري دور آخر : التذكير ، دراسة العلل والأمراض في الواقع ، دراسة سبل العلاج ، وضع النهج والخطة في قضية الإيمان والتوحيد وغيرها ، دراسة أحداث الواقع السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، دراسة قائمة على منهاج الله ، والتذكير الدائم الملحّ بضرورة العودة إلى منهاج الله ، لتكون هذه الدراسات والكتب منهجيّة ، تؤلف فيما بينها منهجاً محدّد المعالم والتفصيلات ، يحمل النظرية والتطبيق ، ونماذج من الدراسات التطبيقية على بعض القضايا الفكرية ، وبعض أحداث الواقع .

ويلي في الصفحة المقبلة النموذج لبناء النظرية العامة في الدعوة الإسلامية .

(١) يراجع كتاب : (دور المنهج الرباني في الدعوة الإسلامية) - (ط: ٦) للمؤلف .

النظرية العامة للدعوة الإسلامية





الباب السادس

موجز
الأهداف والوسائل والأساليب والعهد
في لقـاء المؤمنـين

الفصل الأول

موجز أهداف الدعوة الإسلامية والوسائل والأساليب

١ - موجز الأهداف :

أولاً : الهدف الأكبر والأسمى : الجنة ، الدار الآخرة ، رضوان الله ، أو كل تسمية وردت في منهاج الله ، ليكون هذا الهدف ليس شعاراً فحسب ، وإنما يدخل في النهج والخطة العامة ، وفي ميدان الدعوة ، وميدان التربية والبناء ، وميدان التدريب والممارسة ، بجهد مدروس متواصل لاينقطع ، وليجريَ مع الدم في العروق والأوصال .

ثانياً : الأهداف الثابتة : وهي أهداف ربّانية حدّدها الله في منهاجه .

١ - الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، لتكون الهدف الثابت الأول والممتد حتى تقوم الساعة .

٢ - التربية والبناء والإعداد والتدريب .

٣ - بناء الجيل المؤمن الذي نُعَرِّفه بِصِفَتين :

أ - أن تتوافر فيه الخصائص الإيمانية الربانية ، التي وعد الله حين تتوافر أَن ينزل النصر على عباده المؤمنين .

ب - أن يكون قادراً على تحمل أعباء الدعوة والمضيّ بها إلى سائر أهدافها التالية ، وإعداد أسباب القوة التي أمر الله بها .

٤ - الجهاد في سبيل الله بتصوره المحدَّد في منهاج الله .

٥ - أن تكون كلمة الله هي العليا فيما يقيمه الناس من أمر في أُمَّة مسلمة واحدة .

٦ - الانتشار في الأرض لعمارتها بالإيمان والتوحيد والحضارة الإيمانية .

هذه الأهداف الستّة تنبع كلُّها وترتبط بالهدف الأكبر والأسمى - الجنة - .

وكلما انتقلت الدعوة من هدف إلى هدف ، يعمل عندئذ الهدفان معاً ، ثم الثلاثة معاً ، وهكذا حتى تعمل الأهداف الستة مترابطة في وقت واحد ، على خطة ونهج .

هذه الأهداف يجب أن تكون جليّة في قلوب القادة والأفراد ، لينضبط العمل كله في أجواء الآية الكريمة ، ولتتضح الطريق أمام الجميع ، وليعرف كلٌّ مسئوليته : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ [يوسف : ١٠٨]

ثالثاً : الأهداف المرحلية :

وهي الأهداف التي تنقل الدعوة من هدف ثابت إلى هدف ثابت آخر . وهذه الأهداف تضعها الطاقة البشرية المؤمنة على طريق الدعوة ، على أساس من منهاج الله والواقع ، وعلى ضوء الأُسس الأَربعة من النظرية العامة .

وكل هدف يتحقق يصبح وسيلة وقوة في مسيرة الدعوة ، وتظل الأهداف تعمل وتتلاقى كلما انتقلت الدعوة من هدف إلى هدف ، ومن مرحلة إلى مرحلة .

الأَهداف كلها متماسكة مترابطة فيما بينها ، ومرتبطة كلها بالهدف الأَكبر والأسمى .

إنها مسئولية الطاقة البشريّة المؤمنة أن تجاهد لتحقيق هذه الأهداف لخير الإنسان على الأرض في الحياة الدنيا ولنجاته في الآخرة ، ولتحُول دون تحوّل الأهداف إلى شعارات تموت في ميدان الممارسة والتطبيق ، فهذا التحوّل ، إن وقع ، هو إثم كبير ومعصية واسعة ، ونشر للفتنة والفساد في الأرض ، والظلم والعدوان ، وانتشار الجريمة في كل بقاع الأرض . إنها مسئولية الطاقة البشرية ، مسئولية كل مسلم أن ينصح ويدعو ويتعهد ويجاهد حتى لايقع الانحراف ولا الوهن ، وحتى لا يتسلل الضعفاء والمنافقون ليوهنوا الصف المؤمن .

إنها مسئولية المسلم أن يَعْرف مسئولياته وواجباته ، ومكانه الذي يصدق الله فيه ويحسن عمله من خلاله ، وأن يعرف منازل الآخرين فلا يبخس الناس أشياءهم ، وأن يرعى روابط الإيمان والأُخوة في الله حتى لاتتمزق الأُمة شيعاً وفرقاً ، بل تجتمع على منهاج الله ، وعلى النهج النابع منه ، وعلى الدرب المحدَّد والأهداف المحددة . وإنها مسئولية الدعوة والأمة أن تعين الفرد على معرفة مسئولياته لا أن تتركه في تيه وجهل .

٢ - موجز الوسائل والأساليب :

أ - **المنهاج الفردي** : نظرية وتطبيقاً ليحقق ممارسة النظرية العامة في الدعوة الإسلامية ، وليساهم في بناء المسلم وتحديد مسئولياته ، وتنمية إيمانه وعلمه ومواهبه ، وليساهم في تحقيق الأهداف ، وفي بناء الأُمة المسلمة الواحدة .

ب - **منهج لقاء المؤمنين** : بنظريته ونهجه وخطته ، وتصوره ومعانيه ، ليوفر مكانا للتدريب مرتبطاً بالمنهاج الفردي ، وليجعل من التدريب قاعدة رئيسة في البناء والتربية والإعداد .

جـ- **الخطة اليومية والأسبوعية والسنوية** : لتنظم هذه الخطط عمل الفرد والجماعة ولتنسِّق الجهود ، وتساعد على الإدارة والإشراف والتوجيه .

د - **التدريب** : على أن يكون للتدريب نظريته ونهجه وخطته وأن تحدَّد موضوعات التدريب بأنواعه المختلفة : التدريب الفوري ، والدوري ، والمرحلي ، والمستمر وكذلك التدريب المباشر وغير المباشر .

هـ - **التقويم الدوري** : الذي يوفِّر الوقفة الإيمانيّة اللازمة ، والمراجعة والحساب للفرد والجماعة ، على أساس من منهاج الله ، ومن خلال النظام الإداري . على أن يكون التقويم دوريّاً : اسبوعياً ، شهرياً ، سنوياً . ولكل تقويم خطته وتفصيلاته . ومع الممارسة والتطبيق ينمو التقويم بأسلوبه .

و - **الكتاب المنهجي** : الذي يشرح النهج والنظرية ، ويشرح تفصيلات الممارسة والتطبيق ، والذي يدرس أهم القضايا الفكرية من خلال منهاج الله ، وأهم قضايا الواقع وأحداثه من خلال منهاج الله ، وليصبح الكتاب المنهجي جزءاً من النهج والخطة ، وليس عملاً متفلتا ارتجالياً ، وليتابع مسيرة الدعوة في مراحلها المختلفة .

ز - **الأدب الإسلامي نثراً وشعراً** : ووضع خصائصه الإيمانية والفنيّة ونظريته وقواعد النصح فيه (النقد) ، ليكون أدباً متميزاً عن آداب المبادىء الأُخرى ، وليساهم في تحقيق أهداف الدعوة وبناء الأُمة المسلمة الواحدة ، نابعاً من منهاج الله ملتزما به ، وبالنظرية العامة القائمة على منهاج الله والواقع .

ح - **المؤسسات الإيمانية** : التي تمثل حقيقة الإسلام في صورة تطبيقية في ميادين الحياة المختلفة : كمراكز الأبحاث والدراسات الإيمانية ، والمراكز التجارية والاقتصادية التي تمثل حقيقة الإسلام في الميدان ، ومراكز البناء والإعداد ، وغير ذلك .

ط - **الإعلام الإيماني** : ليُبْرِزَ طهارة الكلمة ، ونظافة الأسلوب وصدق العطاء والتحليل ، بعيداً عن الافتراء والظلم ، والظنّ والكذب ، والتهويل ، واستثارة العواطف والأهواء ، ذلك كله بالعمل المنهجيّ غير الارتجالي .

ي - **الوسائل والأساليب الإيمانية** التي تتجدّد وتنمو من خلال الممارسة ، ومع تجدِّد الواقع والأَحداث والإمكانات ، ونمو المواهب والقدرات في كل ميدان ، ومع الانتقال من هدف إلى هدف ، ومن مرحلة إلى مرحلة . وستظل المسئولية هي مسئولية الطاقة البشرية بالانتقال من مرحلة إلى مرحلة ، وتطوير وتنمية الوسائل والأساليب ، مع المحافظة على التزام منهاج الله ، ونهج الدعوة وخطتها ونظريتها العامة ، والاستقامة على الدرب لتحقيق الأهداف على طريق الجنة .

ك - **النظام الإداري الإيماني** الذي يوفِّر ، بالإضافة للمراقبة والإشراف ، والمتابعة والتوجيه ، تنسيق الجهود حتى لاتتصادم ، وحتى يعرف المسلم حقوقه وواجباته

في الدعـوة ، وحدوده التي يقف عندهـا ، والساحات التي يمارس فيهـا مبادراته الـذاتية وحـوافـزه الإيمانيـة . ولابـد من التأكيـد ثم التأكيـد على قضيـة الإدارة والنظـام وتحديـد المسئوليـات والصلاحيـات بصورة تنمـو مع الأيام وتتطـور . إن أيَّ نشاط لاينسقـه نظام إداري معرض للفشل وتضارب الجهود وتبديد الوقت .

م - **إمكانات المجتمع ومؤسسـاته ومراكزه** : البيت والأُسرة ، المسجد ، المعاهد والمؤسسـات العلمية والإعـلاميـة والتربويـة والاقتصـادية ، على قـدر مـاتتسع الدعـوة وميـادينها ، وتنمـو كفـاءاتها وطاقـاتها البشرية التـي تظل على نفس المستوى من صـدق الإيمان وصفاء التوحيد وقوة العلم وسلامة الوسع .

الفصل الثاني

موجـز العهـد(١)

إن عهود ابن آدم كلها في حياته الدنيـا تبتدىء ، أو يجب أن تبتدىء ، بتذكره عهده مع الله ، عهده الذي أخذه الله من ذرية بني آدم كلهم في عالم الغيب ، كما علمتنا الآيات والأحاديث . لايولد أحد من بني آدم إلاَّ وهو على عهد مع الله .

فلقد جعل الله هذا العهد في فطرة ابن آدم ، في كيـانه ، حتى لايتفلت منه ، وجعله الله جزءاً رئيساً من الإيمان والتوحيد ، وجزءاً رئيساً من الدعوة الإسلامية .

وبعث الله الأنبياء والمرسلين ليُـذكِّروا الناس بهذا العهد مع الله ، ليذكِّـروهم بشروطه وأُسسه ومداه وخطورته ، وليذكِّروهم بأن جميع عهودهم مع الناس في الحياة الدنيا يجب أن تنبع من هذا العهد وترتبط به وتخضع له . فإذا تمّ هـذا ، فإن هذه العهود في الحياة الدنيا بهذه الشروط يسميها الله سبحانه وتعالى عهد الله .

وامتـد العهد مع الله مع امتداد الـرسل والأنبيـاء إلى جميع الشعوب وجميع العصـور حتى يوم القيـامة . ويبسط لنا منهاج الله امتـداد هذا العهد مع الشعـوب كلها ، مع بني اسرائيل ، مع النصارى ، مع أهل الكتاب ، ثم مع خـاتم الأنبياء محمد ﷺ وأمته ، ومع امتداد الدعوة الإسلامية في الأرض .

ويقوم العهـد مع الله على أساس الشهـادة بأنـه لاإله الا الله ، والشهـادة بأن محمداً رسول الله ، يوضح هاتين الشهادتين آيـة في سورة الأعراف [١٧٢-١٧٤] وآية في سورة آل عمرن [٨١] ، سنذكرها في صفحات مقبلة .

ويبسط لنا كـذلك منهاج الله سائر تفصيلات العهد مـع الله على أساس الشهادتين السابقتين . وهذه التفصيلات هي التكاليف التي أمر الله بها عباده المؤمنين أن يقوموا بها .

فمن منهـاج الله يعرف المؤمن حقيقـة عهده مـع الله ، ومنه أيضـاً يعرف التكـاليف التي أُمِر بها والتي سيُحاسَب عليها يوم القيامة بين يدي العزيز الجبار .

(١) تراجع الكتب التالية للمؤلف من أجل دراسة أوسع : «العهد والبيعة وواقعنا المعاصر.» - «لقاء المؤمنين - الجزء الأول» .

وإذا استعرضنا التاريخ الإسلامي والسيرة وحياة الصحابة ، ورددنا ذلك إلى منهاج الله ، نجد أن هنالك نماذج أربعة رئيسة من العهود :

أولاً : العهد مع الله والبيعة له .

ثانياً : العهد الذي أخذه رسول الله ﷺ من أصحابه والبيعة له . إنه عهد مع النبوة الخاتمة ، عهد مرتبط بالعهد مع الله حتى كأنهما عهد واحد وبيعة واحدة .

ثالثاً : العهد والبيعة للخلفاء الراشدين الذين يقودون أُمة واحدة هي أُمة الإسلام غير الممزّقة ، لها خليفة واحد وإمام واحد .

رابعاً : العهد والبيعة اللذان يكونان استجابة لواجب شرعي في واقع جديد .

وهذا العهد الأخير هو الذي نحتاج إلى توضيحه وبيان فقهه . فهذا العهد يجب أن يكون على أمر محدد جلي ، ونهج مدروس واضح ، وأَهداف وأَساليب ووسائل ، كلها محدّدة واضحة ، وكلها نابعة من منهاج الله ، وكلها ضرورية للواقع الذي ينهض له العهد .

وهذا العهد إذا استوفى شروطه وحُدِّد نهجُه وأَهدافُه ، فلا يحلّ نقضه أَبداً ، لأَنه عهد نابع من العهد مع الله ، مرتبط به ، ماضٍ معه فلا ينتهي حتى تتحقّق أهدافه المحدّدة الرّبانيّة .

وهو عهد يختلف عن العهد مع خليفة المسلمين . فالعهد مع خليفة المسلمين يجعل الخليفة مسئولاً عن إقامة منهاج الله كله ، وحماية كل مسلم في الأرض ، وحماية ديار المسلمين وغير ذلك من المسئوليات الشرعية التي وضعها الله في عنق الخليفة ، تُعِينه الأُمة ومواهبها على تحقيق أمر الدين كله . فتكون البيعة عامة على كتاب الله وسنة رسوله .

هذا العهد الأخير ، النموذج الرابع ، لايصح إلا إذا كان هناك نقاط محددة ، ونهج محدد ، وأهداف محددة ، يحتاجها الواقع ويأمر بها الله ورسوله ، لتمضي الدعوة الإسلامية بها على بصيرة ونور ، علماء ودعاة وجنوداً ، في صفّ كالبنيان المرصوص .

هذا العهد الأخير هو عهد على طريق بناء الأمة المسلمة الواحدة ، وعلى طريق بناء

حضارة الإيمان وعمارة الأرض بها ، على طريق تحقيق أهداف الدعوة الإسلامية في الأرض ، في مراحلها وخطواتها المنهجية المدروسة .

وهذا العهد لايحل نقضه ولاينتهي أمره إلا بتحقق شروطه المحدَّدة المفصلة وبلوغ غاياته وأهدافه . فلا يصح مع نقضه كفارة اليمين التي تجرى مع من يترك يمينه لما هو خير منها . فهذا العهد ليس من شروطه القسم واليمين إلا للتوكيد والتوثيق . أما شروط قيامه ونفاذه فهو أن يعي كلُّ واحد تفاصيل هذا العهد وبنوده وعياً يصاحبه الإيمان واليقين ، حتى لايكون لأحد عذر بين يدي الله ، ثم يعلن رضاءه ببسط اليد أو بأي كلمة طيبة واضحة .

إن أساس العهود كلها هو الوفاء بما تقتضيه الشهادتان : شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله . وكلتا الشهادتين ثابتة في القرآن الكريم ، كما هي ثابتة بالسنة . وهما في فطرة ابن آدم جاء الرسل ليثبتوها :

فشهادة أن لا إلا الله عهد أخذه الله من بني آدم من ظهورهم :

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألستُ بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصّل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾ [الأعراف : ١٧٢-١٧٤]

أما شهادة أن محمداً رسول الله فهي عهد أخذه الله من جميع الأنبياء وأتباعهم :

﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنّه قال أأقرتم وأخدتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [آل عمران : ٨١]

وعن عبدالله بن عمر قال قال رسول الله ﷺ : **« بُني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان . »** [رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي][1]

---

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) . ص(٣) للألباني : حديث رقم (٢٨٣٧) .

الفصل الثالث

موجز العهد في لقاء المؤمنين

نوجز بنود العهد الذي يمكن أن يجتمع عليه المؤمنون العاملون ، والذي يكون مثلاً على النموذج الرابع الذي عرضناه في الصفحات السابقة بالنقاط التالية :

١ - إخلاص النية لله سبحانه وتعالى مع تجديدها وتوفير الشروط العملية التي تشير إلى الإخلاص وصدق النية ، وأهمها محاسبة النفس قبل محاسبة الآخرين ، وكذلك الوفاء والبذل والعطاء على أساس من منهاج الله ، والنهج والخطة لكل عمل .

٢ - دراسة منهاج الله - قرآناً وسنة ولغة عربية - دراسة منهجية ، صحبة عمر وحياة ، بعزيمة وجد ، مع الأخذ بالأسباب التي تعين على ذلك ، وأهمها الخطة المحددة لهذا الأمر كالمنهاج الفردي ومنهج اللقاء .

٣ - دراسة الواقع من خلال منهاج الله دراسة منهجية مصاحبة لدراسة منهاج الله ، على ضوء النهج المحدد والخطة الموضوعة .

٤ - أن تكون الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد هي الهدف الثابت الأول ، والقضية الكبرى ثم ينهض المسلم على ضوء ذلك إلى المساهمة في تحقيق الأهداف الثابتة في الواقع كما أمر الله ورسوله ، على درب ممتدٍّ إلى الجنة ، ويبذل من أجل ذلك جهده الحق دون تراخ وتوان .

٥ - أن يدرس المسلم نهج الدعوة وخطتها ، ونظريتها العامة وأهدافها ، ووسائلها وأساليبها ، كما هي مبينة في كتب الدعوة القائمة على منهاج الله والملبيّة لحاجة الواقع ، وأن يتأكد هو بنفسه من دراسته أن ذلك كله قائم على منهاج الله حتى يطمئنَّ ، وحتى يكون مسئولاً عن عهده يوم القيامة بين يدي الله سبحانه وتعالى ، وحتى يطمئن كذلك إلى أن ولاءه الأول لله سبحانه وتعالى وأنَّ عهده الأول مع الله سبحانه وتعالى ، وأن حبه

الأَكبر هو لله ولرسوله ، وأنه من هذا الولاء الأول والعهد الأول والحب الأَكبر ينشأ كلُّ ولاء في الحياة الدنيا وكل عهد وكلّ حب على أساس من منهاج الله .

٦ – أَن يدرك من خلال ذلك أن مسئولياته في الحياة الدنيا لاتقف عند الشعائر وحدها ، ولكنها تمتد إلى ميادين متعددة في الحياة ، يُفَصِّلها منهاج الله ، وتُذكِّر بها الدعوة تذكيراً ، وتعين على أَدائها ، وعلى ترتيبها وتيسير النهج والخطة للوفاء بها .

٧ – أَن يحافظ على الروابط الإيمانية ويصونها من أن تتحول إلى عصبيات جاهلية .

٨ – أن يعرف حدوده وحدود غيره وينزل الناس منازلهم على أساس من منهاج الله وميزان المؤمن القائم على منهاج الله .

٩ – أن ينصح لإخوانه وأن يتقبل النصيحة ، وأن يؤدي ذلك عن إيمان وعلم . فيعطى النصيحة في المكان المناسب والوقت المناسب والأسلوب المناسب ، وبالشروط الإيمانية التي حددها الله سبحانه وتعالى . فينصح لأخيه مباشرة ويَستر عليه مادام الستر أقرب للتقوى .

١٠ – يلتزم عند إبداء الرأي بالشروط التي أمر الله بها . فيعطي رأيه عن بيّنة وعلم ، لا عن جهل وهوى ، ويتأكد من صدق نيته لله لانيَّة الفتنة والتجريح والعصبيات الجاهلية ، ويتأكد من توافر الدليل والحجة والبيّنة ، ومن الحاجة للرأي . ولايعتبر أن رأيه ملزم للمسلمين ، إلا إذا كان تذكيراً بنص من منهاج الله ، أو قاعدة من النهج والإدارة والدعوة .

١١ – أن يتحلى بأخلاق الإيمان فلا يقع في غيبة ولا نميمة ولا افتراء ولا ظلم ، ويتقي الله في أعراض المسلمين ويحفظ لهم حقوقهم عليه ويتجنب الظن إذا كان مما نهى الله عنه . ويتجنب الكلمة الخبيثة ويقول الكلمة الطيبة ، ويظل لسانه رطباً بذكر الله .

١٢ – أن يصون العهد ويفي به على طاعة لله ، ويرعى الأمانة ولا ينقضها حتى يلقى الله وفيّاً أَميناً .

١٣- كل مسلم يعتبر مستأمناً على دينه ودعوتـه ، فلا يحل له أن يسكت كالشيطان الأخرس ، فـإذا رأى مخالفة لمنهاج الله أو مخالفـة للنهج والإدارة سارع إلى النصـح بالشروط الإيمانية ، ومعالجة الخلل في حدود مكانه ومنزلتـه ، والاستعانة بأهل الرأي إذا لزم الأمر ، وفق النهج والخطة والنظام الإداري .

١٤- تبدأ مسئولية المسلم أولاً في نفسه . فهنـاك الجولة الأُولى يخوضها ليتعهد نفسه على أساس من منهـاج الله ، وخطة الدعوة التي تعينـه في هذا الأَمر . ومع هذه المسئـولية الممتدّة مدى العمـر كله ، تقوم مسئوليّـاته نحو زوجه وولده ليرعـاهم على نفس الأَساس والنهج والخطة ، ثم ينطلق يدعو إلى الله ورسوله ، إلى الإيمان والتوحيد ، وهو وافر الزاد ، على صراط مستقيم ، وعلى بصيرة هـو وكل داعيـة التزم ذلك ، وعـرف دربـه وأهدافـه ، ليوفي بالأمانة والعهد .

١٥- أن تمثّل التكاليف الربّـانيّة التي يتعلمها من منهاج الله ، ومما تذكّـر به الدعوة الإسـلامية ، صراطـاً مستقيماً ، تتماسك فيه جميع التكـاليف ولا تنقطع وتتمزّق ، ونهجـاً ممتدّاً مفصّلا يمضي في سبيل الله إلى الهدف الأكبر والأسمى .

١٦- أن يكـون هذا الصراط المستقيم هـو السبيل الذي يجمع المؤمنين الصـادقين ، وهو سبيل وحيد للمؤمنين لاسبيل سواه .

١٧- أن يكون هـذا الصراط المستقيم الذي أمـر الله باتباعـه هو السبيل أيضـاً لبناء الأمة المسلمة الواحدة ، وهو السبيل لنجاة المؤمنين من فتنة الدنيا وعذاب الآخرة .

١٨- ولقد سمّى الله العهد الذي يقيمه المؤمن في الـدنيا والذي ينبع من العهد الأول للمؤمن مع الله ، ومن منهاج الله ، **عهد الله** تكريماً له وتـوثيقاً ، ولارتباطه بـالعهد الأول مع الله وخضوعه لأَحكام منهاج الله :

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأَيمان بعـد توكيدها وقد جعلتم

الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ماتفعلون * ولا تكونـوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أُمة هي أربى من أُمة إنما يبلوكم الله به ولَيُبَيِّنَنّ لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون ﴾ [النحل : ٩١ ، ٩٢]

وكذلك :

﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزلّ قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل ولكم عذاب عظيم * ولاتشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ [النحل : ٩٤ ، ٩٥]

ولقد ذكرنا قبل صفحات النماذج الأربعة للعهود التـي يجيزها الإسلام . ونعيدها هنا للتأكيد والتثبيت .

الأول : عهد الإنسـان مع ربه وخالقـه الله الذي لا إلـه إلا هو . وهو العهـد الذي أخذه الله من ذرية آدم عليه السلام وبنيه جميعهم في عالم الغيب ، وهو العهد الذي جعله الله في فطـرة بني آدم ويولـدون عليه . ومن هـذا العهد تنبع سـائر عهود المؤمنين في الحيـاة الدنيا حتى قيام الساعة ، وترتبط به .

الثاني : العهد الذي اعطـاه أصحاب رسول الله ﷺ له والبيعة التي بايعـوها . وهو عهد خاص برسول الله ﷺ ، نـابع من العهد مع الله مرتبط به . **﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيدهم .. ﴾** .

الثالث : العهد مع خليفة رسول الله ﷺ ، وأولي الأمر ، على إقـامة كل أُمور الدين والدعوة ونصرة الإسلام وإعلاء كلمة الله ، وتطبيـق شرع الله بكامله في الأمة ، وحماية الأمة المسلمة كلهـا أمّة مسلمةً واحدة . وهـو العهد النابع من العهدين السـابقين مرتبط بهما ، قائم كذلك على الكتاب والسنة .

الرابع : العهد الـذي يلتزم به المؤمنون لإقـامة أمر من أمور الإسـلام، إذا غاب هذا

الأَمر عن الواقع ، أو للدفاع عن دار الإسلام أو أي جزء منها ، ولايصحّ هذا العهد إلا إذا ارتبط بالعهد مع الله وخضع لشرعه وأحكامه ، ويجب كذلك أن يكون الأمر مفصَّلاً بيّناً ، وليس عهداً عاماً .

إن العهد في لقـاء المؤمنين هو تـابع للنموذج الرابـع ، يُذكِّر المؤمنين بـأَمور الـدعوة الإسلامية في الأرض . ويُفَصِّل العهـدُ ببنوده حتى يكون بيّناً جليـاً لاغموض فيه ، وحتى يكون بـاباً لجمع المؤمنين وجهودهم لإقـامة الأمة المسلمـة الواحدة في الأرض . فهـو عهد يذكِّـر المؤمنين ببعض ماأغفلـوه في مواقع كثيرة . وهو عهـد يتعَّهد ويـربي ويدرّب المؤمن على قواعد الإيمان ، عهد يبتعد عن الفتن وأبوابها ، ويعالج النفوس وأصحابها .

فهرس كتاب

موجز

النظرية العامة للدعوة الإسلامية والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين

الموضـــوع	رقم الصفحة
	٢٧٣

كتب للمؤلف

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
	أولاً كتب توجز النهج العام والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	
١	موجز النظرية العامة في الدعوة الإسلامية والنهج العام وأساس لقاء المؤمنين	ط ٢
٢	أضواء على طريق النجاة	ط ٢
٣	النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ٥
	ثانياً : كتب تفصل النهج العام والنظرية العامة في الدعوة الإسلامية	
٤	دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية	ط ٦
٥	منهج المؤمن بين العلم والتطبيق	ط ٥
٦	النظرية العامة للدعوة الإسلامية – نهج الدعوة وخطة التربية والبناء	ط ٣
٧	منهج لقاء المؤمنين	ط ١
٨	لقاء المؤمنين – أسسه وقواعده – الجزء الأول	ط ٤
٩	لقاء المؤمنين – الجزء الثاني – الأهداف	ط ٤
١٠	العهد والبيعة وواقعنا المعاصر	ط ٤
١١	قبسات من الكتاب والسنة تدبر وظلال	ط ١
١٢	الفقه امتداده وشموله في الإسلام بين المنهاج الرباني والواقع	ط ١
١٣	الإسلام أركان وبناء – تذكير ونصح	ط ١
١٤	فقه الإدارة الإيمانية في الدعوة الإسلامية	ط ١
١٥	المسؤولية الفردية في الإسلام : أسسها وتكاليفها وتميزها	ط ١
	ثالثاً : أهم قضايا التوحيد في واقعنا المعاصر والنهج والخطة للدعوة والبلاغ :	
١٦	التوحيد وواقعنا المعاصر	ط ٣
١٧	الحقيقة الكبرى في الكون والحياة	ط ١
١٨	النية في الإسلام وبُعدها الإنساني	ط ٣

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
١٩	الولاء بين منهاج الله والواقع	ط ٣
٢٠	الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام	ط ٤
٢١	الخشوع	ط١
رابعاً : بعض القضايا الفكرية في الواقع وبعض أحداثه :		
٢٢	الشورى وممارستها الإيمانية	ط ٣
٢٣	الشورى لا الديمقراطية	ط ٤
٢٤	الصحوة الإسلامية إلى أين ؟	ط ٣
٢٥	التعامل مع مجتمع غير مسلم من خلال الانتماء الصادق إلى الإسلام	ط ١
٢٦	واقع المسلمين أمراض وعلاج	ط ١
٢٧	بناء الأمة المسلمة الواحدة والنظرية العامة للدعوة الإسلامية	ط ١
٢٨	المسلمون بين العَلمانية وحقوق الإنسان الوضعية	ط١
٢٩	على أبواب القدس	ط٢
٣٠	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع	ط ٤
٣١	عبدالله عزام أحداث ومواقف	ط ١
خامساً : الأدب الملتزم بالإسلام والنصح (النقد) الأدبي ، والردّ على المذاهب الأخرى :		
٣٢	الأدب الإسلامي - إنسانيته وعالميته	ط ٣
٣٣	النقد الأدبي المعاصر بين الهدم والبناء	ط ١
٣٤	الحداثة في منظور إيماني	ط ٤
٣٥	تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها	ط ٢
٣٦	أدب الوصايا والمواعظ : منزلته ونهجه وخصائصه الإيمانية والفنية	ط١
٣٧	لماذا اللغة العربية	ط ١

الرقم	اسم الكتاب	الطبعة
سادساً : الدواوين الشعرية :		
٣٨	ديوان الأرض المباركة	ط ٦
٣٩	ديوان موكب النور	ط ٤
٤٠	ديوان جراح على الدرب	ط ٣
٤١	ديوان مهرجان القصيد	ط ١
٤٢	أكثروا ذكر هاذم اللذات - أب يرثي ابنه	ط ١
سابعاً : الملاحم الشعرية		
٤٣	ملحمة فلسطين	ط ٥
٤٤	ملحمة الأقصى	ط ٢
٤٥	ملحمة الجهاد الأفغاني	ط ٣
٤٦	ملحمة البوسنة والهرسك	ط ٢
٤٧	ملحمة الإسلام في الهند	ط ٢
٤٨	ملحمة القسطنطينية	ط ٢
٤٩	ملحمة الغرباء	ط ٣
ثامناً : في الدعوة الإسلامية باللغة الانجليزية		
٥٠	خطة الداعية (The Caller's Plan)	ط ١
تاسعاً : كتب ترجمت إلى لغات أخرى :		
٥١	لقاء المؤمنين - الجزء الأول « باللغة التركية »	ط ١
٥٢	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع «باللغة التركية »	ط ١
٥٣	فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع « باللغة الانجليزية »	ط ١
عاشراً : علوم أخرى :		
٥٤	دراسة الموجات الإلكترومغناطيسية المتوسطة «بالانجليزية»	ط ١

مع هذا الكتاب

إنّ أهداف الإسلام أهداف ربّانيّة لايمكن تحقيقها في الواقع البشريّ إلا بجنود ربّانيين ووسائل وأساليب ربانية. وهذه وتلك تحتاج إلى إعداد وبناء رباني.

وإنّ بناء عمارة مهما عظمت يسهُل إذا قيس ببناء الإنسان على قواعد الإيمان والتوحيد والمنهاج الرباني. فبناء العمارة يقوم به المهندسون والفنيّون. أما بناء الإنسان وإعداده وتدريبه فمهمّة بعث الله من أجلها الرسل والأنبياء الذين ختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم. ثمّ جعلها مهمّة الأمّة المسلمة الواحدة الممتدة مع الزمن.

ومن أجل بناء الأمة المسلمة الواحدة في الأرض لابد من لقاء المؤمنين المتقين العاملين. ولابدّ من اللقاء من أجل الوفاء بالعهد مع الله. وبالأمانة التي حملها الإنسان والخلافة التي جُعلتْ له والعبادة التي خُلق لها والعمارة التي أُمر بها. ومن أجل ذلكَ يجب **أن يتعاون المؤمنَون في كل ما أمرهم الله أن يتعاونوا فيه. ويعذر بعضهم بعضاً فيما أذن الله لهم أن يختلفوا فيه.**

إنّ الدرب جليّ. إنه الصراط المستقيم. إنه سبيل الله. وهو سبيل وحيد لا سبيل للمؤمنين سواه. إنه السبيل إلى النصر! وإنّ المضيّ فيه مضيٌّ إلى أهدافٍ ربانيّة ثابته تمتدّ إلى الهدف الأكبر والأسمى ـ الجنَّة ـ مُضيئاً يحمل النهج والتخطيط والبذل والعطاء. من أجل الاستقامة على الدرب.

أيها المسلمون! أيّها الدعاة! لاتخافوا على الإسلام. فالإسلام سينتصر. ولكن خافوا على أنفسكم حين تقفون بين يدي الله تُسألون عما بذلتم من أجل نصرة الإسلام والوفاء بالعهد مع الله. وهل تجنبتم الشقاق والصراع وتنافس الدنيا. أمِ وقعتم فيه !

لقد جاء هذا الكتاب ليُذكّرَ بما جلاه الكتابُ والسنة من صراط مستقيم. وأهداف ربانية ثابتة عليه. ونهج وتخطيط. ليجمع هذا النهج والدرب المؤمنين. إننا نقدّم فيه النظرية العامة للدعوة الإسلامية. والمناهج التطبيقية والنماذج العملية والتخطيط الجامع.